ABU ABDO ALBAGL

سِلينا أو الحياة الأخرى

ڤالتر كپاخر

ترجمة: د. نبيل الحفّار

نبذة عن المؤلف:

ولد ڤالتر كَيَّاخَر في عام 1938 في زالتسبورغ في النمسا، ترك المدرسة وهو في الخامسة عشرة من عمره واشتغل في مهن مختلفة. بدأ نشاطه الأدبي عام 1964، وبدأ ينشر منذ عام 1967، إلى أن تفرّغ للكتابة في عام 1978.

يعيش حالياً بعيداً عن الأضواء في أوبرتورم قرب زالتسبورغ، وقد حصل على عدة جوائز وأوسمة، منها جائزة هرمَن لِنْتس عام 2004 وجائزة غيورغ بوشنر الألمانية للأدب عام 2009.

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
سيلينا، أو الحياة الأخرى
فالتر كپاخر

الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م
© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)

PT2671.A59 S4512 2009
Kappacher, Walter, 1938
[Selina]
سلينا، أو الحياة الأخرى: رواية/ تأليف فالتر كپاخر؛ ترجمها عن الالمانية نبيل الحفار؛ مراجعة مصطفى السليمان. ـ ط.1. ـ أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

268 ص: 14×21 سم.
ترجمة كتاب: Selina, Oder, das Andere Leben
تدمك: 978-9948-01-400-3
1- القصص الألمانية أ - حفار، نبيل. ب - السليمان، مصطفى.
ج - عنوان: الحياة الأخرى. هـ - العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني:
Walter Kappacher
Selina Oder das Andere Leben
©2005 Deuticke im Paul Zsolnay Verlag Wien

كلمة
KALIMA
www.kalima.com

ص.ب: 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ
www.fask.uni-mainz.de

Johannes Gutenberg-Universität Mainz, Fachbereich Translations-, Sprach-und Kulturwissenschaft, An der Hochschule 2, 76726 Germersheim, Postfach 11 50, 76711 Germersheim Telefon: 07274-508-0, Fax: 07274-50835-429

إن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

رواية

سلينا
أو الحياة الأخرى

تأليف:
ڤالتر كَپَّاخَر

ترجمة: **د. نبيل الحفار**
مراجعة: **مصطفى السليمان**

... لو أني جئت إلى إيطاليا أول مرة
قبل عشرين أو خمسة وعشرين عاماً
وزرتها بعد ذلك عدة مرات؛ لصرت أنا
أيضاً شيئاً آخر.

أدَلْبِرت شْتيفْتر(١)

ثمة كائن أبدي يراقب كائناً ينعم الفكر
في تدمير نفسه.

جان پاول(٢)

ملاحظة :

تجري أحداث هذه الرواية في إيطاليا لذلك روعي عند كتابة أسماء العلم اللفظ الايطالي.

---

١ - أدالبرت شتيفتر Adalbert Stifter (١٨٠٥-١٨٦٨) قاص وروائي نمساوي، تابع تقاليد غوته التربوية الإنسانية في إبداعه السردي المتأخر. (م)

٢ - جان پاول Jean Paul (١٧٦٣-١٨٢٥) قاص وروائي ألماني عالج في أعماله التناقض بين الطموح السردي الإنساني والضغوط الاجتماعية والسياسية القاهرة. (م)

قلتِ «تدريجياً أستطيع أن أتصور ما الذي يجذبك إلى هذا المكان. ليس لدي أي فكرة كيف تعرفتَ على خالي هاينريش..». كنا قد صعدنا الدرجات الحجرية المقلقلة إلى المدخل الأمامي للدار، فانتقلنا بذلك من تحت الشمس إلى الظلال. تركتك تصعدين قبلي، ومثلما فعل هاينريش في زيارته الأولى لي في مورا في الصيف الماضي؛ أمسكتِ عند منتصف الدرج بساعدي، كنتِ على وشك أن تتعثري، وترددتِ واستدرتِ نصف استدارة بحيث لامس شعرك وجنتي. رفعتِ النظارات الشمسية القاتمة عن عينيك لأول مرة ونظرتِ إلى الهضبة الشرقية، إلى بستان الزيتون الصغير الموزع على مدرجات تبدأ من أعلى حافة الهضبة، من مكان تصدر منه أصوات أنثوية. قلتُ إن الأمطار في العام الماضي كانت تنهمر من كل مكان في الدار. ولأن ماريو لا يُعتمد عليه فقد ذهبت بنفسي بالسيارة قبل ثلاثة أسابيع، واشتريت ألواح القرميد التي استبدلتها بالألواح المعطوبة على السطح. لا شك أنكِ لاحظت شظايا الألواح التي ما زالت متناثرة في كل مكان حول الدار. فقد كنت ببساطة أرمي الألواح المعطوبة من السقف كيفما اتفق. كانت طيور السنونو تنطلق عبر المرج أمام الدار منحدرة باتجاه الجدول. آنذاك - يا سلينا - وفي تموز (يوليو) عندما أتيتِ إلى مورا أول مرة لم يخطر في بالي يومها على الإطلاق أن رفع الكلفة فيما بيننا سيكون ممكناً، لم أرتح

إليكِ عندما استقبلتك صباحاً باكراً في أريتزو وصعدنا بالسيارة إلى پونتنانو، أقلقني صمتك، وتصورت على نحو لم أستطع تفسيره أنك لا تشعرين بالاطمئنان تجاهي.

في أيلول (سبتمبر) عندما فكرتُ عدة مرات بإنهاء إقامتي مبكراً في مورا، وفى ماريو بوعده الذي قطعه على نفسه في الصيف الماضي، وبنى للدرج سوراً بقوائم وثبت البلاطات الحجرية بالملاط وسد الشقوق. لا أدري إن كنتِ لاحظت جيش النمل – ساكن الدار الحقيقي منذ أمد بعيد – القادم من الثغرات في باطن الدرج وكيف يتسلق جذع شجرة التين الملتوي، والتي تستند بعض أغصانها وأوراقها على جدار الدار. في أثناء حضورك فضلتُ ألا أفكر بأي أمر يتعلق بالحيوانات التي تقطن في ثغرات وشقوق الدرج والقسم السفلي من جدار الدار المبني بحجارة كبيرة، فعواصف سنوات لا تحصى أدت إلى تفتيت الحشوات الملاطية ولا سيما في الجانب الشمالي. وفضلاً عن النمل والجعلان لاحظت بصورة رئيسية وجود السحالي والعقارب الصغيرة. أتذكر كيف كان هاينريش في أوائل الصيف سعيداً بقدومك لزيارته، وكيف كان يخشى من ناحية أخرى أن تلحي عليه ـ كما في رسائلك ـ كي يحسم أمره ويبيع الدارين ويعود إلى ألمانيا.

سألتني: «ما هذا الصوت؟». بدا الأمر وكأننا قد انسقنا خارج الزمن. كانت الأصوات الآتية من أعلى حافة الهضبة قد صارت أكثر وضوحاً لدرجة فهم بعض الكلمات أحياناً، فقلتُ بعد برهة: أظن أنه آتٍ من بستان فواكه دار كاستلّي على الجانب الآخر من مهد الوادي وأعتقد أنه صادر ربما عن لعبة ريح بغرض إبعاد الطيور عن الفاكهة، وأضفتُ أنني أحياناً لا أستطيع سماع أصوات الصنجات أبداً، إذ تقذفها الريح أحياناً فتبدو آتية من اتجاه آخر تماماً. (عندما أوصلتك إلى محطة القطار في أريتزو، وقُرع الصنج قبيل الإعلان عن قدوم قطار، ابتسمت لي).

لأول مرة يتحلحل الجمود الذي كان يكسو وجهك، وأنا تجنبت النظر إلى الندبة غير الظاهرة الممتدة من الأذن اليسرى حتى الفك الأسفل. تنفستِ بعمق، فبدا لي لوهلة صف أسنانك السليمة التي تصورتها بالغة الصغر وقلتِ: «لم أكن أعرف أن هاينريش يمتلك داراً أخرى». ونظرتِ أثناء ذلك إلى الطاولة الصغيرة الموضوعة في الظل بجانب الدرج والتي كان عليها الكتابان اللذان تناولتهما بيدك عندما ترجلنا من السيارة: «المحاورات الصغيرة» و«مسخ القيصر كلاوديوس إلى نبات قرع» للفيلسوف سينيكا.

في أثناء صعودنا الدرجتين الأخيرتين خطر ببالي هاينريش، عندما أوصلته بسيارتي في الصيف الماضي إلى

طبيبه في تيرانووفا؛ قال إن ابنة أخته لا تطالع الكتب، وذكر ذات مرة أنها صارت «هشة نفسياً» بعد حادث السيارة الذي وقع قبل بضع سنوات. (قال: «كانت أختي معجبة جداً بجان پاول، ومن هنا جاء اسم سِلينا. لكنني متأكد من أن أختي لم تقرأ أبداً كتاب جان پاول الذي يحمل الاسم نفسه»). لكنكِ الآن عندما وضعتِ الكتاب على الطاولة قبيل أن ندخل الدار قلتِ: «كتاب ساخر رائع، أليس كذلك؟» فأجبتك بسرعة بأني لم أطلع على الكتاب إلا سريعاً ومؤخراً، وحدثتك عن أن كتابه «الحياة السعيدة» قد أيقظ اهتمامي بالكتابات الفلسفية عندما كنت في الثامنة عشرة من عمري. لم تكن تلك الكتابات بأسلوب المحاورات وإنما بأسلوب الرسائل، وقد تحدثت عنها مع هاينريش عدة مرات، لكنني لم أذكر أمامك أن الكتابين مستعارين من مكتبته. منذ زيارتي الثانية أو الثالثة له هناك في پونتنانو العالية كان هاينريش يسألني كل مرة عند الوداع عما إذا كنت أرغب باستعارة بعض كتبه. وعندما كنت أعيد له في المرة التالية كتاباً، كان يبقيه بيده مدة من الزمن وكأنه يبغي أن يعيد إليه نسغه الحيوي.

عندما أريتك حفرة المرحاض على أحد المدرجات والتي تسترها الأغصان المتدلية من إحدى أشجار الكستناء الضخمة كان رأيك: «هذا لا يناسبني أبداً». وأخيراً أريتك دوشي الخاص الذي يستخدم أثناء رحلات التخييم، والمؤلف

من كيس بلاستيكي سميك يتسع لعشرة ليترات من الماء، مع خرطوم ومِرَش. وإذا أراد المرء الاستحمام بماء دافئ فعليه وضع الكيس في الشمس عدة ساعات.

بعد ذلك عندما جلسنا أمام الدار وشربنا الماء، تحدثتِ عن سان غالغانو التي ذهبتِ إليها في نزهة مع هاينريش قبل ثلاثة أيام. لم أستطع المشاركة في الحديث، إذ أني لم أرَ سوى صورة للدير في دليلي لمنطقة توسكانا، وظننت أني فهمت ما عنيتِ عندما قلتِ إنك لم يسبق لك أن أحسست بكنيسة كمكان مقدس كما في سان غالغانو، رغم أن المكان في نهاية المطاف ليس أكثر من بقايا كتدرائية عارية من أي تزيينات، بل حتى من دون سقف. كنت تقلبين صفحات كتابات سينيكا، عندما ذكرتُ رأي هاينريش، فابتسمتِ وقلتِ: «لا أحد يستطيع مجاراة هاينريش، لكنه من ناحية أخرى يرفض الاعتراف بالأدب المعاصر، ولاسيما إذا كان المؤلف امرأة». بيد أن الأمر لا يصدق على نحو قطعي، إذ أني رأيت على إحدى الطاولات لديه قصة «كسندرا» لكريستا ڤولف.

وقلتِ «يحتمل أنك تعرف هاينريش أفضل مني، فأنا لم أره سوى مرتين خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة ولمدة قصيرة في دوسلدورف، فهو لم يسافر إلى ألمانيا منذ سنوات طويلة».

على طريق العودة نحو پونتنانو عند الغسق والسيارة تصعد بنا طريق المعبَر، قلت إنك تنوين العودة في حزيران (يونيو) القادم، وأنك سترتبين الأمر لتتمكني من قضاء الصيف كله في پونتنانو، ولكي تنظمي أمور متعلقات خالك. (لا، بل كان ذلك بعد ثلاثة أسابيع طبعاً، عندما جئتِ إلى ڤالدارنو ثانية بعد وفاة هاينريش.) وقبل خمس سنوات انتابتك الرغبة أول مرة بالقدوم إلى پونتنانو والبقاء فيها عدة أسابيع، ولكن في اليوم السابق على الرحلة قُتلت قطتك ليلى ذات السنوات الخمس أمام الكراج وأنت تقودين السيارة إلى الوراء. ومنذ ذلك الحين ارتبطت في ذهنك فكرة توسكانا دائماً بذلك الحادث المروع.

ما زلت آمل حتى الآن ألا تحزما أمركما بسرعة وتبيعا الدارين، فأستطيع استقبالك فعلاً في الصيف القادم في ڤالدارنو وأكسب الوقت لإعادة التفكير في كل شيء. فسنة استيداعي من المدرسة ستستمر حتى أيار (مايو) من العام القادم، وبما أن عطلة الصيف تبدأ في أول تموز (يوليو) فلا شك بأنني سأجد حلاً ما كيلا أعود إلى التعليم ثانية قبل أيلول (سبتمبر).

قبل سنتين في فصح عام ١٩٨٥ غادر الفندق في أريتزو، في وقت مبكر من الصباح ومن دون إفطار. صاح في بهو الفندق

مرتين «هالو» قبل أن تظهر امرأة بمعطف الصباح وبشعر مبلل لتقدم له الحساب. كان الهواء منعشاً وبارداً بصورة مقبولة. وشمّ لأول مرة الرائحة الفريدة لصباح هذه المدينة التي أيقظت في نفسه، رغبة غير محددة. كان هناك بعض المارة في الطريق مسرعين نحو هدف ما، عندما عبر طريقي السفر المؤديين إلى خارج المدينة والمحيطين بممشى مزروع بالشجر، وكانت المحطة على مرمى نظره. بين الحين والآخر كانت تمر إحدى السيارات، وكانت إشارات المرور الضوئية عند معابر المشاة منارة باللون الأصفر. تناهى عن بعد صوت سيارة إسعاف ومن المحطة ذات البوابات المفتوحة ترددت أصداء نداءات مكبرات الصوت. وصل أحد القطارات وغادره بعض المسافرين وإرهاق الليل بادٍ عليهم، حاملين حقائبهم، مغادرين القاعة متوجهين نحو موقف التكسي. وفي المقهى ملأ بعض الشبان النمساويين ـ كما بدا من حديثهم ـ الطاولات القليلة. وبعد أن تمكن شتيفان من الحصول على فنجان قهوة من نادل المنضدة توجه إلى مؤخرة المقهى، حيث جلس رجل مسن يتناول إفطاره وحده، واستأذنه مشاركته الطاولة. رفع الرجل ذو المعطف الجلدي نظره عن جريدته للحظة ودعاه بإشارة من يده إلى الطاولة، قرّب إليه صحن لحم الخنزير المقدد، وبدا كأنه يفكر بالسؤال الذي ألقاه شتيفان باللغة الإيطالية، ثم نظر إليه مرة ثانية وشرب بقية قهوته.

في البداية ظنه شتيفان ألمانياً؛ لكن الرجل كان يقرأ جريدة إيطالية. وقد خجل بالنيابة عن أبناء بلده الذين ملؤوا المحل كله بضجيجهم الصاخب، وبعض الإيطاليين الذين كانوا يشربون القهوة على المناضد وهم يقرؤون في جرائدهم المطوية كانوا كثيراً ما يلتفتون إليهم. كانت هناك شابة بثوب هندي تحاول تهدئة طفلها الباكي، في حين يصرخ مرافقها في وجهها بلهجة منطقة التيرول سائلاً أين خبأت عبوة المياه المعدنية. استنتج شتيفان من كلامهم أنهم يبدلون القطار هنا في طريقهم إلى كورتونا حيث سيقام مساءً حفل موسيقي لكونستنتين فكّر.

حان الوقت فنهض وخرج إلى القاعة حيث بحث عن لوحات مواعيد السفر الدولية، وتأكد من موعد وصول القطار إلى روزنهايم، وسمع من مكبر الصوت على الرصيف الإعلان عن تأخر القطار مدة عشرين دقيقة بصوت مزدوج متحشرج. كان مرهقاً من السهر، فراح على الرغم من البرد الشديد يتمشى جيئة وذهاباً بين الإيطاليين الذين كان يرتدي بعضهم قمصاناً بأكمام قصيرة. وفجأة شعر برغبة في البقاء لاستكشاف المدينة، لكنه فكر بأن مونيكا ستكون بانتظاره مساءً على رصيف محطة زالتسبورغ. وبما أنها قد أمضت الأسبوع عند والديها في غْموندِن فسيكون من الصعب الاتصال بها هاتفياً.

ومجدداً رأى هاينريش زايفرت بمعطفه الجلدي ذي اللون الرملي والذي باشره الحديث بسؤاله عما إذا كان قد سمع إعلاناً يخص القطار القادم من ألمانيا، إذ إن سمعه ثقيل، والقطار قد تأخر عن موعده أكثر من عشرين دقيقة. فأجاب شتيفان بأنه لا يفهم هذه الإعلانات الصوتية إلا بصعوبة. تمشيا جيئةً وذهاباً إلى جانب بعضهما وكأنهما صحبة قديمة، من دون أن يتبادلا كلمة واحدة، وفي أثناء ذلك فكر شتيفان بأنه يفضل الآن العودة إلى مركز المدينة ليجلس في مقهى ويشرب فنجاناً آخر من القهوة ويأكل قطعة من تلك المعجنات المحشوة بالمربى، وأن يتوجه إلى القسم القديم من هذه المدينة الذي لم يزره أبداً، كي يتجول فيه ويشاهد معالمه، فهناك متحف يحتوي على مكتشفات إتروسكية. ثمة في هذا الرجل المسن النحيل شيء بدا له طريفاً؛ فعندما وقع نظره عليه على الرصيف رآه يؤرجح ذراعيه، وعندما ضم كفيه كقبضتين بدا له وكأنه يمسك بيديه عصا غير مرئية أو كأنه يحصد حشائش مرج.

في أثناء مشيهما ذهاباً وإياباً بدأ زايفرت الحديث فجأة قائلاً: إنه ينتظر ابنة أخته القادمة من دوسلدورف، والتي ستبقى في زيارته مدة أسبوع، وأنه يعيش في هذه المنطقة منذ سبعة عشر عاماً، ويملك داراً في پونتنانو قرب تالا. وانطلاقاً من أريتزو يمكن الوصول إلى المكان عبر كاستيليون فيبوكي

على الطريق المؤدي إلى فلورنسا عبر مرتفعات براتومانيو، وكذلك عبر تالا، وهو يأمل بأن ترتفع درجة الحرارة الآن؛ إذ لم يسبق له في حياته كلها أن أحس بالبرد كما في إيطاليا... ولا شك في أن شتيفان مثل كثيرين غيره لا يعرف منطقة كاسِنْتينو هذه، أي منطقة وادي نهر آرنو. وأحد أسباب اختياره لها هو ندرة من يقصدها، عدا ربما مؤرخي الفن لزيارة الكنائس الرومانية المبنية على أنقاض معابد إتروسكية.

فرك يديه ببعضهما وقال إن اهتمامه الوحيد ـ عدا الحوارات مع الجيران حول الشؤون اليومية في منطقته الصغيرة ـ هو كتّاب روما، مثل ڤرجيل وهوراس... وقطع كلامه وكأنه أدرك أن حديثه قد يكون مملاً أو يتجاوز اهتمامات شتيفان. في حين فكر شتيفان بأن العجوز غارق في الوحدة إلى حد الثقة بالغرباء لمجرد أنهم يتيحون له فرصة الكلام، وأجاب بأن رفع حقيبة سفره عالياً، وقال إنها تحوي رواية هِرمَن بروخ عن ڤرجيل، وأنه أمس في القطار المتوجه من نابولي إلى معبر بْرِن اضطر إلى قطع الرحلة، ومن ثم قطع قراءة الرواية أيضاً والتوقف هنا بسبب البرد الشديد، إذ إن جميع عربات القطار لم تكن مدفأة.

وفي أثناء رحلة قدومه إلى إيطاليا قرأ كتاباً بعنوان

«موتسارت في إيطاليا»، وأوضح أن أخاه مخرج سينمائي يخطط لإخراج فيلم تلفزيوني في العام القادم عن رحلات موتسارت إلى إيطاليا، لكنه لم يذكر أنه يعمل معلماً وينوي كتابة سيناريو الفيلم مع أخيه فرانتس وأنه زار روما ونابولي لهذا السبب، إلا أنه أضاف أن موتسارت لم يزر أريتزو مطلقاً، فخلال رحلته من فلورنسا إلى روما مر بسِيينا عبر طريق فياكاسيا القديم. لم يبدُ زايفرت متأثراً، بل قال بنبرة عالية: «أريتزو، لا أحد يعرف هذه المدينة، ولحسن الحظ ربما». ثم أضاف إنه مهتم منذ سنوات بأعمال بِتْراركا، هذا الكاتب الذي أهمله طوال حياته. «هناك فوق» قال مشيراً بيده إشارة غير محددة «ثمة تمثال مربع، ومنزل ينسب خطأً إلى بتراركا... ألا ترى معي أن التماثيل الحديثة جميعها شنيعة؟».

وصل قطار محلي في طريقه إلى فلورنسا ثم أقلع تاركاً إياهما وحيدين على الرصيف، وأخيراً صدح صوت يعلن عن وصول القطارين القادمين من اتجاهين متعاكسين. عندما اقترب تشكيل العربات القادمة من الجنوب بهدوء وبطء، مبدلاً السكة إلى التحويلة، وبعد أن ودّع شتيفان زايفرت قال إنه يرغب منذ أمد بعيد بقضاء بضعة أسابيع في دار خاصة أو في بنسيون في قرية في منطقة توسكانا أو أومبريا، وقد سبق له أن اطلع على كتالوغات بعض وكالات السفر.

وبصورة محسوسة بدأت الشمس الآخذة بالارتفاع من خلف هضبة بتدفئة الهواء، ومن جديد عاودته الرغبة بالبقاء، وتصور أن أريتزو خالية من الزحام الذي يسود روما أو نابولي. قال زايفرت إن سلينا، ابنة أخته، لم تزره سابقاً أبداً، وعطس عدة مرات بقوة. إنه سيبلغ السبعين هذا العام، وإريش زوج سيلينا لا يتذكر من إيطاليا سوى كلمتي سلب ونهب. وبينما كان شتيفان يلتفت نحو قطاره المقترب قال إنه ينوي في الصيف على الأرجح القدوم لمدة ثلاثة أسابيع إلى فلورنسا، إذ إن معرفته بالمدينة سطحية، عندها عرض عليه زايفرت أن يجول به في سيارته الفيات ليريه منطقة ڤالدارنو، وأضاف: «إذا جئت إلى المنطقة اتصل بي». وأخرج بطاقته من محفظته وهو يقول إن هناك قطاراً صغيراً من أريتزو إلى تالا حيث سيستقبله، والقطار يتابع طريقه باتجاه پوپّي، ولا شك في أنه قد سمع بالمنطقة من خلال معركة رومينا، وهناك أيضاً القلعة التي أقام فيها دانتي أليغييري عدة سنوات، أليس كذلك؟

تلمس طريقه في العتمة إلى الأمام كي يفتح مصراعي النافذة في الغرفة الصغيرة. ثمة رائحة عفن ورطوبة. لمس بكوعه سطح الطاولة التي عليها بيّاضات سرير مغلفة بغطاء

بلاستيكي. تدفق نور بعد الظهيرة إلى الداخل على نحو مبهر. الحياة السعيدة، هكذا صاح قبل قليل عندما ترجل مع ماريو من السيارة ووقف في العشب، ثم خجل من نفسه، فقد كان مأخوذاً من رحلة السيارة الطويلة. رائحة رحيق الأزهار والأعشاب، النور، أصوات الجنادب. كانت حشائش المرج بارتفاع الخصر؛ فالتف بالسيارة بقوس واسع عبر المرج وأوقفها عند درجات الدار (لا بد من حشِّ الحشائش هنا فوراً).

الدار العتيقة: كان الوضع وكأنه يقترب من كائن حي وتخامره السعادة للقائه. فكر بأنه ليس عليه الآن سوى أن يأخذ حماماً سريعاً، ثم يجلس في الشمس مع كأس نبيذ قبل أن تغيب وراء الهضبة بعد نحو ساعة. إلا أن بعض السحب الصغيرة أخذت تقترب من جهة جبال براتومانيو. كان هناك إلى جانب فتحة باب الغرفة الصغيرة فتحة مربعة الشكل تبيّن سماكة الجدار الحجري، وقد كانت سابقاً نافذة للغرفة لكنها سدت. وفي هذه الفتحة رأى أن الكتب المتروكة هناك قد عانت رطوبة الشتاء. كتابان بالإيطالية لڤيتوريني وپاڤزه. تناول بيده كتاب رسائل هاينريش فون كلايست، كانت الصفحات متموجة. غداً سينشر الكتب في الشمس ثم سيضغطها. أحضر معه بالإنكليزية كتاب إدوارد بالْوَر-ليتون.

لم ير ماريو، ولم يجده جالساً على درجات الدار الحجرية. كان ينسى كل مرة أن ماريو لا يدخل الدار من دون دعوة صريحة. بعد أن شرح له ماريو على عتبة الباب وظيفة قفل الباب الجديد اعتذر بضع دقائق واختفى في الدغل، وكأنه فهم أن شتيفان يفضل دخول الدار وتحيتها وحده. كانت أرض الدار مغطاة ببعر الفئران في كل مكان، ولا سيما في المطبخ. بعد أن فتح مصراعي النافذة الكبيرة في الغرفة الكبرى ومد جذعه بعيداً كي يثبتهما على الجدار الخارجي بالكلابتين، رأى رأس ماريو فوق البئر الذي غطته الحشائش تماماً. وعلى الرغم من صخب الجنادب سمع الماء يتساقط على الحوض الصغير الذي بناه ماريو في الصيف الماضي قبل عدة أيام من سفر شتيفان إلى بلده، فبإمكانه إذن بعد تنزيل الحقائب ونقلها إلى الدار أن يغتسل.

على الرغم من أن فتحة النافذة كانت باتجاه الشرق، غمر النور الغرفة وجعل بلاط الأرضية يضيء رغم قشور الجوز المهروسة وبقايا عناقيد العنب الجافة المتناثرة هنا وهناك. وبحسب الاتفاق قام ماريو في الشتاء بطلاء جدران الغرف بالكلس (الجير). كان الهواء مشبعاً برائحة خلٍ راكد: ففي الجزء الخلفي من الغرفة كانت هناك عبوة نبيذ مفتوحة تتسع خمسة ليرات، وكان في قعرها بعض النبيذ. نظر إلى الخارج عبر النوافذ كلها فبدا له جهد أسابيع طويلة من

أعمال التعشيب واستصلاح الأرض التي قام بها في الصيف الفائت بلا جدوى، وبدا المنظر حول الدار تماماً كما كان قبل سنة. خلال عمله في الحفر لاستئصال جذور هذه النباتات الشوكية أصيب بالتهاب في عينيه.

منذ وصولهم بالسيارة إلى المكان تأكد له أن المدخل قد عاد بريّاً مهملاً كما عند وصوله في السنة الماضية، وخامره الشك فيما إذا كان سيتمكن من السيطرة على هذه النباتات البرية. أخبره ماريو أثناء قدومهم بالسيارة أنه قام خلال الشتاء بتمديد خراطيم المياه من النبع في الغابة حتى الدار، وأنه يجب بسرعة طمر الوصلات الاثنتي عشرة تحت التربة، مع ترك نقاط الوصل مكشوفة؛ فغالباً ما يتسلل الهواء إلى الخرطوم ويعيق التدفق، ولا بد عندها من تفريغ الخرطوم من الهواء بفك براغي نقاط الوصل. وهذه المشكلة لا تحدث إلا في ذروة الصيف عندما يشح تدفق النبع، وهو ينصحه بسبب الأفاعي بأن يعشّب ممراً على طول التمديدات، وأن يمشي عليه مراراً كيلا يدوس سهواً على إحدى الأفاعي. وهو يظن أن النبع موجود في قطعة الأرض المجاورة، بيد أن الأمر ليس مهماً، وهو يتذكر من أيام طفولته كيف كان الماء يُجلب إلى مورا على عربة يجرها ثوران. ويمكن فيما بعد تمديد الماء إلى الدار، إلى المطبخ.

كان ماريو جالساً على أولى درجات السلم وهو يشد رباط حذائه وقال: «أنت ترى أني قد ركبت إطارات النوافذ، والألواح الزجاجية سأحضرها في الأيام القادمة، فقد قصها صانع الزجاج». تصور شتيفان أنه بعد تنزيل الأغراض من السيارة سيضعها عند المدخل الذي بدا له هذه المرة عند النزول إلى الجزء الأسفل كمضيق مسدود بالنباتات. وسيجز الحشيش من مساحة أمام الدار وينشر فيها الفراش للتهوية والتجفيف، وسيشد حبلاً من شجرة البلوط اليافعة إلى شجرة الزيتون التالية عبر المرج ليجفف عليه البياضات والأغطية. ودعه ماريو ودعاه لتناول العشاء عنده بعد غد، فغداً سيكون الأولاد عنده بسبب عيد ميلاد لينا الثاني عشر. عندما سأل ماريو عن زايفرت تذكر شتيفان أنه نسي مخابرته من منزل ماريو ليعلمه بوصوله.

أخذت السحب تنقشع فوق أعلى المرتفعات المرئية من جبال براتومانيو في الشمال الشرقي. ومع أن الساعة ما زالت الثامنة بدأت العتمة. كانت أوراق أشجار الزيتون أمام الدار تتلألأ وقد حركها النسيم برقة، والشمس التي حجبتها سحابة اختفت خلف سلسلة الهضاب في الغرب. جلس وهو مبلل بعض الشيء على أولى درجات السلم الحجري، وعما قليل سيغتسل ويخلد إلى النوم. وفكر بأنه ربما لم يكن ضرورياً الصعود بالسيارة إلى الطريق، ولو أنها أمطرت

بصورة أشد وطوال الليل أيضاً، لما تمكن غداً من الذهاب بالسيارة لشراء البضائع، لأن العجلات ـ كما في الصيف الماضي ـ ستدور في مكانها بسبب الوحل في الطريق الصاعد الحاد. لقد جز المرج أمام الدار نوعاً ما وأخرج قطع الأثاث القليلة، ونشر الفراش للتهوية. وفي الداخل بدأت الأرضية القرميدية التي نظفها ومسحها بالماء تجف. فرح بنصب الطاولة الجديدة في الغرفة الصغيرة، وهي لوح ومسندان من الخشب جلبها معه. كان بالكاد قادراً على إبقاء عينيه مفتوحتين، ومن ناحية أخرى خشي أن يجافيه النوم، وتذكر السنة الفائتة عندما بقيت رحلة الطريق العام تضج في رأسه ساعات طويلة؛ فما إن أغمض عينيه حتى هاجمته الطبقة الإسفلتية، فانطلق على خط التجاوز في الثغرة بين الشاحنات الثقيلة والحواجز المنصفة. كان عليه قبل الذهاب إلى النوم أن يدخل المطبخ ويضع الأطعمة في أكياس ولا سيما الخبز، ويعلقها على عارضة السقف الخشبية.

حل الظلام فرفرفت الخفافيش وحلقت في دوائر فوق رأسه. كانت الحظائر مأواها منذ سنوات طويلة. ذهب ثانية إلى الحظيرة على الجانب الجنوبي للدار، وهي الوحيدة التي يمكن إغلاقها؛ فهناك كان قد خزن جرة الغاز وموقد المخيمات وآلة جز الحشيش وصندوق الأدوات. وعندما فتح الجرة بالمفتاح الخاص أصدرت صوتاً كالفحيح؛ أي أن الشاي صباح غد مضمون.

كان في السنة الماضية غريباً، أما الآن فقد حيوه عندما دخل الساحة الصغيرة واقترب من منزل ماريو. عادة كان هناك أطفال يلعبون على درجات السلم الخارجي للبناء، يرسمون ويلونون وينهون واجباتهم المنزلية.

كان المفتاح في القفل، لكن يبدو أن ماريو لم يكن هناك. ربما كان يعمل فعلاً في منزله الحديث على طرف القرية، ولم يسمع نداءات شتيفان الذي توقف بسيارته عند أكوام الرمل الهائلة على جانب الطريق أثناء قدومه. وعندما قرع الباب بقوة أكبر، سمع: «مَن؟»، ففتح الباب، ظهر ماريو من الغرفة الخلفية صائحاً: «آه، ستيفانو!» شد حزامه على خصره، وكان غير حليق، وبدا كأنه قد كبر عدة سنوات. أوضح لشتيفان بعد التحية أن زوجته قد توفيت في شهر شباط (فبراير)، وأنه قد وضع الأطفال مؤقتاً عند بعض الجيران والأقارب، شد شتيفان على يده. وعندما سأله عن مفتاح مورا أجاب ماريو بأنه سيأتي معه ليريه ما صنعه في الدار خلال الشتاء والربيع.

أخذا طريق العربات المرصوف بالحجارة الذي يلتف أولاً حول المكان أسفل جِلّو، ثم تأتي عدة منعطفات رملية صعوداً على الهضبة إلى المقبرة، حيث أوقف السيارة أمام جدارها المطلي بالكلس، برك الوحل في كل مكان، يبدو أنها كانت

تمطر قبل قليل. فتح ماريو الباب الحديدي المشغول وأراه القبر، كان على اللوح الحجري للقبر بعض الورود الذابلة، كانت في الثانية والأربعين عندما توفيت.

صار الطريق أشد ضيقاً أنزل زجاج النافذة، كانت مقدمة السيارة تثني أغصان شجيرات التوت البري الشوكية لتتركها من ثم تضرب كالسياط على النافذة المفتوحة وترشه بالرذاذ. لم يعد بوسعه الآن أن يلوم ماريو (كما تصور عندما مر بالبناء غير المنتهي) قائلاً إنه يبني لنفسه ڤيلا وكأنه مدير بنك؛ إذ يبدو أن الجهد المضني عبر سنين طويلة كان أحد أسباب مرض زوجته الشديد. وقد أدرك شتيفان إلى أي حد كان عليهما أن يقتصدا عندما رأى السنة الماضية في أثناء دعوتهما له أن الحمامة المشوية التي وضعت على المائدة، والتي لم يأكل منها سوى لقيمات قد لفتها فرانشسكا بصحيفة من الألومينيوم، ووضعتها في البراد.

وصلا موقف السيارات، كان طريق العربات ذو الاتجاه الواحد قد اتسع هنا عند المنعطف، بحيث يمكن للسائق بعد عدة مناورات إلى الأمام والخلف أن يغير اتجاهه. توجه نحو الطرف الأيسر من الطريق حتى صعد الدولاب الأمامي على الحافة، وصارت السيارة مائلة نوعاً ما، ثم أدار المقود يميناً كي يتمكن من ولوج المدخل النازل نحو مورا. والممر الأشبه

بالمضيق كان شديد الانحدار، فغيّر إلى السرعة الأولى وقدمه على الكابح، فقد كان الممر بعرض العجلات تماماً. إذا هطل المطر وأوحل مجرى العجلات، فلم تعد هذه تستجيب لتصويبات المقود كالعادة فسيصبح الوضع خطيراً. كانت شجيرات الوزّال وتوت العليق العملاقة تميل نحو الممر، وعلق أحد أغصانها بقطعة الزينة الطولانية على جانب السيارة واقتلع طرفها، كما لاحظ شتيفان لاحقاً. وتذكر الآن كيف أراد هاينريش قبل سنتين أن يريه مورا. وقد حاولا يومها النزول بسيارته الفيات، لكن الممر كان مسدوداً بالنباتات إلى درجة تمويهه. أوقف شتيفان السيارة بعد خمسين متراً، ولم يكن بالإمكان سوى فتح الباب المطل على الوادي، حيث المدرجات البرية المنحدرة بشدة. وبعد أن شقّا طريقهما مسافة خمسين متراً عبر شجيرات الوزّال والتوت البري رأيا في منتصف الطريق شجرة زيتون صغيرة ذات جذع ثخين يصعب انتزاعه من التربة من دون منشار.

أنعشه النبيذ الآن، وخفف من توتره العصبي بعد إحدى عشرة ساعة من قيادة السيارة. وعندما نهض أحس بألم في ظهره وأخذ يرتجف من البرد. وبينما كان يغطي الفراش بشرشف قطني دخل خفاشان وأخذا يصفقان بأجنحتهما مذعورين. قبل الذهاب إلى النوم أضاء بمصباح الجيب الجدران الكلسية ورأى على أحد الجدران جيشاً من النمل

هابطاً من السقف على طريقه إلى شق في الجدار، أهمل ماريو سده عند الطلاء.

بحث بيده على الأرضية القرميدية المغبرة وغير المستوية عن ساعته ومصباح الجيب. أشارت الساعة إلى الثانية عشرة والنصف ليلاً. يبدو أنه قد غفا من فوره؛ لكنه الآن صاح، أنصت إلى الأصوات الموحشة، إلى نعيق البوم وتذكر الصيف الماضي حين كانت الدار من دون شبابيك وأبواب. وقد شرح له ماريو أن كل ما منه نفع في الدار قد أُخذ تدريجياً ومنذ وقت طويل. وتذكر كيف كان كل مساء قبل الإيواء إلى النوم يسند المحشّة من الداخل على إطار باب الحظيرة، ويضع وراءه طاولة المطبخ، وكيف كان في الأيام الأولى يصطدم بشفرة آلة جز العشب خلال عمليات الجز على المنحدر تحت جدار المدرجات. لقد كان بمقدور أي كان أن يتسلق النافذة من الدرج ويدخل الدار. وفكر حينذاك بوضع هراوة ثخينة بجانب السرير. وتخيل ذات ليلة أن متسللاً قد هاجمه ليلاً بسكين، فضربه بهذه الهراوة فقتله، ثم سحبه إلى السيارة ونقله إلى مكان بعيد باتجاه طريق المعبر إلى تالا، حيث جره في العتمة من السيارة ورماه إلى المنحدر القاسي المغطى بالأحراج.

حاول في الصيف الماضي أن يتخيل كيف سيبدو الأمر لو

أن مونيكا زارته هنا. على الرغم من علمهما كليهما بضرورة إنهاء هذه العلاقة الشبيهة بالزواج، وأن كليهما يعاني منها بصورة ملحوظة، بقي شتيفان يفكر بها، بشغفها بتوسكانا وبتعبيرها المتكرر عن رغبتها بزيارتها معه، في حين أنه كان لا يرى ما هو جذاب في إيطاليا إلا بدءاً من جنوب روما. ولو أخبره أحدهم مرةً بأنه بعد سنتين سيقضي مدة طويلة في دار منعزلة في توسكانا لسخر منه.

وذات مرة أرته مونيكا صفحة مزدوجة من مجلة سياحية ملونة تصور منظر هضاب خضراء، عنوانها «توسكانا أرض شتايرمارك»، فشرح لها أن منطقة الهضاب الشتايرية الجنوبية جميلة جداً حتماً، ولكن لا علاقة لها بتوسكانا؛ إذ أين الصروح المعمارية الرائعة والرسامون والمعماريون والشعراء المشهورون والأعمال الفنية التي تتشكل توسكانا منها؟ ماذا كانت صديقات مونيكا سيقلن عن جِلّو ببيسكاردو أو مورا؟ وكم كانت مونيكا ستقرف من الفئران والعناكب والخفافيش، وكم كانت ستخاف من العقارب والأفاعي، هي التي كانت تتوعك إن لم تتمكن من الاستحمام مرتين يومياً على الأقل. كم كانت ستشعر بالملل هنا، وهي التي لا تتحمل البقاء في أي مكان أطول من ثلاثة أيام مهما كان جميلاً، وهي التي لم تسافر إلى أي مكان في العالم أكثر من ثلاثة أيام.

انقلب على جانبه الآخر وفكر بمن يمكن أن يرافقه في السفر والإقامة هنا مدة أسبوعين. لم تصدقه مونيكا عندما أخبرها في الربيع الماضي بأنه سيشتري سيارة ليسافر بها إلى توسكانا، وأنه سيقيم في الدار الحجرية التي كان فيها أيام الفصح، وأن مالك الدار قد دعاه إليها.

حتى هاينريش قد فوجئ بقدوم شتيفان فعلياً، شرح شتيفان لهاينريش أن رخصة السياقة التي يحملها تعود إلى ست سنوات، وأنه قد استخرجها مع صديقته التي اشترت سيارة من فورها. قال إنه لم يعرف في حياته فعلاً مريحاً أفضل من المشي يومياً عدة ساعات، في حين كان يرى الركض بوصفها رياضة شعبية أمراً سخيفاً. ولأجل مونيكا بدأ يقود السيارة أحياناً لمسافات قصيرة؛ «فالفضل إذن في كوني هنا يعود في الواقع إليها. فلولا تمارين القيادة – القليلة نسبياً – بسيارتها الرينو لما اشتريت سيارة في حياتي كلها. وبما أنه يستحيل ـ كما أخبرتَني ـ التنقل بالباص من أريتزو أو فلورنسا إلى جَلّو بيسكاردو، بغض النظر عن الأمتعة كلها طبعاً؛ لما تمكنت من قبول عرضك للإقامة في الدار..». .

منذ أن أراه زايفرت في السنة الماضية الدار المنعزلة تماماً الواقعة على منحدرات هضاب سلسلة جبال پراتومانيو في وسط مدرجات زيتون برية، لم تغادر الفكرة رأسه؛ إذ تولد لديه انطباع مباشرة بأنه موجود في مكان خاص جداً.

تتبع مورا ملكية هاينريش المؤلفة من دار ريفية أخرى تبعد عنها مسافة كبيرة، ويمكن الوصول إلى مورا من پونتِنانو على الطريق الجبلي، ثم على الهضاب عبر ممر تحيط بمعظمه أحراج وغابات.

إذا كانت الظلمة والضباب والبرد والروائح الكريهة الصادرة من المنطقة الصناعية ومن محطة التدفئة المركزية تضر بصحة الإنسان منذ شهر تشرين الثاني (نوفمبر) في محيط مدينة زالتسبورغ؛ فبوسعه الآن أن يسترخي بأن يغمض عينيه وينتقل في خياله إلى مكان، يحتمل أن يكون بارداً لكن الشتاء فيه أقصر وخال من الصقيع.

في مطبخ الدار الريفية موقد مكشوف وحسب، وفي الفترة الكئيبة الممتدة من نهاية تشرين الأول (أكتوبر) حتى أيار (مايو) عندما كان ينتقل في أحلام يقظته إلى مورا كان الجو هناك دائماً صحواً ومشمساً، وحتى عندما تمطر وترعد هناك يبقى للمنطقة سحرها، ولا سيما الهواء غير الملوث، على الرغم من أن فلورنسا بضاحيتها الصناعية الجهنمية لا تبعد أكثر من خمسين كيلومتر. كان أحياناً في زالتسبورغ، في المنطقة الصناعية كِسِّل بين جبال المدينة، يقضي نحو أسبوعين وأكثر تحت طبقة كثيفة من الضباب.

في مثل هذه الأيام - بعد إقامته الأولى في مورا - اعتاد أن

يرى نفسه أحياناً مع جاره ماريني الذي زاره، واقفاً في حقل الزيتون ذي الأربع عشرة شجرة قرب الدار، وهو يستمع إلى شرحه أنه سيقلّم الشجرات في الربيع القادم (وقد استخدم تعبير «تخفيف التيجان»)، إذ لا بد من ذلك في الربيع قبل أن يتحول النسغ في الأغصان إلى عصير. ثم رأى نفسه على الدرب بين الدار والطريق حاملاً بيده مقص تقليم الشجر يقص به الأغصان الشوكية المتدلية على الدرب، أو جالساً على المقعد عند منزل ماريو في جِلّو منتظراً إياه، أو على مقعد منزل ماريني الذي يطل على الجهة الجنوبية الشرقية حيث تبدو أريتزو عن بعد.

قال هاينريش إن مورا الآيلة إلى السقوط ومدرجاتها البرية المهجورة منذ عشرات السنين لم تكن تهمه في شيء؛ لكن مالك الدار الأخرى في بونتنانو لم يقبل ببيعها إلا مع مورا. ولما كان السعر بخساً جداً وقّع عقد الشراء. وأن عمدة كاستيليون فيبوكي هو الذي لفت نظره إلى تلك الدار عندما أقام هاينريش هنا عدة أسابيع بعد تقاعده باحثاً عن بيت في منطقة توسكانا. كانت ملكية الدارين تتبع سيدتين في أرذل العمر توفيتا منذ سنوات، وقد عاشتا في ميلانو وما عادتا تعرفان شيئاً عن البيوت والأراضي الكثيرة التي تملكانها في جميع أنحاء إيطاليا، وذات يوم جاء موثق عقود من روما إلى فيبوكي وعاين العقارات.

وأضاف إنه طوال تلك السنين لم يزر مورا سوى مرتين، وكانت المرة الأخيرة في الخريف قبل بضع سنوات، وهو يأسف لتداعي الدار بمرور الزمن. إنه لم يزر مورا أبداً عند عقد الصفقة؛ فالدار في بونتنانو أعجبته من أول نظرة، كما أنه لم يكن راغباً في العزلة وهو في هذا العمر. تقع بونتنانو - حسبما رأى شتيفان - مثل عش طير على قمة هضبة.

وتابع هاينريش قائلاً: «من نافذتي أطل على وادي أرنو التابع إلى كاسنتينو وحتى مرتفعات پوپّي، وإذا مشيتُ الخطوات القليلة حتى طرف القرية الآخر فإني أرى وادي آرنو الآخر في الغرب. ونهر آرنو يشكل حزاماً حول بونتِه أبوريانو ثم يسيل باتجاه فلورنسا، وعبر وادي آرنو يمتد النظر حتى كيانتي».

المؤسف هو أنك لا يمكن أن تتجاهل المدخنة الإسمنتية الهائلة بدخانها المتصاعد من محطة توليد الطاقة في سان جوڤاني. وقبل يومين قرأ هاينريش في جريدة في مقهى تالاّ عن خطة الحكومة الإيطالية لإقامة منشأة ضخمة لحرق القمامة قرب غريف في وسط كيانتي. ولكن عقب زيارته الأولى لمورا في السنة الثانية لوجوده في ڤالدارنو فكر بأنه لو كان في جيلّو بيسكاردو محلات تجارية ومقهى، ولو كان يعرف الدار؛ لكان قراره لمصلحة مورا.

على الرغم من أن العمال اليدويين آنذاك قد طلبوا أجوراً معقولة فقد صرف جميع مدخراته على تجديد دار بونتنانو. وإذا كان شتيفان راغباً بأخذ مورا على عاتقه كبيت صيفي – علماً بأن الجو في الربيع والخريف يكون لطيفاً جداً – فسيكون سعيداً بذلك؛ إذا تمكن شتيفان من توقيف عوامل التداعي.

ثم شرح زايفرت أن محطة الباصات التالية النادرة الاستخدام إلى أريتزو هي في سان جوستينو على مسافة سبعة كيلومترات تقريباً، وهي عشرة حتى كاستيليون فيبوكي واثنا عشر حتى تالا على الجانب الآخر من سلسلة الهضاب. وفي هذه الأماكن محلات لبيع المواد الغذائية. وبما أن هاينريش لم يذكر في هذا السياق بونتنانو التي فيها محل كبير للغذائيات، حسبما رأى شتيفان؛ فقد فكر بأنه لا يرغب في أن يلقاه كثيراً هناك، مما عكّر مزاجه قليلاً.

في الصيف الماضي بدأ رحلته الأولى نحو قالدارنو من دون أي أفكار مسبقة؛ لكنه أمضى عدة ليالٍ قبل ذلك في الفراش من دون أن يتمكن من النوم غالباً. وعشية الانطلاق ملأ بمتاعه السيارة المزودة بمقعد خلفي قابل للطي، وحزم على مشبك سطح السيارة فراشاً بالحبال. أمطرت نحو الساعة الخامسة فجراً، وعندما جال حول السيارة آخر مرة بدت

له متخمة بالمتاع. وضع على المقعد بجانب السائق صندوقاً قليل العمق من أجل الأوراق وخارطة الطريق والقطع النقدية الإيطالية وسكر العنب. نصحه أحد زملائه في المدرسة بأن يسافر يوم الأحد حين تكون الشاحنات الكبرى قليلة على الطريق العام الإيطالي.

شكّل له الانطلاق تحت المطر والظلام الذي ما زال مخيماً لحظة بالغة الأهمية، أدار المحرك ووضع السرعة الأولى وانطلق، وفجأة تلاشى التوتر كلياً. كانت شوارع المدينة ليلاً خالية، وانعكست أضواء السيارة على صفحة الطريق المبتلة. بعد أن دخل في الطريق الفرعي المؤدي إلى الطريق العام قرب فالزربرغ - بغية الوصول إلى إنّتال باتجاه روزنّهايم - وجد نفسه فجأة وسط قافلة بصفين من الألمان العائدين من إجازاتهم في إيطاليا وكيرنتن، حسبما خمن.

وعندما انعطف نحو الطريق العام كادت مرسيدس عتيقة أن تصدمه، تجاوزته بسرعة عالية تحت وابل المطر كشبح عابر، لتصبح أمامه مباشرة. خطف نظره برعب نحوها، وكانت المسافة بين السيارتين لا تتجاوز بضعة سنتمترات، ورأى للحظة أن في تلك السيارة العتيقة ستة أو سبعة رجال وأن رأس السائق المحني الظهر يكاد يلامس المقود.

بعد الكيلومترات الثلاثين الأولى على الطريق العام في

باڤاريا أدرك أنه كان في حاجة إلى التدرب على القيادة في ظروف الأوتوستراد، أما الآن فقد كان عليه أن يتلاءم مع سرعات بقية السائقين الذين كانوا يتجاوزونه الواحد تلو الآخر، وهو يقود سيارته بسرعة لا تتجاوز المئة وعشرين في الساعة. كانت ظروف الرؤية رديئة ولم تتحسن إلا بعد معبر بْرِن. كان يخشى التجاوز ولا سيما في حالة الشاحنات الثقيلة التي كانت عجلاتها تتجاوز خط المسرب؛ فلا تتيح له سوى مسافة ضيقة بينه وبين حواجز التنصيف.

وعند المنعطفات السريعة في شمالي إيطاليا وبسرعة مئة وثلاثين كيلو متراً في الساعة كانت تربكه أغصان الشجيرات المنبثقة عند حواجزمنصف الطريق والتي كانت الريح تحركها باستمرار، مما يشوّش الإدراك الضروري للتنسيق بين العالم الخارجي الذي يهاجمه بسرعة مهدِّدة وبين رد الفعل المناسب على المقود وعلى دواسة البنزين؛ فكان يخشى أن يفقد السيطرة. وبعد استراحة الظهر في موقف جانبي بين مدينتي مودينا وبولونيا لاحظ أنه كان شارداً طوال عدة ثوان؛ إذ إنه لم يتذكر ما حدث خلال الثلاثمئة متر الأخيرة.

هذه الرحلة التي استمرت عشر ساعات على الطريق العام عبر معبر بْرِن إلى بولونيا ففلورنسا حتى الطريق المؤدي

إلى سان جوڤاني ڤالدرانو والتي تلاها خمسون دقيقة على الطرق الداخلية، ودروب العربات كانت بالنسبة لهذا الغر في شؤون الطرقات الأكثر هولاً في حياته، ولا سيما من بوزن إلى فلورنسا. وفي الموقف قرب سان جوڤاني عندما شرب ما تبقى من المياه المعدنية التي صارت فاترة وهو يفتش في الخارطة عن تيرانوڤا وپاترنو خطرت بباله فكرة: بما أنك قد نجحت في هذه المحنة فلن يصيبك في حياتك شيء ذو بال. وفي أثناء ذلك في الموقف الظليل والخالي من الحركة عادة كان ثلاثة شبان إيطاليين منشغلين بسرعة بتفريغ سيارة نقل ذات لوحة أرقام نابولية من محتوياتها، المؤلفة من أثاث قديم ولمباديرات ولوحات إلى سيارة أخرى ذات لوحة أرقام ميلانوية. وبينما كان يدور حول سيارته التي ترك أبوابها مشرعة وهو ينفذ بعض التمارين الرياضية بذراعيه تقدم منه أحدهم وطلب منه ماء.

لو أنه تصور في مخيلته سابقاً هذه الرحلة على الطريق العام لما ارتحل على الأغلب نحو جِلّو بيسكاردو. والمرحلة التي أخافته على نحو خاص كانت عند عبور جبال آپنين؛ فما أن تجاوز المنعطفات الصاعدة الأولى حتى أخذت السماء تعتم تدريجياً، ثم هبط الضباب، وبعد مفرق روڤِجّو أخذ المطر يهطل بغزارة. على المسرب الأيمن كانت هناك سيارات بمقطورات نوم هولندية وألمانية وإيطالية تسير

بسرعة خمسين كيلو متراً، وليتمكن من التقدم كان عليه بين الحين والآخر تجاوزها، وقد شكل هذا خطراً لأن السائقين الإيطاليين كانوا يحتلون خط التجاوز بسرعة مئة وثلاثين كيلومتراً، ومن دون أن يشّغلوا مصابيح سياراتهم.

وأخيراً عندما تردد في ترك المسرب الأيسر بعد محاولة مستحيلة لتجاوز الشاحنات أو الباصات أو قافلة الشاحنات الطويلة ذات المقطورات ليجد لنفسه ثغرة بينها على المسرب الأيمن؛ بدؤوا يستخدمون أضواء التحذير والأبواق كالشياطين الهائجة، ويقتربون منه بحيث يكادون يلامسون مانع الصدمات الخلفي من سيارته، فأخذت ركبتاه ترتجفان، وبذل جهداً كبيراً للتركيز على المقود، إذ كان منشغلاً تماماً؛ على الأقل بمحاولة إدراك ما يجري أمامه، أما المرآة الخلفية فلم تره شيئاً سوى زخات المطر. لم تكن ماسحات سيارته السيمكا قادرة على معالجة حجم المياه المندفعة من عجلات السيارات أمامه على زجاج سيارته الأمامي. وذات مرة خطر بباله أن يغمض عينيه عند التجاوز، فالأمر سيان. وقبل ذروة المعبر بقليل، قبل نفقٍ على الجانب الآخر من الطريق العام كان هناك حادث: سيارات متصادمة ومقلوبة تقف على طول وعرض المسارب، وإحداها صعدت على الحاجز المنصف بشكل طولاني، والناس متجمعون حول السيارات فيما ازدحمت حركة المرور وراءهم.

وفي أثناء عبوره رأى في سيارة بلا باب رجلاً عجوزاً مشدوداً بالحزام – حياً أو ميتاً – وكان نصف وجهه المدمى أحمر، وكأن جلده قد سُلخ. ويبدو أن كل هذا قد جرى قبل قليل، إذ لم يكن هناك شرطة مرور ولا سيارات إسعاف.

عندما خرج من نفق طويل إلى الجانب الآخر من الآپنين أعمته الشمس، وكانت السماء الصافية الآن مشوبة ببعض السحب، فقرر التوقف في أقرب استراحة قادمة.

كانت الساعة قد شارفت على الخامسة، ولم تكن الحرارة قد تراجعت بعد، عندما انعطف نحو طريق المعبر باتجاه لاكروتشينا بعد سان جوستينو بنحو كيلو مترين، وصعد طريقاً جبلياً بمنعطفات ضيقة، عندها أخذ عادم السيارة يدوّي على نحو متزايد. توقف في مكان جانبي ظليل مغطى بأشجار صنوبر، كي يدع المحرك يبرد قليلاً؛ فقد بلغت سخونته حداً جعله يدور بصورة غير منتظمة لفترة، حتى بعد التوقف وإطفائه، إلى أن سكن.

كانت جِلّو بيسكاردو على بعد كيلومترات قليلة، بعد ربع ساعة كان قد رفع أحد طرفي السيارة بالرافعة، وانزلق تحتها ليجد أنبوب العادم الطويل مشروخاً في مكان واحد؛ فأصلحه مؤقتاً بقطعة شريط عازل، معرضاً أصابعه للاحتراق. بعد الشاخصة التي تحمل اسم المنطقة كان هناك طريق ضيق

على اليمين ينحدر بمنعرجات كثيرة، وعند أحدها باتجاه الوادي رأى المكان المقصود في وسط بساتين زيتون تعلوها كنيسة القرية شامخة. وخجل بسبب دوي العادم من أن يقود السيارة حتى مدخل القرية، فأوقفها على جانب الطريق، ومشى المئتي متر المتبقية على قدميه. لا شك في أن مظهره بدا غريباً لسكان القرية: ثيابه متعرقة، محني الظهر وبساقين مرتخيتين.

شاهد عند مدخل القرية بعض الرجال المسنين واقفين حول البركة، وصنبور ماء منبثق من جدار فوق حوض رخامي. كان مستثاراً لدرجة أنه لم يعرف أن يقول سوى «صباح الخير»، وعندما أجابوه بعدم اكتراث «مساء الخير» أدرك أنه لم يُحسن التحية أيضاً. سألهم عن ماريو فقد أخبره زايفرت أن ماريو يُعد عمدة جِلّو، وأن عليه الرجوع إليه لأنه يعرف كل شيء عن مورا ولديه مفتاحها، وأن الهاتف العمومي في منزله أيضاً.

تعطل محرك سيارته السيمكا تماماً؛ فوعده ماريو الذي وجده في بيته الحديث البناء بأنه سيتصل بفرانشسكو - ابن آل بيندي - الذي يمتلك ورشة تصليح في فيبوكي كي يلقي نظرة على السيارة في الصباح الباكر. فحمل شتيفان حقيبتي السفر وأهم الأشياء من متاعه إضافة إلى زجاجة

نبيذ ومشى على الدرب باتجاه مورا. لم ينتبه إلى المنعطف المؤدي إليها والذي غطته النباتات فاضطر إلى العودة.

وأخيراً عندما وصل إلى درجات الدار خائضاً في الحشائش العالية وهو على شفا الانهيار من التعب كانت عتمة المساء قد بدأت. جلس على الدرج وشرب نصف زجاجة النبيذ، ثم صعد الدرجات مترنحاً واستلقى على أرض المطبخ القرميدية المغطاة بالقش.

سمع من نافذة غرفة النوم صراخ حيوان، بدا كأنه في ورطة، وكان صراخه يتراوح بين الزعيق والجئير. كانت الساعة الخامسة. خطر بباله مقطع لإبيقور عن الصور، قرأه بالأمس وأراد أن يتحادث مع هاينريش عنه. كان رأي إبيقور أن بمقدور البشر إدراك الأشياء لأن الأشياء تولّد بلا كلل صوراً صغيرة غير مرئية ومركبة من ذرات؛ يمكن لأعضائنا الحسية تلقيها. وفكر شتيفان بأن هذه النظرية من وجهة نظر الإنسان العادي صادقة وغير صادقة في الوقت نفسه، تماماً مثل النظريات الفيزيائية الحديثة التي قد يفهمها الإنسان وقد لا يفهمها.

نهض بعد برهة، رفع مزلاج الباب وخرج ليقف على الدرجة العليا من الدرج الحجري. كان المرج غارقاً في لون أزرق رمادي ذي تأثير غامض. هبط حافياً وخاض عبر

الحشائش المبتلة حتى طرف المرج، وأراح نفسه بأن بال تاركاً البول يسيل باتجاه الدغل على المدرج السفلي. ثمة ما لسعه في ساقه، وقد تورم مكان اللسعة. وتذكر أنه سمع ليلاً أصوات صلصلةٍ قادمة من المطبخ أو من الغرفة الأمامية، ربما كانت الفئران.

حمل طاسة مملوءة بماء ساخن وفرشاة وآلة الحلاقة والمعجون والمرآة وذهب إلى بئر الدار، كان العشب مبتلاً. لم يكن واثقاً إذا كانت قد أمطرت ليلاً أم أنه الندى وحسب. كيف قام بذلك في الصيف الماضي؟ قرفص على العشب حاملاً المرآة بيد وآلة الحلاقة باليد الأخرى، وغطسها كل مرة في طاسة الماء الساخن. كان الوقت قد تجاوز الثامنة صباحاً والسماء صافية، قريباً في جهة الشرق سيبدأ مشط سلسلة الهضاب بالتضرج حمرة.

واليوم أيضاً لن يتمكن من الذهاب بالسيارة للتبضع، لتأمين مشترياته الكبرى. بالأمس توقف المطر عن الهطول، بيد أن الدرب ما زال طرياً بحيث يصعب ذهابه بالسيارة، كل ما بوسعه إذاً هو تأمين بعض الحاجات وحملها؛ فقد كان لديه ما يكفي للأكل في الدار. أمضى اليومين الأولين بتنظيف الدار، ونصب الرفوف التي أحضرها معه، وتعشيب المرج أمام الدار وحول البئر، أي بما هو ضروري.

قبل ساعة انسحبت الغيوم فجأة وأخذت الشمس تدفئ المرج والدار. كان جالساً الآن إلى الطاولة في غرفة النوم والعمل، وقد بدلت شمس بعد الظهر جوها الكئيب الذي هيمن حتى الظهر. وحملت هبة ريح حفنة من أزهار الدردار الذهبية من الشجرة الكبيرة إلى الداخل. السكان المحليون يسمون هذا النوع شجرة الآلهة. وأمامه على الطاولة كان دفتر الملاحظات ذو القطع الكبير. واختبر نفسه بأن كتب على الصفحة الأولى بالإيطالية أسماء جميع أنواع الخضار التي خطرت بباله.

فكر قبل قليل بالذهاب إلى دكان المشّهيات في سان جوستينو حيث ما إن يشير إلى قطعة جبن أو لحم خنزير مدخن حتى تقطع البائعة شريحة منها وتقدمها له ليتذوقها.

إلى جانب فتحة الباب تحرك عقرب متسلقاً الجدار؛ فالآن بعد تبييض الجدران صار بالإمكان رؤية أصغر الحيوانات عن بعد. وأمل بأن يُحضر ماريو قريباً ألواح الزجاج للنوافذ. في إحدى عارضتي السقف في غرفة النوم كانت تعشش دودة خشب، وربما أكثر من واحدة، ففي كل صباح كان يرى على سطح الطاولة والكتب والأوراق أكواماً صغيرة من دقيق الخشب الناعم.

نحو السابعة مساءً حمل صفيحة الماء وتوجه نحو جِلّو. كان الدرب موحلاً أحياناً، في حين كانت شجيرات الدغل قد جفت. كان ماء البئر برأي ماريو صالحاً للشرب، ولكن على طرف الدرب كان يتدفق ماء جيد جداً إلى حوض قرميدي عتيق جداً، ومملوء بالطحالب على السطح وتحته، وقد أطلق المحليون على المكان تسمية «الماء الطيب». عندما اقترب سمع صوت امرأتين كانتا في طريقهما على الأغلب إلى المقبرة، وكانت الصغرى ذات القبقاب تحمل إبريقاً صغيراً، والكبرى ذات الرداء الأسود لم ترد على تحيته عندما التقوا عند الباب الحديدي. كان يعرفها، فهي تملك في الشارع الرئيسي الكئيب في جِلّو صفاً من المنازل لم تدخلها أشعة الشمس مطلقاً. وقد أخبره ماريو بأن نصف هذه المنازل فارغ منذ سنوات؛ فالزقاق المرصوف بالحجارة بطريقة رديئة كان من الضيق إلى درجة لا تدخله سيارة فيات صغيرة إلا بصعوبة بالغة. وفي أوقات بعد الظهر القائظة كان السكان يجلسون على كراسٍ صغيرة مستندين إلى الجدار.

وفي أثناء ملئه صفيحته من النبع خطر بباله أنه نسي إحضار زجاجة فارغة كي يملأها أيضاً. كان ذلك سيدخل السرور إلى نفس ماريو الذي اعتاد قبل تناول الطعام أن يأتي بصفيحة إلى النبع أو أن يرسل أحد أبنائه.

في غرفة المطبخ والطعام لدى ماريو كان الجو حاراً ورطباً، وكان التلفزيون يعرض فيلماً بالأبيض والأسود من تمثيل ألبرتو سوردي، وماريو واقف إلى جانب الموقد يحرك شيئاً في قدر، وأشار لشتيفان بأن عليه أن يصب النبيذ لنفسه. أخبره أن زوج أخته ڤيتّوريو قد أخذ إجازة اليوم وجاء إليه كي يساعده في تجهيز حوض السباحة بالإسمنت.

على طريق العودة في الظلام رافقته مئات من الحشرات المضيئة. كانت ترقص أمامه في حركات مدروسة على ما يبدو، ولم يضطر لاستخدام مصباح الجيب إلا عند النبع؛ حيث وجد صفيحته مغلقة ومركونة جانباً. على درب نقل البضائع الذي يلتف حول سلسلة الهضاب الشديدة الانحدار بدت جميع المفارق متشابهة، وغالباً ما كان يتعثر بحجارة خشنة ناتئة غسلتها أمطار عواصف كثيرة، وفي بعض المواضع كان الدرب مرصوفاً بشكل لا بأس به بقطع قرميد مكسورة.

كاد أن يتجاوز مفرقه بمسافة كبيرة؛ لكنه عندما لمح هيكل سيارته انتبه إلى أنه في الظلام لم ير المفرق الذي ما زال مغطى بالنباتات، وقرر أن يقطع قبل ظهر الغد الأغصان الشوكية وشجيرات الخنشار العالية بمقص الشجر، ثم يستخدم المنشار لإزالة شجيرات الوزّال. وللحظة شعر بالخوف عندما انتهى الدرب قرب الدار وبدأ المرج، لكنه

انتبه في الوقت المناسب إلى غصن شجرة الخوخ المنخفض فانحنى ومر من تحته. اعتمد على إحساسه الداخلي لتلمس طرف الدار والفسحة أمامه، وفي دكنة عتمة السماء لم يستطع تمييز هيكل الدار. هل نسي إغلاق الصنبور يا ترى؟ انتابه شعور بأنه ليس وحده، ولم يتلاش إحساسه بالخوف إلا بعد أن فتح الباب بالمفتاح ودخل. وتحت نور فانوس الكاز الدافئ بدت الغرفة وكأنها مغارة. بعد حين خرج إلى المرج ثانية وبيده كأس ماء وفرشاة الأسنان وقرفص فوق العشب. سمع أصوات الصراصير البرية ونداءات الطيور العجيبة الغريبة الآتية من الغابة القريبة. وعندما استلقى على الفراش سمع مرتين قبل النوم صوت سقوط حيوان من إحدى عوارض السقف العالية أو من السقف المخلخل. وكان صوت السقوط شديداً إلى درجة أنه ظن أنها فئران. فنهض وأضاء الأرضية بمصباح الجيب؛ لكنه لم يجد سوى حشرات سوداء قصيرة كثيرة الأرجل تتحول فجأة إذا لمستها إلى كرة صغيرة. حاول اليوم مرتين في المقهى أن يتكلم هاتفياً مع زايفرت.

تكرر استيقاظه مبكراً جداً؛ ثمة خنزيرة برية كانت تزعق على نحو مزعج في مكان قريب جداً، وعلى أثر ذلك هرعت حيوانات متعددة ـ وقد استفزها الصوت ـ باتجاه المدرجات الواقعة تحت نافذة غرفة النوم. وبدت الأصوات كأن هناك

من يكسر جذوع شجيرات يافعة. قرر الذهاب بالسيارة إلى أريتزو، فقد فرغت جرة الغاز، وكان لا بد قبل كل شيء من محاولة الاتصال هاتفياً بهاينريش زايفرت، آملاً أن يدعوه لزيارته في بونتنانو. وإن وصل إلى المدينة قبيل بدء حركة المرور فلربما سيجد مكاناً لسيارته عند المركز التاريخي الواقع أمام الكتدرائية أعلى المدينة، وعندها لن يضطر لدحرجة جرة الغاز الثقيلة لمسافة طويلة.

عندما انحدر مقترباً من السهل كان هناك ضباب صباحي خفيف، ولما شارف على دخول المدينة من جهة المنطقة الصناعية أحس بغمامة تغطيها، ولم يبدُ واضحاً سوى برج الكتدرائية الضخمة على الهضبة. كادت فيات صغيرة متسخة أن تصدمه، وعندما أراد تجاوزها اندفع السائق نحو منتصف الطريق. كان السائق غير حليق، نظر نحوه باسترخاء وهو يزمّر بشدة، ويقود سيارته بيد واحدة في حين كانت يده الثانية مشغولة بنكش أسنانه بعود خشبي.

ظن شتيفان أنه يعرف الطريق الصاعد إلى الكتدرائية من الصيف الماضي؛ لكن كل شيء بدا له الآن غريباً، ومنذ مفرق سان دومنيكو صار الطريق ضيقاً، وكان للحجارة السوداء الملساء التي رُصف بها الطريق حوّاف منحنية. أمام بعض الأبنية كانت النساء تكنس الطريق، وقد توزعت

هنا وهناك بعض الكراسي والطاولات الصغيرة، وأحياناً كنت ترى رجلاً مسناً جالساً يقرأ في جريدة. تفاقم شعوره بالخجل من أن يعبر الطريق بالسيارة؛ فالطريق بالنسبة إليهم أشبه بغرفة جلوس ثانية، هكذا فكر شتيفان، على الرغم من معرفته بأن سكان أريتزو أنفسهم يعبرون هذه الأزقة، ولا سيما شبيبتهم على دراجاتهم النارية الهادرة من دون أن يبالي بهم أحد.

كان صاحب المتجر القصير القامة والمتخصص ببيع حاجيات المخيمات قد فتح محله للتو، ترك شتيفان جرة الغاز هناك وتمشى عبر الشارع الرئيسي، دخل مقهى وشرب فنجان كابوتشينو، ثم دخل كتدرائية سان فرانشسكو، ولفتت نظره هناك على نحو خاص صورة الملاك ميكائيل المتبقية على أحد الأعمدة المعزولة ومهترئة السطح تماماً. ومثل كثير من وجوه پييرو ديلاّ فرانشسكا كان هذا الوجه يشع باحتفالية الفن التشكيلي الإغريقي المبكر. وحتى في شوارع أريتزو كان شتيفان يرى في وجوه الفتيات والفتيان العابرين مثل هذا الوجه أحياناً.

لم تكن إضاءة الرسوم الجدارية صحيحة؛ فقد كانت منطقة المذبح معتمة، ووجد في كنيسة جانبية صغيرة قديمة محلاً لبيع أدوات الصلاة والتذكارات، فاشترى بعض الصور

البريدية ولوحتين طباعيتين: أولاهما تولد انطباعاً غير مريح، وهي بريشة بييرو للسيدة العذراء، مرتدية عباءة تضم أيضاً رجلاً راكعاً وعلى رأسه غطاء أسود بفتحتين للعينين. وكانت اللوحة الثانية صورة لرسم جداري يمثل ملكة سبأ راكعة أمام الملك سليمان وهي محاطة بوصيفاتها. وقد أثّرت فيه الجدّية العالية في تصوير الموضوع بعيداً عن العاطفية كلياً، وفكر في المكان الذي سيعلق فيه اللوحة الورقية في الدار.

ثم تجول بلا هدف محدد عبر الشارع الرئيسي المزدحم، وعند الساعة التاسعة والنصف امتلأت الشوارع بالناس. لمح في زقاق جانبي لافتة مقهى بتراركا مكتوبة بالنيون، فشرب هناك فنجان قهوة آخر، واتصل بزايفرت هاتفياً. قال زايفرت إنه سيذهب بعد غد إلى الحلاق في سان جوستينو، واقترح أن يلتقيا نحو الساعة الحادية عشرة في المقهى. كانت الأزقة المتفرعة من الشارع الرئيسي ممتلئة على الجانبين بالسيارات مما زاد في ضيقها، ودائماً كان يُسمع زمور سيارة نقل عاجزة عن العبور.

وحول تمثال ماريو موناكو مخترع العلامات الموسيقية كانت حركة المرور دائبة، ولم تأبه أي سيارة بمعابر المشاة، فنفد صبره لعدم تمكنه من عبور الساحة إلى الجانب الآخر. حاول ثانية - من دون جدوى - العثور على مقهى كونستنتيني

الذي قضى فيه في السنة الماضية عدة ساعات منتظراً توقف عاصفة مطرية، فقد كان فيه شيء يذكره بمدينة تريست، شيء نمساوي عتيق، والقهوة والمعجنات هناك هي الأطيب من أي مقهى آخر. رأى في واجهة المكتبة على الطرف المقابل طبعات لكتاب كلاسيكيين مثل ليوپاردي وكاردوتشي وتوزّي، وأقنع نفسه بأنها غالية ولن يتمكن من قراءتها؛ لكنه رغم ذلك دخل وتصفح بعض دواوين الشعر ذات الطبعات الأنيقة. وفي ديوان صغير ذي غلاف فاخر جداً تسمرت عيناه على سطرين باللغة الألمانية في وسط قصيدة إيطالية:

«أحبكِ، وتكوينُ جسدكِ الجميل يثيرني،

لكنكِ غير راغبة، لذلك سألجأ إلى العنف!».

بدا له الأمر وكأنه يقرأ هذه الأبيات للمرة الأولى؛ لا، لم تكن هذه النصوص على الأرجح قصائد لشتيفانو بوسولين، فهو حالياً يكتب جملاً نثرية موزعة على عدة أسطر. وعلى أحد الرفوف كانت مجلدات دار نشر أدِلفي الميلانوية مصفوفة بجمالها الفريد، إلى جانب طبعات بالإيطالية ليوزف روت «مقام الوعاظ الشعبيين»، ولكارل كراوس «آخر أيام البشرية»؛ رأى ترجمة لهوفمنستال بعنوان «كتاب الأصدقاء» فاشتراه هدية لزايفرت.

عند الساعة العاشرة والنصف ومع ارتفاع درجة الحرارة صارت رائحة غازات عوادم السيارات لا تحتمل، فأنهى مشترياته من المدينة بسرعة وغادر. سار على الطريق المستقيم الطويل الممتد من الضاحية وحتى ريباردي كاراتا بسرعة مئة وعشرين مثل الآخرين، كان الطريق مغبراً، وكانت الريح الشرقية تهب هنا كثيراً. تصاعدت روائح المنشآت الصناعية، وما أن اقترب من كاراتا حتى انعطف يساراً، فتح نوافذ السيارة من أجل التهوية، وتابع طريقه نحو جسر بوريانو. كانت حركة المرور على الجسر الروماني الضيق منظمة بإشارات ضوئية، ومع ذلك حدث عدة مرات أن التقى فجأة بسيارة من الاتجاه المعاكس في منتصف الجسر.

هنا ينعطف نهر آرنو الآتي من الشمال حول الأجزاء الأخيرة الجنوبية الشرقية من سلسلة جبال پراتومانيو، ويتابع سيله باتجاه فلورنسا. ألقى من الجسر الروماني نظرة على سرير النهر العريض والمفروش بالحصى في بعض مواضعه؛ ففي الصيف لا يبقى من النهر غالباً سوى مسيلات هزيلة بين الحصى المتسخ. اشترى خضاره في كاستيليون فيبوكي، وتابع طريقه لمسافة مستقيمة طويلة صاعداً نحو شجرتي السرو العملاقتين على جانبي الطريق، واللتين بدتا له كبوابة إلى مكان يشعر فيه بالسعادة، وأحس بالأسف لعدم

وجود هذه البوابة قبل المنعطف على طريق المعبر، بحيث كان يمكنه القول بعد الرحلة الطويلة على الطريق العام: ثمة مَن هو في استقبالي، وقريباً سأصل إلى داري.

كان في كل مرة يصل فيها إلى الطريق غير الممهد أسفل جِلّو يغمره الفرح بفتح النافذتين واستنشاق الهواء وتذوقه، ثم بالوقوف عند النبع حيث يغسل الصفيحة التي تتسع لعشرة ليترات، ثم يملؤها ويغسل وجهه ويشرب. وبما أنه قد ملأ السيارة بكثير من الحاجات قرر المتابعة بها نزولاً حتى باب الدار وبترو؛ ففي الحشائش الكثيفة في منتصف الدرب كانت تنبثق أحياناً بعض الصخور، إضافة إلى تساقط أحجار جدران المنحدرات على الدرب أحياناً، إما بسبب عدم الاعتناء بها أو بسبب اندفاع جذور الأشجار.

مساءً عندما كان يعقد رباط حذائه على الدرج الحجري كي يمضي إلى جِلّو سمع أصوات أطفال منحدرين على الدرب، ولأن مورا كانت بين منحدري الوادي كان بوسع المرء فهم كل كلمة ينطقها الزوار أو العابرون وهم على درب البضائع العلوي، أو وهم ينحدرون باتجاه مدخل مورا. كانا جانّي وداڤيده ابني ماريو ومعهما زجاجة نبيذ، وقالا إن ستيفانو لن يستطيع اليوم زيارتهم لتناول الطعام معهم؛ لأن البابا تعرض لحادث في العمل، وقد نقله أحد الجيران بعد

الظهر إلى المستشفى. باعد داڤيده الصغيربين ساقيه في وسط مدخل مورا بين شجرة الخوخ وشجرة البلوط اليافعة، وأرخى سرواله وتغوط. وجانّي ذو الرأس الحليق بدا كأنه صيني.

قبل عودته إلى بلده في السنة الماضية خبّأ نبيذاً وزيت زيتون وعدة أدوات تحت قطع خشبية وأغصان جافة في القبو الخالي من النوافذ الذي يمكن دخوله عبر نافذة ضيقة في الحظيرة الجنوبية. كانت الأرضية الصخرية مغطاة برمل ناعم وغبار بسماكة أصبع. وما كان نور النهار يصل إلى تلك النافذة العارية من الزجاج إلا بعد الظهر عندما تكون الشمس أفقية تقريباً، فيتسرب بعض النور إلى المكان الأشبه بمغارة. لقد نسي أن يشتري في أريتزو بطاريات لمصباح الجيب، ولم يرغب بالانتظار حتى تنير شمس بعد الظهر المكان، فانحنى عبر النافذة وبقي برهة على هذا الوضع حتى اعتادت عيناه الظلام.

كان خائفاً قليلاً، مد يده بحذر خلال قطع الحطب والأغصان النحيلة التي جمعها وكسّرها في السنة الماضية. وعندما دخل الحظيرة أول مرة مستخدماً مصباح الجيب وجد بندقية مخبأة بين عوارض سقف الحظيرة الخشبية. وكان رأي ماريو أنها لا شك لأحد الصيادين، وعلى شتيفان

أن يتركها في مكانها وألا يقفل الحظيرتين، طوال الشتاء، وإلا فإن الصيادين سيكسرون الباب، فقد اعتادوا في تشرين الأول (أكتوبر) أن يختبئوا من المطر في أي مكان كي يستريحوا ويأكلوا. وجد النبيذ في مكانه، ثلاث زجاجات من النوع المفضل لديه ڤيلاّ كالزينايا والذي بحث عنه في أريتزو حتى وجده. وتذكر كم كان صعباً في البداية العثور على نبيذ أحمر جيد وغير باهظ السعر.

أخبره زايفرت أنه يشتريه من صاحب كرم صغير في كاستيليون فيبوكي، بيد أنه اضطر للانتظار خمس سنوات حتى باعه هذا الفلاح ذات مرة ثلاثين زجاجة. وأن خمور السوبر ماركات غير مستساغة، أما الفاخرة مثل برونِللو فيصعب على المرء تحمل سعرها إلا في الأعياد. في الماضي كان يكتشف أحياناً في متجر بونتنانو زجاجة نبيذ محترمة، وتذكر شتيفان أنه في الصيف الماضي في سان جوستينو سأل رجلين عجوزين كانا يقفان في شمس المساء مستندين إلى جدار الدار: أين يمكنه العثور هنا على نبيذ جيد بأسعار معقولة؟، فنظرا إليه شذراً وكأنه كان يسألهما عن عاهرات.

ومنذ أن عرّفه ماريو إلى أنطونيو فيرِتّي صار بإمكانه شراء النبيذ منه؛ إلا أن فيرِتّي برأي ناردو يبالغ باستخدام

الكبريت في كرمه، كما لا يمكنك أن تشد على يده فيما يتعلق بأمور النظافة. وقد كان هذا الرأي صائباً، فإن شرب أكثر من ربع ليتر كانت تحترق أغشية فمه، ولهذا توقف عن شرب نبيذ فيرتّي إلا بكميات ضئيلة أو عندما يكون مدعواً عنده، وليس على المائدة سوى ذاك النبيذ .

في شقوق وثقوب جدار الدار على ارتفاع قدم كانت ترتع بعض الأفاعي التي جعلت من المكان جحوراً لها، قرأ ذات مرة أنه كان لكل دار في روما القديمة أفعى خاصة بها. ومع ذلك قرر سد هذه الشقوق والثغرات عندما تسنح له الفرصة لذلك. كانت أشجار الصنوبر أو السرو هنا نادرة، على عكس الزيتون والبلوط والدردار والكستناء. وقد شرح له ماريو أن المدرجات أعلى وأسفل مورا مزروعة بعدة مئات من أشجار الزيتون، إضافة إلى كثير من الغرسات الجديدة التي بات معظمها مغطى بالنباتات الطفيلية المحيطة وبالحراجيات والنباتات الشوكية. وأن كثيراً من الشجر قد انتهى في أحد الحرائق، وليس ثمة من يهتم بهذه الأرض منذ ثلاثين سنة، منذ أن هُجرت الدار.

كانت هذه الدار الحجرية ذات الطابق الواحد تقف بغرفها الأمامية الأربع التي يشغلها على منبسط صغير على أحد منحدرات سلسلة پراتومانيو، في حين كان الجزء الخلفي

مبنياً على منحدر صخري، ومن ورائه تنحدر الأرض بشدة حتى أسفل الوادي حيث يمر الطريق المؤدي إلى فيبوكي. وهناك على جدار الدار الأيسر نحت رقم سنة في الحجر؛ غير أنه لم يعد واضحاً بسبب عوامل الحت والتعرية، وهو إما ١٧٨٩ وإما ١٧٨٨ وإما ١٧٦٨. والمرج الممتد أمام درج الدار هو الأرض المستوية الوحيدة في المنطقة المحيطة، وقد كان يستخدم فيما مضى لدرس الحبوب.

وفيما مضى أيضاً كانت الغرفة الوسطى مستودعاً، ثم فُتحت ذات يوم على الغرفة الكبرى التي كانت برأي ماريو غرفة نوم. وطوال حياة السيدتين كاسّي كان الدخول إلى الغرفة الكبرى يتم عن طريق مطبخ الخدم، حيث كان ينام سبعة عمال زراعيين في أسّرة ذات طابقين. كان يمكن أن يصير لاحقاً أجمل غرف الدار، لكن بلاطات أرضيته متآكلة، وثمة موضع فيه يمكن للمرء أن يرى عبره ما يجري في الحظائر تحته. أما القسم الخلفي من الدار فلم يعد قابلاً للسكن بسبب كثرة الثقوب في قرميد السطح.

كان هاينريش زايفرت على الهاتف – كما كان قبل مدة أيضاً – جافاً وقليل الكلام، وخطر ببال شتيفان أنه ربما تصرف بصورة سيئة إذ لم يعبر له عن شكره على نحو لائق، ولكن بعد أن انضم هاينريش في المقهى إلى طاولة شتيفان

كان أول ما قاله هو أن صحته منذ الشتاء الماضي ليست على ما يرام، إنه قلبه، القصة القديمة نفسها. وأنه في نيسان (أبريل) دخل المستشفى في أريتزو لإجراء فحوصات، وأنه عانى من بيروقراطية صندوق المرضى، وأن أوربا الموحدة ما زالت بعيدة جداً. ولو أنه علم قبلاً ما معنى الاستقرار في إيطاليا لما كان قد حسم أمره بهذا الشأن؛ فالبنوك مجموعة عصابات، قبل أكثر من ثماني سنوات فتح في تالاّ حساب توفير، وأراد بعد ثلاث سنوات سحب ثلاثة ملايين ليرة لإجراء بعض التجديدات في منزله، ليكتشف أن الجزء الأكبر من وديعته لم يعد موجوداً في حسابه.

رسوم رسوم! هكذا صاح في وجهه العاملون في البنك... لقد أوضح له جاره وصديقه ألسّندرو أنهم حازمون جداً حيال حسابات الأجانب؛ لأن كثيراً من الناس في إيطاليا يهرّبون أرباحهم إلى الخارج لتجنب مكتب الضرائب. ونصح هاينريش شتيفان بأن يبدل مبلغاً كبيراً إلى العملة الإيطالية دفعة واحدة، وإلا فإن اليأس سيغمره، لأن كل عملية تبديل هنا ـ مهما كان المبلغ صغيراً ـ تماثل العمليات التي تجري على مستوى الدولة. إذ لا مناص من تصوير نسخة عن الهوية أو جواز السفر، كما لا بد من تصوير نسخ عن أوراق العملة المبدلة. «واحسب حساب نصف ساعة على الأقل لتبديل العملة»؛ قال هاينريش ثم تابع: «فهنا في أريتزو يتركونك

تنتظر أمام شباك البنك عشر دقائق. اعذرني، ربما ليس في حديثي ما هو جديد بالنسبة إليك..»..

دخل المقهى شاب ورفع يديه محيياً؛ لكن شتيفان لم يتذكر إن كان يعرفه. «دعنا نشرب كأس قدومك» قال زايفرت بعد أن شربا القهوة وتابع: «متى وصلت؟»، ثم أضاف أنه لم يعد يشرب الكحول منذ شهور. «ولكن ماذا ترغب أنت أن تشرب، كأساً من الكراپا أم فيكيا رومانيا أم نوعاً آخر؟ لا بد أن تزورني قريباً فوق. اتصل بي الأسبوع القادم». ثم سأله عما إذا كان راغباً في مرافقته إلى لاڤِرْنا، إنها محجٌّ في جبال كاسنتينو، يمكن للمرء فيه أن يرى أيضاً الصخرة التي نام عليها فرانسيس الأسيسي في أثناء إقامته هناك. ولكن لا بد لشتيفان من أن يقود السيارة؛ لأن هاينريش لم يعد لديه سيارة منذ ثلاثة شهور. فقال شتيفان إنه قد سمع بلاڤرنا فقد دعاه أنطونيو فيرِتّي للسفر معه إلى هناك.

قال زايفرت إنه أتى إلى بونتنانو قبل سبعة عشر عاماً تماماً، ولم يكن يتكلم الإيطالية، بيد أنه دبّر أموره باللاتينية بصورة جيدة. وأن موثق العقود في أريتزو الذي وقّع عنده عقد شراء الدارين، وهو معجب كبير بفاغنر إلى درجة أنه يسافر سنوياً لحضور احتفالات مدينة بايرويت، كان في البداية يعتني به، كما عرّفه على العمدة السابق. وتابع:

«عندما أتذكر الآن كيف جمعت أوراق الأشجار المتساقطة في حديقتي، أوراق زيتون وبلوط وكستناء كالجبال، كنت أجمعها في حقيبة وأرميها على أحد المنحدرات السفلية... بعد يومين على هذا المنوال شعرت بنفسي مرهقاً كثيراً؛ إذ لم يسبق لي في حياتي كلها أن قمتُ بعمل يدوي. حرق أوراق الشجر والقش ممنوع هنا قطعياً، لكن السكان المحليين لا يتقيدون بالأمر، ولا شك أن خبرتك أوسع».

كان أحد أسباب انتقاله للاستقرار في توسكانا هو إقامة منشأة للطاقة الذرية في بلدة يوليش عام ١٩٦٦، ثم أخرى في عام ١٩٧٤ إن لم تخنه الذاكرة، في بلدة بيبليس، وتلتها من ثم أخريات. «يمكنك أن تتصور شعوري عندما بنوا منشأة التدفئة المركزية في سان جوڤاني». وفجأة قال إن بوسعهما التخاطب بعد رفع الكلفة من دون رسميات، وتابع: «لنشرب نخب صيف جميل!»، ثم سأله فيما إذا كان يعلم أن سان جوڤاني هي مسقط رأس مَسّاتشيو، مضيفاً: «ما يلفت النظر هو أن كثيراً من كبار الفنانين قد ولدوا في هذه المنطقة؛ جوتّو في ڤسبِنيانو، پييرو ديلاّ فرانشسكا في سانسيبولكرو، الأب أنجليكو في ڤيكّو، ليوناردو قرب إمبولي، ميكل آنجلو في كابريزه في جبال كاسنتينو... إضافة إلى أوتشلّو، غيبرتي، سيمونه مارتيني ودوناتلّو..». ولقد زار كل هذه الأمكنة خلال السنوات الأولى، وإن رغب شتيفان بزيارتها فهو على استعداد لإعارته كتباً وأدلة سياحية.

«أخبرني، كيف أمورك في مورا؟ عفواً! كم تفكر أن تبقى؟ أين تعلمت الإيطالية؟». فأجاب شتيفان بأنه قبل سنوات كثيرة في زالتسبورغ قد حضر دورة للمبتدئين لدى أستاذ إيطالي متقدم في السن، كان يحكي لطلابه، غالباً بالألمانية، قصصاً من أيام شبابه في جنوا، ومع ذلك فقد تعلم منه على ما يبدو بعض الإيطالية. والآن بعد مرور عشرة أيام لم يتحدث خلالها إلا مع ماريو وبعض سكان جلّو، وبعد أن صار يسجل الكلمات التي لا يفهمها ويراجعها في الدار، بات الأمر سهلاً جداً، وأحياناً أثناء الطبخ عندما كانت تخطر بباله أشياء معينة، لاحظ فجأة أنه بدأ يفكر بالإيطالية.

وقال إن ما يثير دهشته أكثر من أي شيء آخر هو أنه لم يخامره أي شعور بأن ثمة ما ينقصه؛ بل إن الأكثر أهمية في الدنيا كلها هي الأعمال الصغيرة والكبيرة في الدار وحولها، والطبخ... وإنه لا ينظر إلى ساعته إلا بعد الظهر عندما يريد الذهاب بالسيارة للتبضع، فالمتاجر لا تفتح قبل الساعة الخامسة، ومع ذلك فالأمر سيان؛ لأنه إذا وصل مبكراً جداً فإنه يجلس في المقهى، ويتدرب على اللغة الإيطالية بقراءة جريدة الرياضة. المدرسة باتت نائية جداً... ومعه بعض الكتب («لقد حرضّتني على إعادة قراءة الكتّاب الكلاسيكيين الرومان».) لكنه لم يبدأ بعد بأي منها، ومعه أيضاً دفتر رسم وعلبة ألوان مائية — لكنه حتى الآن لم يجد دقيقة فراغ

لذلك. غالباً ما يجلس عند الغسق طويلاً أمام الدار مراقباً تلامح النجوم الأولى. وقد جلب معه أطلساً فلكياً أيضاً.

ثمة ما منعه من الحديث عن مشروع الكتابة. قال: «في آب (أغسطس) سيزورني أخي فرانتس، إنه في الحقيقة أخي غير الشقيق، سنناقش موضوع سيناريو».

لماذا كان يشعر بمثل هذا الاسترخاء؟ مضت ساعتان وهو يجز الأعشاب ويحرر أشجار الزيتون من الحشائش والنباتات، وهو يشعر الآن بالفرح لأنه سيجلس مساء أمام الدار ويشاهد الأشجار، فالمكان بأسره قد تغير. ربما كان الأمر مجرد تخيل، غير أن الأشجار على ما يبدو تشعر بالارتياح؛ ولكن من المحتمل أيضاً أنها تفضل البقاء متعانقة مع الأعشاب وأغصان العليق...

وضع آلة الجز في الورشة وأخذ معه زجاجة نبيذ إلى الدار، ووضعها على رف شباك المطبخ، خطرت بباله كريستا، حبيبة صباه التي كان وفياً لها خلال سنوات الثانوية، على الرغم من أنه لم يلتق بها ولا مرة واحدة؛ بل كان في الصيف فقط يراقبها يومياً من غرفته وهي تجلس أو تنشر الغسيل على شرفة البناء المقابل، وتذكر جهاز الأسطوانات الموسيقية الأول الذي كان مكبر صوته مركباً في غطائه، والذي كان يضعه على كرسي بجانب النافذة ويدير عليه سمفونيات

بيتهوفن، ليراقب ردود أفعالها عبر انعكاس صورتها على زجاج النافذة. كان والدها من أتباع شهود يهوه؛ وهو لم يرها في الطريق وحدها إطلاقاً.

عندما مد جذعه عبر نافذة المطبخ لسماعه صوتاً ما رأى ماريو قادماً يعرج، ثم توقف على بعد عشر خطوات من الدرج الحجري وناداه باسمه. كان يحمل بيده رسالة ويستند على عكاز. قال إن قدمه قد تحسنت. لكن شتيفان وبُخه لأنه قطع هذه المسافة الطويلة بسبب رسالة، وقال له: «تعال، سأرافقك إلى جلّو»، ووضع الرسالة في جيب قميصه. وفيما كانا يصعدان الدرب حدثه ماريو للمرة الثانية أنه ولد لخادمة عزباء في مورا، وحينذاك كان عدد الخدم في هذه المزرعة الصغيرة خمسة عشر رجلاً مقيماً.

توقف وأشار إلى شجرة كرز ضخمة ناهضة على مدرج أسفل الدرب؛ لقد أكلت الطيور جميع الثمار، لم يكن شتيفان قد انتبه إلى وجود الشجرة أبداً، فلاحو المنطقة ينطلقون إلى العمل في المدرجات منذ الفجر ويعودون مع الغسق للنوم. كثيراً ما كانت تندلع حرائق في غابات المنطقة، وآخر حريق كبير وقع عام ١٩٥٧.

عندما وصلا إلى القرية كانت الظلمة قد حلت، كان المنزل الأول لآل فيرِتّي. قال ماريو إن أنطونيو فيرِتّي كان

بوده أن يشتري مورا، لو عرف أنها معروضة للبيع؛ فهو أغنى رجل في المنطقة كلها، ويمتلك خمسة أو ستة منازل ومئتي هكتار من الأراضي، وأفراد أسرته ـ عدا بعض النساء العجائز ـ هم الوحيدون الذين ينتخبون المحافظين، تحت السقف كان هناك قفص للحمام، وكان المطبخ مرئياً عبر النافذة المفتوحة.

ألقيا التحية فدعيا للدخول؛ لكن شتيفان أراد الرجوع إلى مورا لأنه ترك الباب والنافذة مفتوحين، وهو يخشى دخول الخفافيش، ثم هناك على طاولة المطبخ أكواز الكوسا التي كان قد قطعها إلى شرائح من أجلها قليها، ولكن ليس للفئران! ومع ذلك سمح لماريو أن يدفعه إلى داخل المنزل. جُلبت الكراسي ووضعت كؤوس النبيذ على الطاولة، حيث كانت الزوجة كريستينا تتابع دعك عجينة لتحضير المعكرونة، أما الابنة الممتلئة بتينا فقد كانت تحوك بالصنارة بجانب النافذة. سبق لشتيفان أن جلس هنا عدة مرات في الصيف الماضي، وحينها نوّه ماريو إلى أن ستيفانو يرغب بشراء بعض زجاجات النبيذ، فاختفى أنطونيو في غرفة المؤونة، ثم أحضر أربع زجاجات كبيرة مغلفة بالقش ووضعها أمامه على الأرض. وقد فرح شتيفان بهذه الزوادة التي ستكفيه فترة من الزمن. قال له ماريو: «حاسبه عندما تعيد الزجاجات الفارغة».

امتدح شتيفان النبيذ الذي تذوقه لتوه؛ فهز أنطونيو برأسه سعيداً، وسأله بعد برهة فيما إذا كان لديه زجاجات فارغة في مورا، فهو بحاجة إليها دائماً. اقتربت بتينا من شتيفان حاملة كنزة من دون أكمام بعد وسألته شيئاً ما، لكنه لم يفهم، فأوضح له ماريو: «تريدك أن ترتديها لتقيسها؛ فلخطيبها الجسم نفسه»، احمرت بتينا خجلاً. وعندما لبى لها رغبتها ضحك الجميع.

دخل المنزل عامل بناء وقد تناثرت بقع الملاط على وجهه وقميصه وجلس بجانب الموقد، وراقب شتيفان كيف كان أنطونيو يزيل طبقة الزيت من عنق إحدى الزجاجات الملبسة بالقش بمساعدة ورقة جريدة ملفوفة. كان ماريو الآن هو من طلب الرحيل؛ إذ عليه تحضير بعض الطعام لأن الأطفال عنده الآن، فقد حصل من عمله على إجازة مفتوحة بكامل الراتب، ولهذا فإنه مؤقتاً سيعتني بالأطفال بنفسه. كما وافقت جمعية الكومونة على إرسال امرأة إليه يومياً مدة ساعتين لتدير شؤون البيت والطبخ.

ترك شتيفان إحدى زجاجات النبيذ لدى ماريو على الطاولة وجلس برهة على المقعد الخارجي، وشيئاً فشيئاً بدأ الجيران - ومعظمهم بناؤون أو عمال طرقات - يهبطون من درجات بيوتهم، يفتحون أبواب أقبيتهم الموازية لأرض

الساحة، يختفون برهة ثم يعودون وفي يد كل منهم زجاجة نبيذ. كانت المنازل الضيقة متلاصقة الجدران وتحيط بالساحة التي يصعب على سيارة أن تستدير فيها. ومن النوافذ المفتوحة كانت تسمع أصوات اصطفاق الصحون وأدوات الأكل، وأخبار التلفزيون.

كان منزل زايفرت الواقع على الشارع الرئيسي في بونتنانو متواضع المظهر وأشبه بالبرج، وكانت مقرعة الباب الخشبي العتيق النحاسية تمثل رأس أسد، بدت واجهته الأمامية بمصرعات النوافذ المغلقة منفرة. وعلى الطريق الجبلي المؤدي إلى ذروة پراتومانيو على ارتفاع ١٦٠٠ م عبر غابات صنوبرية داكنة كاد شتيفان أن يتوه عن مفرق بونتنانو.

فتح زايفرت الباب وبدا مسروراً، مد ذراعيه باتجاهه ثم تركهما يسقطان، وقال: «جيد أنك دقيق في موعدك؛ فالطعام جاهز، ولكن عذراً... عذراً!». كان وجهه اليوم أكثر صحة، كما كان يتحرك بخفة. قاد شتيفان إلى غرفة واسعة لبلاطها لون قرميدي وتركه فيها وحده. بدت الجدران الحجرية البيضاء ذات الخطوط الملاطية الدقيقة كأنها قد نظفت بشفّاط الغبار، أما السقف الذي بدا جديداً فقد دعمته أربع عوارض خشبية ضخمة، ومن خلال فتحتي النافذتين توضحت سماكة الجدران الخارجية، وقد وضعت

ما بين النافذتين طاولة عتيقة منخفضة ذات برداخ جميل، وعلقت فوقها لوحة مطبوعة في إطار تمثل رجلاً عجوزاً يرتدي عباءة رومانية خمرية اللون، واقفاً على منصة مرتفعة تسنده امرأتان، وأمامه شاب على رأسه إكليل يقود ثوراً من أحد قرنيه، وهناك على الجانب الآخر رجل وامرأة، بينهما منضدة عليها قاز بذراعين.

وعلى مسافة من النافذة اليمنى كانت هناك طاولة طعام ذات غطاء أبيض، ويمتد المنظر وراء الطاولة عبر النافذة، مجزأ إلى نصفين بسبب جذع شجرة الكستناء الناهض قرب المنزل، ليطل على الهضاب الممتدة. وعند نهاية قطعة الأرض ذات الانحدار الخفيف تعرفت عيناه على عدد من أشجار الزيتون العتيقة بأحمالها الكثيفة. وأمام النافذة اليسرى وضعت طاولة مكتب حديثة ذات سطح سميك معرق يلفت النظر، وكانت كراسي طاولة الطعام الجديدة منسجمة مع الغرفة بصورة حسنة، وقد علق فوقها مصباحان نحاسيان أسطوانيا الشكل، متصلان بالسقف بسلك كهربائي رفيع. عندما التفت إلى اللوحة المعلقة فوق الطاولة مقترباً منها دخل هاينريش حاملاً صينية كبيرة، وقال إنه اشترى اللوحات المطبوعة قبل سنتين من المتحف في نابولي، حيث عرضت هذه اللوحات الجدارية المحفوظة جيداً، وأضاف: «ألا تفكر عندما تراها بالملك لير وابنتيه؟ لكن موضوعها يتعلق بأسطورة جاسون وبِلياس؟».

خلال تناول الطعام سأل شتيفان عما إذا زار ڤولتيرا في فلورنسا، وعما إذا كان يقوم برحلات زيارة. في الماضي قام بسيارته الفيات الصغيرة برحلات كثيرة في المنطقة، لكنه حتى الآن لم يصل إلى پيزا ولوكا.

«سنشرب قهوة الإسبريسو بعد حين في الحديقة، إن لم يكن لديك مانع؟».

قال ذلك وأردف إنه سيستلقي نصف ساعة في الغرفة المجاورة؛ فهو في الصيف ينام في غرفة الضيوف في الطابق السفلي، لأن السقف غير معزول، وأنه يمكن لشتيفان أن يتجول في المنزل كما يشاء، وفي الطابق الثاني هناك غرفة المطالعة والمكتبة وغرفة النوم الشتوية. يمكنه ترك الصحون وأدوات الطعام في مكانها، فالصبية روزا، من الجوار، ستأتي بعد حين وتهتم بهذه الأمور.

التفت شتيفان إلى اللوحة المعلقة بجانب الباب، بدت عن بعد كأنها سجادة جدارية، كانت محاطة بإطار عريض ذي لون أحمر قان، أما مساحة اللوحة فكانت عاجية ومحاطة بتزيينات دقيقة، وعليها رجل يرتدي عباءة رومانية بيضاء طويلة ذات غطاء للرأس، الوجه بلا ملامح وساعده الأيمن ممدود؛ إلا أنه لم يكن واضحاً ما إذا كان يحمل في يده مصباحاً أم شيئاً مقدساً. كان في وضعية الرجل شيء يوحي

لشخص آخر بعدم تجاوز هذا المكان. على جدار الدرج ذي الطابع الريفي رُصفت بشكل مائل رفوف كتب مملوءة بكتب يعلوها الغبار. كانت الغرفة العلوية نيرة جداً بسبب طلاء جدرانها الأبيض. وباستثناء السرير الضيق لم ير شتيفان سوى طاولة مكتب ثقيلة مع كرسي قائمة بين النافذتين.

وعلى الجدار المقابل للسرير كان هناك رف كتب وحيد، صُفت عليه الكلاسيكيات الإغريقية والرومانية، بينها طبعات كثيرة بلغتين عن دار نشر توسكولوم. بحث شتيفان عن پلينيوس ولم يجد سوى طبعة مختارات، وفكر بإعادة قراءة الصفحات القليلة عن انفجار بركان ڤيزوف عام ٧٩ بعد الميلاد. أعجبته اللوحة المؤطرة والمعلقة فوق السرير: كانت مائية تجسد صفاً من المثلثات الحمراء المتداخلة، وفوقها بشكل مائل جسم دقيق يوحي بساعة رملية في قعرها رمل أمغري اللون. انحنى نحو التوقيع وقرأ اسم يوليوس بيسيه الذي لم يسمع به سابقاً.

في الحديقة كان حفيف ذرا شجرة الكستناء يزداد قوة باطراد، كما كانت تُسمع صيحات أشبه بالصفير: إنها السناجيب، أضاف زايفرت إنه من المحتمل أن تبدأ الآن فترة أمطار، وهي ضرورية جداً لأن الماء بات شحيحاً هنا في الأعالي. فكر شتيفان بأن نطق هاينريش جاف ومشيته يشوبها التصلب بحيث يقوم بخطوات متقاربة قصيرة.

وفجأة لم يعد شتيفان يدري أي حديث يفتح مع هاينريش، على الرغم من أنه كان راغباً جداً في فتح حوار معه. عندما خرجا إلى الحديقة قال هاينريش إنه لا يعرف ما إذا كان شتيفان متزوجاً، فحدثه هذا عن مونيكا، وأضاف إن صديقته قبل سنوات كثيرة عندما كانت شابة صغيرة جداً ولدت جنيناً ميتاً، وقد شكل الأمر مأساة حياتها، وهو لم يرها سعيدة أبداً. إنها تكبره باثنتي عشرة سنة، لكن هذا – بالنسبة له على كل حال – ليس السبب في أنهما فكرا بالانفصال عن بعضهما في الآونة الأخيرة.

وفجأة تذكر ما خطر بباله في أثناء مجيئه إلى بونتنانو فقال: «صباح اليوم تذكرت إجازة عيد الفصح قبل سنتين؛ عندما تقابلنا في محطة القطارات في أريتزو. وفكرت: لو كانت عربات القطار مدفأة من نابولي لتابعت رحلتي فيه ليلاً حتى روزنهايم، ومن ثم لما تعرفت عليك، ولما جئت إلى مورا أبداً... لا أستطيع تصور الأمر أبداً».

وتذكر كيف بات فجأة متفائلاً جداً قبل سنتين عندما أراه هاينريش مورا أثناء رحلته الأولى إلى ڤالدارنو، ثم كيف أوصله مساء بسيارته الفيات الصغيرة إلى محطة القطار في راسّينا. فما عرضه عليه هاينريش - من أن يجعل مورا قابلة للسكنى - جعل الحياة تدب في أوصاله، مثلما حدث في

السنة التالية عندما طلب منه فرانتس أن يساعده في كتابة سيناريو الفيلم. وقد شعر في حينها بأن منعطفاً حاسماً في حياته طال انتظاره يمكن أن يحدث أخيراً. وهو منذ مدة لم يعد قادراً على تصور الاستمرار في مهنة التعليم مدة عشرين إلى خمس وعشرين سنة أخرى حتى التقاعد.

«لم تكن هذه مصادفة»؛ قال هاينريش، وقفز سنجاب أمامه حاملاً بين أسنانه شيئاً يشبه الجوز.

وتابع: «أحياناً أفكر بأني منذ مدة طويلة لم أفعل شيئاً سوى جمع الطبعات الجميلة والسهلة الاستعمال للكتّاب الذين أحبهم، حتى هنا في إيطاليا ليس فيها مثلاً كل مؤلفات پتراركا. طبعة رسائله نادرة جداً، بحثت عنها في روما ونابولي».

سأل هاينريش كيف يدبر أموره من دون سيارة، فأجاب بأن ألسّندرو ـ وهو متقاعد مبكراً (الجميع هنا تقريباً إما عاطلون عن العمل أو متقاعدون مبكرون) ـ يأخذه بسيارته مرة في الأسبوع إلى تالاّ في الوادي، وأحياناً إلى سان جوستينو، ونادراً إلى أريتزو. وقال إنه سابقاً كان يطلب إرسال أدويته إليه من ألمانيا، غير أن الوضع أخذ يتحسن في السنوات الأخيرة. وسلينا ما زالت تلح عليه للتخلي عن منزله في توسكانا والانتقال إلى ألمانيا مجدداً.

بعد أن أمضى پترارکا معظم حياته منذ السابعة من عمره في منطقة پروفانس في فرنسا عاد وهو في الخمسين إلى موطنه، ولكن ليس إلى أريتزو أو فلورنسا؛ بل إلى مكان قريب من بادوڤا، وتابع: «يصعب علي تصور حياة في شقة من وحدة سكنية في كولن أو دوسلدورف، ولكن مَن يدري أو يتصور ما يحتمل أن يأتي به التقدم في العمر من تغييرات وأمراض؟». وانتبه شتيفان إلى أن هاينريش عندما يتحدث عن كتّابه المفضلين يستعيد شبابه فجأة ويصبح أكثر لطفاً، وكان أحياناً يمرر سبابته على ذقنه ويكاد يبتسم. قال إنه سيبلغ الخامسة والسبعين قريباً، وما زال يصعد الدرج من دون معاناة، إنه لا يملك سوى أشياء قليلة، وبوسعه السكن في مسكن صغير، وبإمكانه إن كان ذلك ضرورياً، الاستغناء عن كثير من كتبه.

قال شتيفان إنه حالما يعود إلى زالتسبورغ سيبحث عن بعض أعمال پترارکا، وسأله عما ينصحه بقراءته، فهو تقريباً لا يعرفه. ثم فكر: كي أتمكن من فتح حديث مع زايفرت اشتريت في الشتاء ثلاث طبعات غالية لهوراس وڤرجيل ولوقريط، وها هو يتحدث الآن عن پترارکا. فأجابه هاينريش إنه قرر فجأة قبل خمس أو ست سنوات أن يسافر إلى أڤينيون كي يزور المنزل الذي أقام فيه پترارکا في ڤوكْلوز. اشترى خارطة طريق، وعندما رأى فيها أن هناك

طريقاً عاماً يمر بالقرب من المكان الصغير المقصود على نهر زورغ تخلى عن فكرة السفر إلى فرنسا، وتابع قائلاً: «اقرأ مختارات من «ديوان الأغاني» والرسائل.

حسب معرفتي ليس في الألمانية الآن سوى مختارات موجزة جداً... ورسائله جميعها ـ الموجهة غالباً إلى أصدقاء ـ مختلقة، بما فيها الرسالة الشهيرة حول التجوال في قمم جبل ڤينتو، إذ إنه كتب هذه الرسالة – التقرير بعد خمس عشرة سنة من تاريخها... ماذا تعمل؟ هل تجد وقتاً للكتابة؟ هل يرى المرء الأوتوستراد من مورا؟». فأجاب شتيفان إنه مساء أو ليلاً عندما يقف على المنحدر الجنوبي فوق المدرجات البرية يرى على مسافة بعيدة في منطقة لاترينا أنوار مصابيح السيارات، وهي تومض مثل دودة طويلة من الأضواء. وأنه لم يكتب حتى الآن سطراً واحداً، سوى بعض الملاحظات.

ثم قال إنه بعد قراءته رواية بلوَر – ليتون بات واثقاً من أنه سينجز أفضل منها، بيد أنه غير مرتبط بموعد محدد لتسليم المادة، فالناشر صديق لا يلح. وأنه ببساطة توهم بعد إنجاز الأعمال الضرورية الأولى في مورا أثناء الأسبوعين أو الثلاثة الأولى، أنه سيكون بمقدوره، على الأقل بعد الظهر، أن يتفرغ قليلاً للآلة الكاتبة. ولكن بما أنه لا يمتلك براداً،

فعليه كل يومين أن يذهب للتبضع، وهو مستمتع بذلك. بعد إنهاء المشتريات يوزع الأكياس في السيارة التي يوقفها دائماً في مكان ظليل قرب الحديقة الصغيرة في سان جوستينو ويدخل المقهى ليشرب كأساً وينسى الزمن، ويقلّب صفحات الجريدة كي يحسّن معرفته بالإيطالية، وقال: «إن كل ما تخبرني به صديقتي – التي أفكر بالانفصال عنها، ولكن ليس مرة واحدة وبصورة باترة – عما يجري في الوطن، يبدو لي وكأنه قادم من الجانب الآخر من المحيط الأطلسي».

كما ذكر أنه قد فتش عن براد صغير، هناك برادات تعمل بغاز البروبان؛ لكن نقوده لم تعد كافيةن وهو يفكر حالياً بالبقاء في مورا حتى تشرين الأول (أكتوبر)، إن لم يصبح البرد قارساً. ولربما كان يشعر بسعادة أكبر من الكتابة وهو يقوم بالأعمال الصغيرة والكبيرة في مورا، وأضاف إن ما يؤثر فيه بالدرجة الأولى هو الإحساس المغاير تماماً بالزمن، إذ يبدو أن الزمن يمتد ويتباطأ، وهو لم يشعر سابقاً أبداً بلذة اللحظة كما هنا. في الوطن كان الزمن ينزلق متسرباً، وغالباً ما كان، عندما يحين دوره في المنزل، يطبخ طعاماً سريع الإنجاز – في حين أنه لا يبالي هنا فيما إذا استمرت عملية الطبخ والأكل لساعات، من دون أن يشعر بأنه يهدر الوقت.

ثم أخبره بأمر طريق الغابة الذي يهبط على الهضبة المجاورة لقرية جلّو؛ فقد شرح له ماريو روسّي أن الحكومة ستنصب هناك أعمدة كهرباء جديدة، وأن هذه الأعمدة ستمتد حالياً حتى منزل آل ماريني (القديمة تصل إلى جلّو فقط) وهذا يعني أنها ستكون على مسافة أقل من كيلومتر عن مورا، وتمديد التيار إلى مورا لن يكلف كثيراً. قال شتيفان إنه قادر على العيش في مورا من دون كهرباء ففانوس النفط ومصباح الجيب يكفيانه، وهو يخلد للنوم عندما يحل الظلام، ويستيقظ مبكراً.

قد يكون وجود براد أمراً مريحاً؛ ولكن بمجرد أن ينتهي من طلاء الحظيرة الباردة ويزودها بباب ملائم قابل للقفل فإنه سيخزن المأكولات هناك. الراديو يعمل بالبطاريات؛ أما التلفزيون فهو أهون ما يمكنه الاستغناء عنه، فطوال وجود والده معهم لم يكن هناك تلفزيون في المنزل، إذ كان يرفضه من حيث المبدأ. وإذا ما رغب شتيفان بمشاهدة سباق التزلج على الجليد، كان عليه الذهاب إلى الجيران.

«كنت في الثلاثين من عمري تقريباً عندما انتقلت للعيش عند صديقتي، وهناك بدأت التعايش مع جهاز تلفزيون». فأجابه هاينريش إن أول سؤال كان يسمعه عندما يأتيه زوار أو أصدقاء من أريتزو هو: ماذا في التلفزيون؟ لقد أحضر

معه جهازه القديم من ألمانيا، وعندما تعطل لم يشتر جهازاً جديداً؛ فالبرامج الإيطالية أسوأ من الألمانية بكثير، وعندما يرغب بمشاهدة برنامج ما يذهب إلى المقهى.

حالياً ليس لديه أصدقاء – عدا ألسّندرو الذي لا يعده صديقاً – سوى ألبرتو، وهو بمعنى ما زميل عمل البرفسور رئيس جمعية فرانشسكو پترارکا في أريتزو. وأضاف: «كنت سنوياً ألقي هناك محاضرة صغيرة، وأنا أكتب حالياً دراسة عن العلاقة بين پترارکا وكارل الرابع، انطلاقاً من محاضرة ألقيتها في أريتزو قبل خمس سنوات... ما أسرع ما تمضي السنين هنا!».

عندما ودعه شتيفان وعده هاينريش بزيارة مورا قريباً كي يلقي نظرة على الأشغال. وقال: «ألسندرو سيقودني، وآمل عندها ألا تكون في إحدى جولاتك». فأجاب شتيفان إنه يذهب للتبضع دائماً بعد الظهر، عند الرابعة والنصف تقريباً.

على طريق العودة توقف شتيفان عند نبع الماء الطيب، وفي أثناء ملئه صفيحته بخيط الماء الشحيح اقتربت سيارة (BMW) بلوحة أرقام فلورنسية، وكادت تلامس مانع الصدمات على سيارته السيمكا. كان السائق ذو الخامسة والعشرين يرتدي سترة جلدية سوداء ويحمل حبلاً ربط

به اثنتي عشرة زجاجة فارغة، صفها جانب النبع، أشعل سيكارة وصار يمشي جيئة وذهاباً نافد الصبر وينظر إلى ساعته. عندما حياه شتيفان قائلاً: «مساء الخير!» لم يجب.

تمشى شتيفان حاملاً حقيبة الظهر باتجاه كاستيليون فيبوكي منحدراً على الدرب الذي سيستغرق نحو ساعة تقريباً، هكذا خمن، وأطول من ذلك بقليل للعودة. وخطر بباله أنه لم يعد يفكر حالياً إلا بالأعمال التي لا مناص من إنجازها في مورا؛ أي بالأشغال اليومية وبالمشتريات. وتذكر حلم الليلة: قال له زميله شتاينر في غرفة المعلمين، إن مونيكا ترغب بالانفصال عنه. غريب فهي لم تخطر بباله أبداً طوال أيام، كان بوده أن يصادف أحداً ما على الطريق كي يتبادل معه الحديث قليلاً، فقد لفتت نظره هنا في المنطقة الصراحة والرغبة في الحديث. لم يصادف على طريق البضائع سوى ناقلتين أثارتا الغبار وراءهما، وقد لفت نظره كثير من الحجارة ذات الأشكال الجميلة والملساء مرمية على الطريق لتدوسها السيارات. قرر أن يحتفظ ببعضها على طريق العودة وحاول أن يلحظ أماكنها.

عند أحد المنعطفات حول أحد تفرعات الجبل أطل على سهل ڤالدرانو، وكانت فيبوكي هناك في الأسفل على طرف

الهضبةن وكان برج الكنيسة وبرج دار المحافظة ينتصبان عالياً. حول البلدة التي تعود إلى القرون الوسطى كانت هناك سلسلة من تجمعات المنازل الجديدة المكونة من شقق على جانبي شوارع عريضة حديثة، ويبدو أن البناء ما زال مستمراً. سكانها بصورة رئيسية مدينيون من أريتزو، وحتى من فلورنسا، اشتروا لأنفسهم هنا مسكناً ثانياً ليبتعدوا عن ضجيج المدينة وهوائها الملوث، على الأقل في عطلة نهاية الأسبوع، هكذا سمع في جِلّو.

ثمة آخرون يركبون يوم الأحد سياراتهم أو دراجاتهم النارية ويسرعون صاعدين على طريق المعبر في قافلة طويلة، فكان هدير دراجاتهم يُسمع طوال فترة قبل الظهر. كان يمكن رؤيتهم من مكان على طريق الغابة في مورا حيث تقل كثافة الأشجار، فترى انعكاسات الشمس على صفيح السيارات الملونة. كان أحد سائقي الدرجات النارية أحياناً يرفع العجلة الأمامية عالياً متجاوزاً بسرعة عدداً من السيارات المتزاحمة في القافلة المتوجهة نحو لاكروتشينا، حيث منتزهه المفضل. وقد أخبره ماريو أن الناس كانوا يخيمون هناك تحت ظلال الأشجار وهم لا يرتدون سوى المايوهات، يقرؤون الجرائد، يستمعون إلى راديو السيارة، ويعودون في وقت متأخر بعد الظهر هابطين الطريق طوال ساعات، وهم يطلقون أصوات أبواق سيارتهم من دون توقف، إلى درجة أن ينسى واحدهم

يده على زر البوق وكأن ذلك سيؤمّن له قفزة نحو الأمام.

كان هو الزبون الوحيد مدة لا بأس بها في مقهى فيبوكي الواسع، وكان النادل يغسل الكؤوس وراء منضدة البار حين جلس شتيفان إلى طاولة قاتمة اللون في الجزء الخلفي من المقهى، وكان النور كافياً لقراءة الجريدة. كتب على وجه الفاتورة الآخر بعض الكلمات التي لا يعرفها. وفجأة دخلت مجموعة من الصبايا يرتدين زياً رياضياً موحداً باللونين الأحمر والأخضر، وأخذن يتصايحن ويتراكضن بنفاد صبر أمام منضدة البار، ويلوحن بأوراق العملة ويتدافعن على الأماكن.

كان الجو قائظاً في أثناء عودته، وثمة فراشة بلون أصفر قاتم كانت تطير أمامه، وتمنى شتيفان أن تقف لحظة، وما إن توقف ووضع كيس البطاطا الثقيل على الأرض حتى حطت الفراشة على مقدمة حذائه الأيمن وفردت جناحيها. وعندما اضطر للتحرك إلى جانب الطريق بسبب سيارة مقتربة طارت الفراشة. الأجنحة قادمة؛ هذا ما قرأه شتيفان في الشتاء الماضي في دفتر ملاحظات ليوناردو دافنشي. لم تكن الاختراعات التقنية والهندسة المعمارية الحديثة تؤثر فيه إلا على الورق بوصفها مشاريع.

أحسّ في الليل برجّة فسرها على أنها هزة أرضية خفيفة. وصباحاً كان ما يزال في الفراش عندما تذكر أنه في أثناء ذهابه في الليل إلى المطبخ ليشرب مستخدماً مصباح الجيب سقط نور المصباح مصادفة على الجدار، فرأى عدداً من الحشرات الصغيرة تنسحب بسرعة داخل الشقوق والحفر في الجدار. انتابه بعدها أرق استمر طويلاً، فكر في أثنائه بالخلود، بحياة البكتريا في الجسم البشري التي تملأ حتى الجثث بنوع من الحياة مدة معينة من الزمن، إلى أن تتحول بعد الاندثار إلى عضويات أخرى، إلى دود وجذور... ما أرقّ جلد الحياة البشرية: إذا أصيبت مواضع معينة من الجسم بخدش عميق؛ قد ينزف الإنسان حتى الموت، إن لم يكن إسعافه ممكناً. وإذا سددنا أنف إنسان ما وفمه فإنه يختنق خلال فترة قصيرة، ومن دون سوائل لا يعيش الإنسان إلا أياماً معدودة.

سمع فجأة أحدهم ينادي خارج الدار، قفز وفتح نافذة الغرفة الأمامية. كان هناك رجل سبعيني لوحت الشمس وجهه واقفاً أمام الدرج الحجري يحمل بيده الأولى سكين أدغال وبيده الثانية منجل ومذراة، وتذكر أنه بيبه. كان قد طلب من ماريو مؤخراً أن يرسل إليه عاملاً مياوماً كي يزيل جدار الشوكيات الذي يسد الطريق إلى الحظيرة الكبيرة من الجهة الجنوبية، والشجيرات الشوكية كذلك على أطراف

المرج وعلى المدرج الأول بين أشجار الزيتون. كان لا بد من اقتلاع هذه النباتات من جذورها. فتح الباب وحيا پيپه ثم ارتدى ثيابه بسرعة وأراه الأرض. كان پيپه يتحدث لهجة مغرقة في محليتها؛ بحيث يصعب على شتيفان فهمه أحياناً. تناول من الورشة المحشة التي اشتراها في تالاّ، كان مكتوباً على نصلها صناعة النمسا، وقد أعجب بها پيپه. قال له شتيفان إنه قد استأصل شجيرات العليق التي كانت في المرج وهو يريد أن يحش المرج بنفسه. وعندما قام بحركتين بآلة الجز ليجربها، أخذها منه پيپه وأراه كيف يجب أن يقف، وكيف يجب أن يكون قوس حركة النصل. وقال إنه جاء عدداً من المرات إلى مورا عندما كانت مسكونة قبل سنوات طويلة، كانت تعيش هنا فتاتان جميلتان.

ولأن هناك إنساناً آخر اليوم تجرأ شتيفان على تسلق سطح الدار لينظف القرميد من الفطور والرمل، وليعيد ما حركته الريح إلى مكانه الصحيح، وليحصي قبل كل شيء عدد الألواح المعطوبة. تحت إحدى القرميدات التي كانت تفوح منها رائحة طحالب سمع أزيز أجنحة زنبور. كان هناك صقر يحوّم في الجو فوق الهضبة الشرقية، ويبدو أحياناً كأنه قد توقف عن الحركة. وعندما كان يطبخ ظهراً سأل پيپه ما إذا كان يرغب بالدخول إلى الغرفة الأمامية، حيث نصب طاولة قابلة للطي؛ فأجابه بأنه يفضل تناول الطعام في

الخارج، ثم وضع ثلاث قرميدات فوق بعضها في ظل الجدار، جلس عليها وأخرج زوادته من الحقيبة الجلدية.

بعد أن تناول شتيفان طعامه خرج وجلس على الأرض، وبيده كأس نبيذ وإلى جانب پيپه الذي سأله عن الأوضاع السياسية في النمسا. في جميع مناطق توسكانا يهيمن الشيوعيون على الحكم، باستثناء مدينة لوكا حيث يسود المحافظون، وهذا ناتج عن التبعية للنظام الإقطاعي منذ مئات السنين، لم يفهم شتيفان ما إذا كان پيپه يقصد بتعبير المحافظين الاشتراكيين أيضاً؛ فقد قال إن ماريو محافظ، في حين أن زوج أخته ڤيتوريو شيوعي عتيق مستقيم.

عندما فرغ كأس شتيفان صب له پيپه من نبيذه الذي كان مذاقه أفضل بكثير، وقال إنه لا يخلط عنبه مع عنب الفلاحين الآخرين، كما يفعل معظمهم، وهو يعصر نبيذه بنفسه مع أخيه. لقد اشتغل طوال عمره عاملاً مياوماً، مثل أخيه الذي ما زال عازباً أيضاً، وقد اقتصدا إلى أن تمكنا قبل خمس سنوات من شراء دار عتيقة مع قطعة أرض تبلغ مساحتها ثمانية هكتارات في السهل قرب كامپوجالّي، وأضاف: «لم أعد أقوم إلا نادراً بمثل هذه الأعمال، كما عندك اليوم؛ فعمودي الفقري لم يعد يساعدني».

ليست لديه مطالب كبيرة في الحياة، لكن النبيذ يجب

أن يكون جيداً، وكذلك زيت الزيتون والخوخ وجبنة الغنم، أما تلك التي تشترى من المتجر فليس لها مذاق. ناوله قطع تفاح صغيرة مجففة، علكها شتيفان وتركها تذوب في فمه حيث انتشرت النكهة اللذيذة. وعندما سأله پيپه أيضاً فيما إذا كان يشعر بالخوف وهو وحيد هنا ليلاً ضحك. وسأله عما إذا كان متزوجاً؛ فالعيش وحيداً غير مريح، وهو لم يكن قادراً في سنوات شبابه على التفكير بالزواج. أجابه شتيفان بأن النساء سيقرفن من الفئران والعناكب لذلك عليه أولاً إصلاح السطح والسقف والأرضية.

عند المساء تجمعت حول الدار رزم كبيرة من النباتات الشوكية التي ساعد پيپه بالمذراة على جرها إلى المرج أمام الدار، حيث شكلا منها كومتين هائلتين. ألقت شمس المساء أشعتها على الدار والساحة أمامه، فبدا كل شيء عارياً وواضحاً للعيان على نحو غير معتاد، وفكر أن بوسعه الآن التجول حافياً حول الدار. حتى التنور العتيق قد حرر من النباتات المتسلقة، ولم يترك پيپه إلى جانبه سوى شجرة الغار. وأخبره پيپه أنه رأى أفعى في مستودع الحطب الجانبي للتنور، وقد تكون من نوع ڤيپرا، فعليه أن يكون حذراً. وبما أن الدار قد باتت مأهولة فستنسحب الأفاعي قريباً إلى الجدران الحجرية للمدرجات لأنها تنفر من البشر. التنور في حالة جيدة؛ يمكن للمرء أن يحضّر فيه بيتزا أو لزانيا.

طلب شتيفان من پيپه أن ينشر غصن الزيتون الغليظ الممتد حتى نافذة غرفة النوم، مما يساعد جميع أنواع الحيوانات على التسلق إليها؛ (لكنه لم يخبره أنه كان يخشى تسلق البشر أيضاً أحياناً)، فجلب السلم الذي تركه ماريو هنا.

بعد أن وضع پيپه أغراضه على المقعد الخلفي للسيارة قال إنه سيمر في اليوم التالي باكراً، الساعة السادسة تقريباً؛ لكي يشعلا النار في الكومتين، وأن على شتيفان أن يحفر حفرة ويملأ عدة دلاء بالماء، فالأمر يجب أن يتم باكراً جداً عندما تكون الحشائش ندية، وإلا: بف! وأشار بيده دلالة على أن شرارة واحدة كافيه لاندلاع حريق.

بعد حين وجد في مصيدة الفئران في المطبخ عقرباً يحرك مقصه السليم بصورة آلية، كان شتيفان بسبب انحنائه ساعات طويلة على السطح محني الظهر ومنهكاً. جلس على الدرجة العليا وخلع حذاءه القماشي. كانت سنابل الشوفان البري قد تسللت إلى جواربه عبر ثقوب رباط الحذاء أو بين شقوق اللسان وصارت تخزه كالإبر، ولم يتمكن من نزع الخطافات إلا بعكس الاتجاه. مع حلول الظلام ينتهي النهار بالنسبة إليه كل مرة، وبما أن الشمس قد غابت مبكرة وراء الهضبة في الغرب بدأت العتمة، ولم تكن الساعة قد بلغت الثامنة والنصف بعد. وحالما تختفي الشمس وأشعتها يظهر كوكب الزهرة فوق سلسلة الهضاب. ب

بعد أن تعشّى جبنة غنم وسلامي مع خبز أبيض عاد للجلوس على الدرج وأنصت إلى أصوات الخنازير البرية الصغيرة، وهي تنخر بخفوت قادمة من الجهة التي لم يجز مرجها بعد. تسلل بضع خطوات وقلد نخيرها، وضحك عندما سمع جواب أحدها، ثم رأى الظهور المبقعة لأربعة أو خمسة منها وهي تزعق مهرولة. وعندها أدرك كم كان متهوراً؛ إذ حيثما تظهر صغار الخنازير، تكون الخنزيرة الأم على مسافة قريبة، ولطالما سمع هذا أكثر من مرة، ومن باب الحذر صفق بيديه عدة مرات.

لم تسنح له الفرصة في الصيف الماضي للتعرف على ڤيتوريو زوج أخت ماريو، والذي كان يأتي إلى جلو بعد ظهر كل أربعاء؛ ففي شهر آب (أغسطس) ذهب مع العائلة إلى البحر. كان شتيفان على وشك الانطلاق حاملاً صفيحة الماء عندما ظهر الاثنان في سيارة ڤيتوريو الفيات. سحبا أغصان أشجار الخوخ والتين وتفحصا الثمار. ثم أرادا التوجه إلى النبع متابعين مسار الخرطوم، وكان شتيفان مسروراً لكونهما سبقاه عبر المنطقة التي لوحت الشمس حشائشها العالية، وقال إنه سيبدأ غداً بطمر الخرطوم تحت التربة. كان عليهم طوال الطريق أن ينحنوا تحت أغصان منخفضة أو جذوع أشجار ساقطة.

مشوا مسافة الخمسين متراً الأخيرة في الغابة الباردة، ثم تسلقوا منحدراً صخرياً حتى بلغوا حوض النبع، حيث كانت الأرض منبسطة. كان ماريو في الشتاء قد وسّع الحوض الصخري وعمّقه ليتجمع فيه الماء الذي يسيل من الصخر. انحنى ماريو، وملأ كفيه بالماء وشرب، وكان الماء لذيذاً، فهو آت من الجبل، وعلى مسافة كيلومترات ليس هناك من يحتمل أن يلوثه، شرب شتيفان من هذا الماء في الصيف الماضي قبل أن يحذره زايفرت منه، ثم بات يستخدمه فقط للطبخ والغسيل.

كانت هناك على سطح الماء الصافي حشرات ذات أطراف طويلة ودقيقة كالشعر، قال ماريو إن هناك خزانات ماء مزودة بوصلة خاصة للخرطوم وأراه المكان الذي يمكن أن ينصبه فيه. فخزان بسعة مئتي ليتر سيوفر ضخاً جيداً في الخرطوم، وسأل ڤيتوريو عما إذا كان بمستطاعه الحصول على تخفيض ٣٠٪ بوصفه مشترياً لجمعية الكومونة.

التقى عند النبع الطيب بالعجوز أوغستو الذي جلس في الصيف الماضي إلى جانبه على المقعد أمام منزل ماريو وأمطره بالأسئلة. لم يختلف حوارهما الآن عن ذاك؛ متى وصل؟، هل يعيش وحده في مورا؟، وكم سيبقى؟. على الرغم

من أن المطر قد هطل في الأسبوع الماضي؛ لكن الماء كان شحيحاً في أنبوب النبع الحديدي. أراد أوغستو أن يعطيه دوره فأبعد زجاجاته ذات سعة اللترين جانباً؛ لكن شتيفان أكد له أنه ليس على عجلة، وقرفص على الأرض المعشوشبة. سأله أوغستو وهو يسعل ما إذا كان يحب هذا الماء أيضاً، ودعاه للصعود إلى داره ليتذوق نبيذه، وانتظر بصبر حتى فرغ شتيفان من ملء صفيحته. ساعده شتيفان في تثبيت حقيبة الظهر، وشمّ من سترته الطويلة رائحة صمغ وقش. شقا طريقهما صعداً على الدرب المرصوف بالحجارة، وندم شتيفان لأنه لم يترك صفيحته ذات الليترات العشرة في الأسفل بجانب الدرب. قال أوغستو باعتزاز إنه في آذار (مارس) قد بلغ السادسة والثمانين من عمره، وفي كل مرة كان يتوقف فيها العجوز ليستريح كان شتيفان يلتقط أنفاسه. للوهلة الأولى بدت الدار ذات الطابقين والأشبه بالقلعة معمارياً آيلة للسقوط، وقد كانت مثل مورا قائمة على منبسط صخري صغير ومحاطة بالمدرجات أعلاها وأسفلها، وكان هناك خم ملموء بالدواجن.

عندما دخلا الدار سمع صوت امرأة تزعق بصوت عال، كان على وشك أن يستدير ليغادر لأنه تذكر الحادث الذي وقع في السنة الفائتة، عندما لامس بسيارته السيمكا سيارة الفيات ٥٠٠ التي يملكها أنطونيو ابن أوغستو على

الدرب الضيق المؤدي إلى جلّو. كانت الفيات واقفة على يسار منعطف، بحيث لن تتمكن السيمكا من العبور من دون أن تنزلق العجلات في الخندق الجانبي. كانت نتيجة الملامسة خدوشاً بسيطة على الصفائح الجانبية المثقوبة من قبل. وبعد أيام من الحادث أخبره ماريو عن لسان رجل ثالث أن ناردو ماريني يهدد بحرق مورا.

أخبرتهما الفلاحة عن حظها العاثر؛ ففي أثناء غليها لعصير البندورة وصبها انفجرت زجاجتان، وأشارت في المطبخ المعتم نحو القدر المعلق فوق نار الموقد المتأججة بشدة. وضع أوغستو على الطاولة زجاجة نبيذ أحمر نحيلة وكأسين صغيرين، وانتقل فجأة للتحدث بلهجة عامية مريعة، فلم يعد شتيفان يفهم شيئاً. وكاد قلبه أن يسقط عندما دخل ناردو إلى المطبخ ببنطال أزرق اللون ذي صدارة وقبعة رمادية. لكنه ابتسم له ورجاه أن يبقى جالساً، وسأله عن الأوضاع في مورا. كررت زوجته حديثها عن حظها العاثر؛ فهدّأ من روعها ثم حك قفا رأسه من دون أن يخلع القبعة.

هز أوغستو رأسه عندما امتدح شتيفان النبيذ؛ لكنه لم يلحظ للأسف أن الكأس الصغير قد فرغ منذ مدة. أحس شتيفان بأنه لم يتذوق سابقاً نبيذاً بهذه الجودة، كان أوغستو ينادي ابنه ذا الستين سنة: يا بني. جلس ناردو الآن معهما

إلى الطاولة، وضغط زر جهاز راديو بالغ الصغر. ووضعت الفلاحة أمامه صحناً مملوءاً بحساء الخضار السميك. انتبه إلى كأس شتيفان الفارغ. وعندما رفع نخبه قال إن الطبيب يريد إرساله إلى تشانتسانو ترْمه لعلاج الكبد؛ لكنه لا يستطيع الغياب عن الدار هنا، فإن غاب أسبوعين ستدخل أغصان العليق من النوافذ. دخلت من عتبة المطبخ دجاجة يتبعها ستة فراخ صفراء. أخرج ناردو من درج الطاولة شوكة قنفذ بطول عشرين سنتمتراً وأراها لشتيفان قائلاً: «للطبيعة ذوق جميل، أليس كذلك؟»، وعندما نظر شتيفان ثانية إلى الفلاحة متسائلاً – إذ إنه لم يفهم ما قاله له أوغستو – قالت: «صحيح؛ فهو لم يعد يأكل إلا خبزاً ونبيذاً، وأحياناً حساء الذرة».

شعر بالارتياح لجو ما بعد الظهر في الغرفة الغربية الصغيرة، حيث نصب طاولة عمله بشكل مائل أمام النافذة. تتألف هذه الطاولة من لوح كبير من خشب الشربين مزين بأناقة جميلة، ويستند على مسندين خشبيين، وهذا اللوح الذي أحضره معه من الوطن على مشبك سطح السيارة هو في واقع الأمر أثمن قطعة أثاث في الدار.

عند الساعة الخامسة والنصف تقريباً سطعت الشمس بصورة أفقية عبر نافذة الغرفة، فأسبغت على جميع الأغراض الموضوعة على الطاولة لوناً ذهبياً، جلس غارقاً في

النور مدة نصف ساعة، وربما ثلاثة أرباع الساعة لا أكثر. كان هناك على الطاولة كتابان من الكتب التي أحضرها معه، ڤرجيل ومجلد «شذرات إبيقور»، إلى جانب «أحاديث توسكولوم» لشيشرون وقاموس وأقلام رصاص ودفتر ملاحظات، ورسالة من أخيه وجدها على الطاولة في منزل ماريو، وكانت مفتوحة. أكد فرانتس في رسالته مجيئه في النصف الثاني من آب (أغسطس). أخبرته لينا أن جانّي قد فتحها خطأً.

بعد أن تناول طعامه خبزاً وبندورة وجبنة غنم أخذ دفتر الملاحظات وجلس أمام الدار، أحس بالاستياء عندما أدرك أن الكتاب المخطط له ما زال نائياً جداً؛ لقد غاب عن ذهنه طوال أيام عديدة. فتش بالأمس حتى حلول الظلام عن ورقة المشتريات في جميع أنحاء الدار، ولاسيما في الأكياس البلاستيكية التي وضع فيها الخضار وعلقها على عارضة سقف المطبخ المنخفض، لكنه وجدها حسبما أمّل في السيارة، بين الكرسيين الأماميين على مقبض ناقل السرعة المطاطي شبه الكروي.

وبعد ظهر أمس عندما ذهب إلى السيارة من أجل التبضع خطرت بباله فكرة تتعلق برواية پومپي؛ فكتبها على الوجه الآخر من الورقة. أنزل زجاج نافذة السيارة وقرأ الملاحظة

عدة مرات (ڤينوس – ڤيرغو – هيپوليتوس)؛ لكنه لم يعد يتذكر سياق الفكرة التي بدأ تطويرها أمس عندما كان يصعد الدرب حاملاً كيساً مملوءاً بزجاجات ماء فارغة. ربة الحب بصفتها رمزاً لتقديس العفة؟ فات الوقت الآن بسبب الظلام لقراءة ثانية للمقالة الصحفية التي حفزته على خط الملاحظة على الورقة.

كان على طول الدرب يقص أغصان العليق التي نمت مجدداً باتجاه الدرب في تلك الأثناء؛ فكان يقص الأغصان اليمينية وهو صاعد واليسارية وهو نازل. ذكر له ماريو أن هناك عند أسفل الدرب من الناحية الجنوبية بعد المنحنى القاسي بقايا كرمة محترقة، كانت تثمر في بعض السنوات.

كان لون السماء عند المساء بنفسجياً، ومن مجلسه أمام الدار راقب في الغرب حركة كتلة سحب. كانت الشمس قد نزلت وراء الهضبة منذ نصف ساعة. وفجأة كالسحر أضاء المرج ثانية أمام الدار، فغرق العشب في نور دافئ، وبدا كأن جذوره تتلألأ بحيث يكاد يشتعل لهيباً. ما زالت الشمس ساطعة في جلّو العالية، وما زالت أشعتها تومض عند طريق الغابة بين قمتي الهضبتين؛ ولكن فجأة حل الغسق وكاد شتيفان أن يشعر بقشعريرة برد.

ثمة من يقترب على الدرب؛ كانت تسمع خطواته وأصوات

جذبه الأغصان ثم تركها ترتد. كان ماريو وقد جاء لاستعادة السلم. عندما كان شتيفان يدخل منزل ماريو كان هذا يضيّفه النبيذ فوراً، ولا يتوقف عن ملء قدحه حتى يسحب شتيفان القدح جانباً ويغادر، أما عندما يأتي ماريو إلى مورا، فقد كان يرفض أي نوع من الضيافة، سوى كأس ماء أحياناً، وفي هذه المرة أيضاً رفض تناول النبيذ. وقد لفت نظر شتيفان أن ماريو منذ أن ترمل لم يعد يتناول النبيذ في داره إلا لماماً، كما بدا أنه لم يعد يأبه لوجود نبيذ جيد في منزله.

قال إنه مضطر للعودة سريعاً؛ إذ عليه الذهاب مع جانّي إلى الخياطة في مونتفاركي، للقياس. فقريباً سيحضر البطرك إلى جلّو من أجل الاحتفال بسر التثبيت. عبّر عن إعجابه بأعمال التعشيب وتفحص المكان وكأن الوقت ما زال نهاراً وبوسعه أن يرى، وقال إنه ليس بوسع شتيفان أبداً أن يتصور مدى الجمال الذي حل بالمكان... وأعاد سرد قصة حريق مورا، فقبل ثلاثين سنة احترقت الكروم كلها وكثير من أشجار الزيتون والبلوط كذلك، أما الدار فقد نجت من الحريق، سوى بابي الحظيرتين اللذين التقطا النار، وآثار ذلك ما زالت ظاهرة عليهما حتى اليوم.

سأله شتيفان عما إذا كان العمال في مورا آنذاك قانعين بنصيبهم. فأجاب ماريو بأنه حتى الأطفال، وهو منهم

مثلاً، كان عليهم أن يعملوا، لكنهم كانوا يحبون الإقامة هنا. والده كان واحداً من عمال الزراعة الذين كانوا يصلحون في الشتاء الجدران الحجرية التي تدعم المدرجات. أما اليوم فلم يعد في طول المنطقة وعرضها من يستطيع تعمير جدار من الحجارة والصخور، ويصمد لعدة سنوات. كان كل خمسة من العمال ينامون في غرفة واحدة، ولم يكن هناك ماء للشرب في الدار، فكانوا يجلبونه بالبراميل على العربة من النبع فوق. وفي موسم الحصاد كانوا يعملون أيام الآحاد أيضاً، لكنهم في مورا كانوا يحتفلون كثيراً، وكان هناك كثير من الأعياد. نبيذ مورا كان شهيراً، وكذلك زيتها.

في عام ١٩٥٦ تقريباً هرب أول العمال الزراعيين من مورا، ثم تبعه آخرون. فسأله شتيفان عما إذا كان السبب هو ضرورة التخلي عن جزء من المحصول لصاحبة الأرض؟ فأجاب ماريو بأن العمال منذ ذلك الحين كانوا يعملون لحسابهم الخاص، فالسيدة كاسي كانت قد توفيت، والورثة لم يهتموا بأمر مورا. وعندما اندلع الحريق ودُمّر المحصول لم يعد لدى العمال رغبة بالبدء من جديد، فتفرقوا تدريجياً. بعضهم وجد عملاً في معمل الجلود في كاستيليون فيبوكي. النبيذ الجيد حالياً لا يقدر بثمن، وكذلك الزيت، وفي المدن عليك أن تدفع ثمن ماء الشرب غالياً... وفي رأيه قد يعود العمال الزراعيون ذات يوم إلى الأرض إذا كان العمل مجزياً.

فأجابه شتيفان بأنهم لن يكونوا مستعدين للنوم كل خمسة أو ستة منهم في غرفة واحدة. فقال ماريو إن المزارع الكبرى تمتلك مساكن خاصة للعمال الزراعيين، في حين أن مورا ليست أكثر من مزرعة صغيرة.

رافق ماريو حتى النبع، وليحضر أيضاً ماءً طازجاً لشاي الفطور. على الشارع في الأعلى كان ضوء النهار ما زال ساطعاً. توقف ماريو لحظة ونقل السلم إلى كتفه الأخرى. أخبره شتيفان أنه كان اليوم أيضاً على سطح الدار، وأن قرميد وملاط مدخنة الموقد قد تخلخل بحيث يمكن تحريكه وتفتيته بالأصابع، وأن بعض القرميدات قد سقطت على السطح فكسرت قرميدات أخرى. وسأله متى سيكون لديه وقت لتأمين قرميد جديد. ثم أخبره بأنه قد وضع وعاء كبيراً في المطبخ أسفل الموقد لجمع ماء المطر في حال هبت عاصفة. وقد وجد في الوعاء سحليتين، رغم أنه قد وضع على فتحة المدخنة في الأعلى شبكاً دقيقاً.

في هذا المساء أطال شتيفان البقاء في جلّو. كان مكان التقاء الشباب هو الساحة عند مدخل القرية. جلس أحدهم في سيارته الفاخرة، ألفا قديمة، وآخر في فيات – سبور، والراديو مفتوح، في حين تجمع الآخرون إما حول هذه أو تلك السيارة أو حول دراجة نارية صغيرة وهم يتبادلون الحديث

ويمازحون بعضهم بعضاً. مد الجالس في السيارة الفاخرة ساعده ونفض رماد سيكارته. وقف بجانبهم عجوز ذو سحنة رمادية وقبعة متسخة وفي فمه سيكارة، كان يسعل بين الحين والآخر. لم يأبه الشباب لوجوده.

أنهى شتيفان المكالمة الهاتفية وجلس إلى الطاولة في مطبخ ماريو. لم يكن هناك سوى لينا، تعد لزانيا جاهزة (على الطاولة كان هناك غلاف التجميد الفارغ). رأى في دعاية تلفزيونية مؤخراً شابة شقراء تقول إن اللزانيا الجاهزة ماركة راڤيولي لها نفس مذاق تلك التي تعدها جدتها في المنزل. أما شتيفان فإنه يفضل أن يبقى عدة أيام على الخبز وحده على أن يضع في فمه هذا الطعام الرديء. أكثرت لينا من عصير البندورة على اللزانيا قبل أن تضعها في الفرن، علماً بأن لديها وقتاً كافياً للطبخ، فالعطلة قد بدأت. كانت تشعر بالملل من التلفزيون، لكنها لم تفارقه.

جلس شتيفان نحو خمس دقائق (هكذا ظن) على مقعد منزل ماريو، وفجأة ظهر أمامه أنطونيو فيرتّي وجلس إلى جانبه باسترخاء كامل، فبدا لشتيفان مثل عملاق ممتلئ. كانت لحيته غير حليقة منذ عدة أيام. ما رائحته؟ لم يعرف شتيفان بما يحادثه، ولم يجد ما يقوله، ولكن كلما كان يعلن: «لا بد لي من الذهاب الآن، لأني تركت الباب والنافذة

مفتوحين». كان أنطونيو يبادره بسؤال جديد، ودعاه مرة ثانية لمرافقته بالسيارة الأسبوع القادم إلى لاڤِرّنا، إذ إن عليه ما يجب إنجازه هناك. فسأله شتيفان متى سيزوره برفقة كريستينا في مورا؟ وعندما نهض صاح أنطونيو وراءه أن بوسعه تأمين حطب بقطع صغيرة لموقده، وبسعر مناسب. شكره شتيفان وأضاف إنه لن يأتي إلى مورا شتاءً. نهض أنطونيو أيضاً وكان الظلام قد حل.

كان الزقاق المبلط بالحجارة والمنحدر بلطف باتجاه منزله مناراً بثلاثة أضواء فحسب، متباعدة عن بعضها ومعلقة بسلك رفيع إلى الكبل الممدود. بعض القطط الصغيرة كانت تتجول هنا وهناك، وفيما عداها بدا الجزء الأوسط من الزقاق مهجوراً، وحتى مجموعة منازل آلي فيرتّي لم تكن هناك أي نوافذ مضاءة. رافقه شتيفان حتى منزله، وهو الأخير والأكبر في الزقاق. لم يكن مصباح الجيب مع شتيفان، وكان نزول الدرب المغطى بالأعشاب الكثيفة عند نهاية القرية إلى الشارع محفوفاً بالخطر. وكان عليه أولاً المرور بجانب حظيرة الدواجن ذات الرائحة الكريهة ثم بجانب القفص الذي يعوي فيه الكلب طوال النهار. ندم لأنه لم يأخذ الدرب الآخر الذي يلتف حول القرية إلى الشارع أسفلها، وعندما وصل إلى النبع وغسل يديه ووجهه كان الكلب ما يزال يعوي.

أمام كنيسة سان فرانشسكو في أريتزو مباشرة خلع شاب جميع ملابسه، عدا السروال الداخلي الأزرق الفاتح وأخذ يغتسل بماء نافورة البركة. حقيبة ظهره المفتوحة ذات الشعار الإنكليزي كانت مستندة إلى جدار الكنيسة. عندما عبر شتيفان أمام البوابة رأى في الداخل سيدة عجوزاً راكعة في إحدى زوايا الاعتراف، من دون ستارة، وقد خلعت فردة صندلها، وأخذت تحك بقدمها بطة ساقها الأخرى، بطريقة توحي بالقلق.

قريباً ستفتح المحلات. وفي شارع ڤينيسيا شغل شاب في الرابعة عشرة الرصيف، وهو يُخرج من متجر المحركات آلات زراعية مطلية بلون أحمر فاقع، لينصبها على الرصيف، إضافة إلى عجلات ضخمة ومانع صدمات أمامي عال. سبع قطع نصب حتى الآن.

اليوم اكتشف شتيفان مكان مقهى كونستنتيني الذي يحوي في قسمه الخلفي طاولات رخامية. وجده قرب كنيسة سان فرانشسكو، وكان قد مر عدة مرات أمام مدخله ذي الدرجات الأربع (من دون لافتة) والأشبه بمكتب بريد عتيق. هناك جلس في عيد الفصح، السنة الماضية، بعد وصوله بالقطار في الصباح الباكر و تجوله لبعض الوقت في الشارع الرئيسي. كان متشوقاً بين فلورنسا وأريتزو الى شرب فنجان

قهوة في مطعم المحطة، وكان أمامه ساعة ونصف حتى انطلاق القطار إلى راسّينا، حيث سيستقبله زايفرت. وكما في السنة الماضية ترجل من القطار معه حشد من النمساويين الآخرين الذين شغلوا معظم الطاولات والكراسي في المطعم الصغير، فاستدار على عقبيه ومشى باتجاه المدينة. كانت المتاجر والمقاهي ما زالت مغلقة، وثمة نسمة باردة في الجو، وبمحض المصادفة اكتشف مقهى كونستنتيني في منتصف الطريق الصاعد نحو الكتدرائية.

أمضى نصف الساعة، حتى فتح أبوابه، في الحديقة الواقعة وراء الكتدرائية، في أعلى نقطة من هضبة أريتزو، جلس على السور الشرقي ومد بصره باتجاه الأفق ليرى الشمس الشاحبة فوق سلسلة هضاب كاسنتينو ذات القمم المسطحة. لم يكن هناك في الحديقة في هذه الساعة المبكرة من الصباح سوى امرأة عجوز تجمع أكواز الصنوبر في كيس بلاستيكي – للحرق قالت له – وعامل تنظيفات.

كان المقهى الكبير الآن ذو الأثاث البالغ الأناقة يعج بحركة حيوية، وكان جميع الزبائن يرتدون البدلات والكرافتات، مما أشعره بالخجل بسرواله الجينز وقميصه الفانلاّ. وكان الزبائن يدفعون على الصندوق ويقدمون إيصالاتهم إلى السيدة الواقفة وراء قترينة المعجنات وشرائح لحم

الخنزير، وإلى السيد المنهمك جداً وراء آلات القهوة. وبما أنه لم يكن ماهراً بالتدافع فقد مضى بعض الوقت حتى لّبي طلبه ووصلت الصينية إلى طاولته.

وفي هذه المرة أيضاً كان بيت پتراركا مغلقاً؛ فواسى نفسه بملاحظة هاينريش بأن هذا البناء الذي أطلق عليه سكان أريتزو هذه التسمية قد بني في القرن السابع عشر، وأن معظمه قد دمر في الحرب العالمية الثانية. وأعجب في متحف المدينة الصغير بلوحة الفنان پارّي دي سپينلّو «سيدة الرحمة»، أحس فيها بإيحاء يكاد يكون إيروسياً.

اعتاد أن يجلس في شرفة المقهى الحديث كي يشرب قدح غرانّا، ولم يجد تفسيراً لحبه الجلوس في هذا المكان المرة تلو الأخرى. حتماً لم تكن أجمل الأشياء الإطلالة على الساحة حيث يهرع الناس في مختلف الاتجاهات، وحيث تعبر سيارات نقل البضائع وتتوقف، وحيث تصخب الدراجات النارية، ولا واجهات المخازن التجارية البشعة التي تتشابه في جميع أنحاء العالم. لماذا يشعر بنفسه غريباً في وطنه زالتسبورغ أكثر من هنا؟ لا بد أن الأمر يتعلق بالاعتراف المتبادل بالآخر بين البشر هنا. إذا استدار على كرسيه البلاستيكي بعكس الاتجاه فسيقع بصره على الدرجات الحجرية لمدخل المقهى، حيث علقت بعض اللافتات النحاسية، معظمها لعيادات طبية ونفسية وللتنويم المغناطيسي.

في طريقه إلى موقف السيارات ألقى نظرة على قاعة المحطة حيث كانت تعرض في واجهة كشك الصحف كتب جيب من دور نشر أيناودي وأدلفي ومونادوري، وكان قد اشترى بعضها. لو أنه قرأها بالألمانية سابقاً لسهلت عليه قراءتها بالإيطالية الآن، ولا سيما «حوار في صقلية» لفيتوريني. اصطدم في الساحة أمام المحطة بصبية كانت تجر بجانبها دراجتها ثم توقفت فجأة واستدارت. توقف والتفت نحوها وهو يفكر بمن تذكره.

توقف مرة ثانية على الطريق إلى مورا في ريبّا دي كاراتا. دخل الحانة المتواضعة في الشارع الذي لا أرصفة له، وطلب أن يملؤوا له زجاجتين جلبهما معه بنبيذ أحمر. كان مذاق النبيذ كالتراب ونسبة الكحول فيه عاليه، وبحسب نصيحة فيتوريو يفضل أن يُشرب هذا النبيذ مساءً. صارت صاحبة الحانة تعرفه، فهذه هي المرة الثالثة التي يشتري منها نبيذاً. كان عليه على الأقل أن يطلب هنا فنجان قهوة مع قطعة معجنات، لكن نقوده لم تعد كافية. ملأت له الزجاجتين وهي تنوه إلى أن المكان ليس متجراً لبيع النبيذ، وأن النبيذ الذي يصنعه زوجها مخصص لزبائن الحانة فقط.

غمره شعور بالسعادة عندما بلغ درب البضائع المرصوف بالحجارة أسفل جلّو، والذي كان فيما مضى للعربات التي

تجرها الحمير. أنزل زجاج النافذتين وتنفس عميقاً، كان مذاق الهواء طيباً عندما توقف عند النبع وشرب وغسل وجهه. اقتربت سيارة ألفا، ولوحتها الرقيمة من مدينة بولونيا، وعلى منصبها العلوي عجلة قديمة وجانباها من سيارة نقل عتيقة، وأخذ السائق يضغط على بوق السيارة مراراً كي يتجاوزه، لكن شتيفان تابع طريقه حتى الموقف بجانب المقبرة، ترجل، حمل صفيحته وعاد عبر سحابة الغبار التي أثارتها عجلات الألفا وراءها.

عندما بلغ النبع وجد هناك سيارة لانسيا صغيرة متوقفة وسائقها يملأ زجاجة بسعة لترين. كان هذا ماوريتسيو، ابن ڤيتوريو، وكان ثملاً. وكعادة السكان في توسكانا عانق شتيفان قائلاً إنه يعاني مشاكل كبيرة بسبب النساء. فسأله شتيفان: «مع فرنشسكا؟» فأجاب: «أخ، الأمر مريع». سأله ثانية: «امرأة أخرى؟» فأجاب: «لا، وإنما اثنتان». هناك امرأتان مغرمتان به، ولم يعد يجد طريق الخلاص. وفرنشيسكا فسخت خطبتها، ووالده غاضب منه جداً.

تذكر شتيفان فرنشسكا: ذات مرة عندما كان جالساً على المقعد في ساحة جِلّو كان ماوريتسيو وجانّي يتمشيان حول الساحة، وفرنشسكا وراءهما على مسافة مترين طوال الوقت، وهي تحمل بيدها ربطة مفاتيح ماوريتسيو ذات

السلسلة الطويلة والتي كانت تحركها أمام وجهها بشكل دائري أو تلفها على سبابتها. قال ماوريتسيو إنه يفكر منذ بضعة شهور بالبحث عن عمل في ألمانيا، في فرع شركة إيطالية، مثل صديقه إبرهارد عازف آلة الأوبوا في فلورنسا الذي يعمل لدى شركة شرلاخبِرغ.

على الطريق إلى سيارته تذكر شتيفان الفتاة الصغيرة التي رآها من حديقة مقهى توماسِلّي قبل مجيئه إلى إيطاليا بيومين. كان جالساً على السور الحديدي يراقب الحركة في ساحة السوق القديمة. كانت الفتاة في الثانية أو الثالثة عشرة من عمرها، وكانت تجر الى جانبها دراجتها في الساحة، التفتت عفوياً نحو حديقة المقهى ونظرت إليه، وللحظة واحدة ابتسمت له بخجل، ففمره شعور بسعادة عارمة، وفكر بأنها في سن تلميذاته... كان بوده أن يرفع صوته وراءها بمقطع من «شباب هيبريون»: «انتبهي لنفسك أيتها الروح! إنك تنتمين إلى عالم آخر. لا تهتمي كثيراً بهذا، حتى يأتي زمنك..».

فكر بأن مستقبل هذه الفتاة ما زال مفتوحاً أمامها، وعلى خلاف أطفال وفتية كثيرين لم تكن حياتها المستقبلية كلها مرسومة في ملامح وجهها بصورة مسبقة. لقد لفت نظره أن كثيراً من النساء يُلبسن بناتهن ذوات الأربع سنوات ويسرحن

شعورهن ليبدو مظهرهن مثل سيدات صغيرات... لو تسنح له الفرصة للإشراف على مثل هذا الكائن وتشجيعه منذ الصف الأول... في بيت الشجرة الذي بناه له خاله خلال إحدى العطلات الصيفية في الحديقة، وكان في الخامسة عشرة، عثر لأول مرة على هذا النص لهولدرلين، قرأه في طبعة جيب قديمة جداً صادرة عن دار نشر بكلام، وحفظه عن ظهر قلب مع مقطعين آخرين. كان أحياناً قبل دروس الكمان مع خالته يهرب إلى بيت الشجرة. وفي الصيف عندما تكون أغصان شجرة الدردار مليئة بالأوراق يصعب رؤية ما إذا كان جالساً فوق أم لا.

عندما نزع باب الحظيرة من مكانه بسبب ارتخاء مفصلاته على الجدار الحجري دخلت في إبهامه شظية خشبية سميكة. ولم يعد لديه لاصق طبي في صندوق الأدوات. كان ينسى بصورة متكررة لبس قفازات العمل عندما يمسك بالمنشار أو المطرقة أو المنجل، كما كان بكفيه العاريين ينتزع أغصان العليق. صعد الدرب المؤدي إلى الشارع العلوي حاملاً بيده عصا رفيعة وطويلة، رفعها كالعلم أمام وجهه ليتفادى شبكات العنكبوت وليزيلها مع خيطانها من بين أشجار البلوط. قبل يومين اصطدم وجهه بشبكة عنكبوت، وشعر وهو يبعدها أن العنكبوت قد صار على رقبته، مما دفعه إلى خلع القميص بأقصى سرعة. وأحياناً لدى عودته من مشوار تبضع كان يجد في الأماكن نفسها شبكات عنكبوت جديدة.

بينما كان يتناول طعامه مساء أمام الدار سمع أصوات رجال قادمة من جهة الجدول، إضافة إلى أصوات تكسر أغصان. لم يكن قد حان الوقت بعد لجمع الفطر. وما كان عليه أن يحكي شيئاً عن الخنازير البرية أمام ماريو؛ لأن القرية كلها ستسمع بالقصة، فحتى الآن جاءه، مرتين، رجال يتنكبون بنادقهم وسألوه عن المكان الذي رأى فيه الخنازير، وأجابهم بأنه لم يرها وإنما سمع أصواتها فقط، وأشار باتجاه الجدول، كيلا يفتشوا في بستان الزيتون السفلي، وكيلا يسببوا صخباً في حقل الحبوب السفلي الذي صار برياً، وحيث وجد ثلاث حفر تحت أشجار الكستناء، لأن هذا سيعني حرمانه من الجلوس أمام الدار للاستمتاع بالمنظر الجميل. وكان رأي ماريو أن الصيادين لا يتقيدون بأوقات الصيد إن تعلق الأمر بخنازير برية. أحس بكلاب الصيد تغزو الدغل أسفل المرج، لكنه لم يرها، وتتابع طريقها عبر الحرج صعداً على الدرب باتجاه الشارع.

بعد مدة سمع أحدهم ينحدر على الممر، وكان ضوء النهار ما زال كافياً للتعرف على سلفاتوره وفتاة شقراء معه. كانا يبحثان عن توت بري، لكنهما لم يجدا حبات ناضجة. وسأل شتيفان عما إذا كان موافقاً على أن يُحطِّب مع صديق له أشجار المدرجين العلويين، سيكون هذا مفيداً لمورا، وهو لن يحطب سوى الأشجار اليافعة، ويستأصل في أثناء ذلك

الشجيرات الطفيلية. فكر شتيفان قليلاً وتصور مدى سرور هاينريش عندما يرى الإصلاحات أثناء زيارته القادمة، فوافق.

لو أنه خُيّر بانتقاء منزل في المنطقة - هكذا فكر - لفضّل على مورا دار سلفاتوره الأعلى من جلّو والتي تشبه القلعة، فهي تقع مثل هذه على مدرج واسع وسط بستان زيتون، ولا يمكن الصعود إليها من الدرب المرصوف بالحجارة إلا بسيارة جيب أو لاندروفر. واجهتها التي تطل على الجهة الغربية يمكن رؤيتها سواء من القرية أو من نبع الماء الطيب، ومنها تنحدر مدرجات أشجار الزيتون بحدة. عند سلفاتوره تبقى الشمس على الأقل ساعة أطول من مورا. حدثه ماريو بأن لسلفاتوره كل شهر على الأقل صديقة جديدة في داره، وكان ذلك في الصيف الماضي عندما صعدا معاً إلى دار سلفاتوره ولم يجداه. إنه يلتقي بالفتيات في ساحات السوق، وهن غالباً هاربات من منازلهن، فكن يساعدنه في تحضير مصاغ وحلي الموضة التي كان يبيعها في مختلف أسواق منطقة توسكانا وفي المناطق الحدودية. كما أخبره ماريو بأن الشرطة تفاجئه بزيارات أحياناً، بحثاً عن مخدرات؛ إذ يشاع أنه يبيع بالسر ماريهوانا وكوكائين. من القرية يرى المرء فوق دار سلفاتوره دارين صغيرتين أخريين: أولاهما مهجورة منذ سنوات، والثانية يسكنها ألماني ذو شعر طويل، يتحرك كشاب رغم أنه قد تجاوز السبعين من عمره، وهو لا يقابل أحداً قط.

قد تعجبه أيضاً دار آل بيندي لولا وقوعها على الشارع مباشرة خارج جلّو وبمسافة أبعد من منزل ماريو الحديث. أخبره ماريو أن هذه الدار ستعرض قريباً للبيع؛ لأن بياتا وجوفاني قد تجاوزا الثمانين، ولن يطول بهما الأمر، اثنان من أبنائهما يعيشان في ألمانيا، ولا يبديان أي اهتمام بأي شيء. ابنهما الأصغر فرانشسكو لديه منزل في فيبوكي مع ورشة تصليح سيارات ملحقة به. في السنة الماضية هبط جوڤاني العجوز بسيارته كاتربلّر الصغيرة الدرب إلى مورا، ووسّعه في بعض المواضع، ولا سيما عند المنحنى الضيق كشعرة، لكنه ألحق الضرر أثناء ذلك بجدران بعض المدرجات التي أخذت أحجارها تتساقط. ومن جانب المنحدر حيث أزال نباتات الوزّال ووسّع المكان ما يقارب نصف متر، أخذت الحجارة الصغيرة والكبيرة تتساقط على الدرب، وخاصة عندما يكون المطر شديداً. كان شتيفان كلما سافر إلى سان جوستينو يرى العجوزين وهما يجزان الأعشاب في مزرعتهما بآلة الجز والمنجل، وكان كلبهما الصغير ذو اللون الأبيض المتسخ معهما دائماً. وكان جوڤاني بيندي مسؤولاً تجاه بلدية المنطقة عن ترحيل القمامة وعن اجتثاث النباتات على طول الشارع.

في الصيف الماضي كان سلڤاتوره هو الذي أتى إلى طريق المعبر لجر سيارة السيمكا بسيارته الجيب حتى جلّو. كان

شتيفان حينذاك عائداً من تالاّ عندما ارتفعت حرارة المحرك، فأوقفها على جانب الطريق ورفع غطاء المحرك كي يبرد.

ينطلق أول قطار نحو بيروجا في الساعة الخامسة والنصف. تمهل في تناول الفطور، مما اضطره إلى تجاوز السرعة المسموح بها ليصل المحطة. وفي تمام السابعة والنصف كان قد وصل إلى المدينة القديمة المرتفعة في بيروجا. أراد أن ينسى بسرعة المنحنى الصاعد إليها والذي يمر بورشات بناء مريعة، الواحدة تلو الأخرى أو فوق الأخرى، حيث تشيّد أبنية إسمنتية ذات طوابق متعددة (طوابق سكنية أم مواقف سيارات عالية؟). عندما بلغ مقهى بارتولو في زقاق جانبي كانت صحائف المعجنات ما زالت ممتلئة بحيث يستطيع أن ينتقي ما يعجبه مع القهوة.

دخل عجوز بهندام أنيق يحمل بيده جريدة الجمهورية، بدا كأنه زبون محل. وخطرت ببال شتيفان فكرة أعجبته، أن يصير هنا عجوزاً، وأن يأتي كل صباح لتناول قهوته عند بارتولو. حضّر صاحب المقهى لنفسه كأساً من الشاي وأخذ يحتسيه على عتبة الغرفة الخلفية معطياً ظهره للصالة. وعندما ظهرت شابة تحمل دلواً ومكنسة وأخذت ترش البلاط بمادة معقمة لتنظيفه، دفع شتيفان حسابه بسرعة

وغادر. بدا له الناس في پيروجا أكثر وداً ومرحاً منهم في أريتزو. توقف عند كشك صحف وسأل الشاب عن الطريق نحو روكاپاولينا حيث المعرض الإتروسكي. خرج الشاب من كشكه الذي يشبه برميلاً هائلاً وشرح له كيفية الوصول، بطريقة بدا معها كأن أهم قضية على الإطلاق الآن هي وصول هذا الأجنبي إلى هدفه بسرعة.

في المعرض الوطني لمنطقة أومبريا انتابه شعور بالاشمئزاز من العدد الهائل من اللوحات المعروضة والتي تمثل غالبيتها صوراً للسيدة العذراء في وضعيات بالغة التكلف بالأسلوب البيروجي. لم يسبق له أبداً أن شعر بغربة الفن الديني عن غرضه كما هنا. وصل فجأة إلى صالة أصغر وأقل إنارة، وقبل أن يدخلها ويجد طريقه أحس بشيء خاص في المكان، وفعلاً كانت هناك لوحة پييروديلاّ فرانشسكا السيدة مع الطفل.

إلا أن الأكثر جمالاً كانت الإطلالة من الشرفة على ساحة إيطاليا والممتدة عبر السطوح القرميدية حتى سان دومنيكو وإلى أرض هضبية ذات انحناءات ناعمة. دخل قصر الأسلاف، وفي أعلى الدرج عند غرفة السجلات سأل الحارس: كم ستطول عمليات ترميم الكتدرائية المقابلة؟ فأجابه هذا بحذر وهو يحدق في عينيه. في البداية كانت عيناه سوداوان، لكنهما بتأثير تغير الإضاءة التمعتا بلون

كهرماني، ولم تكن نظراته ثابتة، وبدا الأمر لشتيفان وكأن الرجل يكشف له مغاليق روحه، ثمة حزن وانكسار يعودان إلى مئات السنين حركاه فجأة، وشعر شتيفان أنه يقف أمام آخر ممثلي سلالة ملكية زائلة.

كانت هناك ورقة بتعليمات رسمية جديدة ملصقة على صندوق البريد المعلق على جدار منزل فورتوناتا، أخت ماريو. لم يستطع فهم اللغة الرسمية؛ لكنه خمّن أن البريد لن يُجمع بعد الآن من جلّو بيسكاردو، وأن هناك عقوبة قدرها ١٠٠٠٠ ليرلمن يرمي رسالة في الصندوق. لم ير أحداً ليسأله؛ فغالبية النساء والرجال غادرت صباحاً باكراً إلى أعمالها في أريتزو أو كاستيليون فيبوكي، وباصات المدارس والحضانات مرت وأخذت الأطفال. إذن كان مشواره من دون جدوى.

لم يكن ماريو في منزله، كما لم ير أحداً من العجائز، عليه إذن أن يرمي رسالته إلى فرانتس بعد الظهر في سان جوستينو. على الرغم من فرحه بزيارة فرانتس، كان مزاجه يسوء كلما فكر بمخطط فيلم موتسارت: فهو لم يكتب شيئاً بعد عدا بعض الملاحظات. ندم على موافقته على الكتابة، وتصور أنها ستكون أسهل شتاءً مع وفرة المراجع عن موتسارت في مكتبة الجامعة. ثم أقنع نفسه ثانية بأنه لن يتمكن من

ذلك؛ لأنه في واقع الأمر لا يعرف شيئاً عن الموسيقا. يبدو أن فرانتس قد تصور أنه يكفي تزويد فقرات الفيلم بمقطوعات موسيقية توضيحية...

كان هناك في الساحة المنحدرة نحو خمس عشرة إلى عشرين قطة من قطط القرية تتجول بتراتبية واضحة، قبل شهور قطع داڤيده ذنب هر ذي لون بني ضارب للحمرة، ومنذ ذلك الحين صار هذا الهر يجلس بعيداً عن المجموعة؛ إذ لن تسمح له أي قطة بأن يقترب منها. ترى هل كانت بيانكا ونيرون بين القطط؟ كم كان بوده أن يستعيدهما إلى مورا. في الصيف الماضي عندما حكى عن الفئران الكثيرة في مورا، ألحت عليه فورتوناتا حتى أخذ القطتين. لم يكن في البداية راغباً بالأمر لأن عليه إعادتهما بعد بضعة أسابيع. كانتا صغيرتين ومدللتين، والسوداء كانت أكبر بأسابيع قليلة. وكم أحب مراقبتهما عند الغسق عندما كانتا تلعبان أمامه على المرج وتختبئان بين الحشائش، وتتمسحان بساقيه بالتناوب عندما يحين موعد إطعامهما. بعد بضعة أيام تعودتا على العيش في مورا وصارتا جزءاً منها، أما الفئران فإنها لم تشعر بأي إنزعاج من وجودهما.

ذات يوم من أيام الآحاد غادر الدار في الرابعة صباحاً للمشاركة برحلة بالباص إلى أسيسي. كان صاحب الدعوة

عمدة كاستيليون فيبوكي التي تتبع قرية جلّو أبرشيتها، فقد كان هناك انتخاب، كما طلب منه ماريو وآل فيرتّي أن يسافر معهم، فالباص حتماً لن يمتلئ. بعد أن مشى مئات الأمتار على الدرب ليلاً باتجاه القرية لاحظ أن نيرون يتبعه، فحاول عدة مرات أن يدفعه بالاتجاه الآخر، لكنه لحق به حتى جلّو، ولم يعد الوقت كافياً لحمله إلى مورا وحبسه هناك. تمنى أن يجده مساءً في القرية عندما يعودون. كان العمدة شاباً في الخامسة والثلاثين، ودعاهم إضافة إلى ذلك إلى تناول طعام العشاء على بحيرة تراسيمنتو. فلم يغادروا الباص إلا بعد منتصف الليل بعد رحلة استمرت أكثر من خمس عشرة ساعة، أوصلتهم إلى جميع الأماكن عدا أسيسي، وكانوا منهكين.

(بعد تناول الفطور في مقهى في سان سيبولكرو سافرا عبر الجبال إلى أوربينو، وزاروا على الطريق إلى أنكونا مغارة جليدية شهيرة، واستراحوا لفترة طويلة ظهراً في فولينيو قرب أسيسي. لكنه لاحظ بعدئذ أن الأرقام على لافتات الطريق قد أخذت تتناقص باتجاه روما، فمروا بسبوليتو وتيرني مبتعدين أكثر فأكثر عن أسيسي، ثم توقفوا نحو الساعة الخامسة لساعتين تقريباً في ڤيتربو، حيث اعتذر العمدة منهم تاركاً إياهم مدة ساعة في موقف سيارات لا ظلال فيه. ونحو الساعة الثامنة وصلوا إلى كاستيليونه على

بحيرة تراسيمنتو، فعوضهم جو المساء على البحيرة عن الجولة التي بدت بلا نهاية. وسمع من الناس في الباص أن خطيبة العمدة، ابنة روكّو بيدونِه صاحب شركة الباصات في كاستيليون فيبوكي، تعمل في هذا المطعم على البحيرة).

عندما وصل إلى مورا اقتربت منه بيانكا وهو تموء بصوت كالزعيق، واندست في العتمة بين قدميه حتى خشي أن يدوسها. وحتى عندما حملها وضغطها على صدره بقيت تموء بألم. فتح لها علبة سردين ووضع فمها في الصحن لتأكل، لكنها لم تأبه بالطعام وبقيت متكورة في حضنه. كان متعباً حتى الإنهاك؛ لكنه جلس على درجات الدار وأخذ يربت عليها ويكلمها مهدئاً إلى أن أخذ جسمها تدريجياً يتوقف عن الارتعاش والارتجاف، وكان واضحاً له أنه سيتركها لهذه الليلة داخل الدار. فحتى الآن كان يجدهما صباحاً في الحظيرة الكبيرة غالباً نائمتين على صندوق، وهما متشابكتان.

حتى هناك في هذه البقعة النائية كان الفضاء أحياناً يضج بانفجارات. (هل الانفجار هو العلامة المميزة لهذا القرن؟)، كانت تسمع أصوات طائرات، كما كانت ترى في الجو، وأحياناً كانت تسمع الطائرات النفاثة العسكرية عندما تعبر في طيران منخفض فوق الهضبة قادمة من طريق المعبر

فوق سيارات الركاب والشاحنات والدراجات النارية. ومن جلّو كانت تصل أصوات المناشر الآلية والتركتورات. كان الجميع يؤذون الجميع فيقبلون بالتالي وباء الضجيج، علماً بأن معظمهم لم يشعر به كوباء.

قرأ شتيفان في جريدة برلينية، وجدها على كرسي مغلف بجلد صناعي أحمر في مقهى لورو تشوفينو وأخذها معه، عن جنة الإجازات في توسكانا، فقد حولت قرية عتيقة قرب فلورنسا إلى مستوطنة شقق سكنية متاحة للبيع لأي كان. وهي مزودة بملاعب تنس ومسبح وخيول للركوب وسوبر ماركت، وبوابتها التي تغلق آلياً لا تفتح إلا ببطاقة ممغنطة من أجل توفير الهدوء والأمن لسكان المستوطنة.

على المرج قرب الدرج الحجري حاول النمل دفع صرصار حقل ميت داخل فتحة جبلهم. لدغته ذبابة دواب، فضربها ووضعها على فتحة جبل النمل، فأحاط بها النمل بحمية (هل كانوا يتشممونها؟)، ولكنهم تركوها في مكانها حتى توقفت عن الحركة تماماً، ثم دفعوها وسحبوها إلى داخل ممرهم التحتي على الرغم من أن الفتحة كانت ضيقة جداً.

لم يكن ماريو في منزله، وكان شتيفان متعباً جداً وغير

قادر على المشي حتى مسكنه الحديث، فجلس على المقعد إلى جدار المنزل المطل على الساحة، وقد كان يجلس مدة قصيرة كل مساء في الصيف الماضي. على عتبة درج منزل آل زورزولو كانت هناك فتاة تنفض غطاء طاولة، ماذا كان اسمها؟ لورِتّا. حيّته وسألته إنْ كان ينتظر ماريو، و يرغب بشرب فنجان قهوة عندها، فعليه بالصعود إليها.

كان يعرف أنها تسكن في البناء الضيق المعمر على جدار الكنيسة الخارجي فوق في ساحة الكنيسة، وأن إنزو وهو في الثانية عشرة صديق جانّي هو ابنها، وأن زوجها مسجون في سجن فلورنسا لأنه قام بأعمال احتيال في البنك الذي يعمل فيه. أخبره ماريو أن زوجها توماسو كان يمتلك سيارة (BMW)، وقد صادروها منه، ويشاع أنه خسر مبلغاً كبيراً في الكازينو، وزوجته تعيش من المعونة الاجتماعية. استقبلته لورتّا في غرفة الطعام الحارة قائلة إنها تهتم بأمور المنزل أحياناً، وأن والدها يلعب الورق عند آل باڤاروتي، وأن والدتها في منتجع أبانو ترمِه للاستشفاء.

وضعت جهاز الإسبرسو على موقد الغاز، حدثها عن أعماله في مورا وعن هاينريش زايفرت، وخلال ذلك كان يلتفت إلى الوراء. ينظر نحو منزل ماريو. سألته «هل أنت برفسور؟» فأجابها بأنه يعمل معلماً في مدرسة ثانوية، لكن

هذا في النمسا لا يعني أنه برفسور. تجرأ وسألها عن أحوال زوجها؛ بدت له فجأة جميلة جداً عندما وضعت أمامه السكرية ولملمت شعرها الطويل القاتم بمشبك كانت تمسكه بين أسنانها، ورمت لباس المطبخ جانباً. فقالت إن توماسو مسافر ولن يعود قبل أول آذار (مارس) من العام القادم، وهزت برأسها قائلة: يا لتعاسة حظي...!

عندها دخل إنزو متقافزاً، حياه بـ «مرحبا» سريعة، حاملاً بيده مضرب تنس من الألومينيوم، ولم يفهم شتيفان لماذا أخذ يصيح شاكياً؛ لكنه أخيراً فهم فإنزو يريد مضرباً مثل جانّي، ولورتّا تكرر قائلة إنه غال جداً وأن مضربه لا بأس به، وكفى! أشعلت التلفزيون ورفعت صوته، فقفز إنزو هابطاً الدرج وهو يلعن. قالت إن عليها الآن فوراً الصعود إلى بيتها لتبدأ الطبخ، وإن رغب بمشاهدة التلفزيون عندها مساءً، فأهلاً وسهلاً، ولكن ربما سيكون الطريق طويلاً مساءً. وأضافت إنها وحدها دائماً، وأن تربية إنزو تزداد صعوبة.

كان مدخل الحظيرة الصغيرة تحت المطبخ مسدوداً بشبكات عناكب كثيفة، فأزالها بعصا. أضاءت شمس قبل الظهر المكان بأرضيته الصخرية فبدا أقل وحشة مما بعد الظهر. رأى على إحدى دعامات السقف المنخفضة خفاشاً

معلقاً بخيط ويطرف بعينيه باستمرار. وعندما انحنى مقترباً منه تبين له أن الخيط هو ساقا الخفاش. بعد ساعة ألقى عليه نظرة ثانية فوجده في مكانه ويطرف كالسابق. هل هو مريض؟ ولما لوّح أمامه بغصن طار إلى دعامة أخرى في العمق، حيث رأى شتيفان جثة خفاش آخر – كيساً متعفناً من نسيج دقيق.

كان نازلاً على الدرج ظهراً، متوجهاً نحو مدخل السيارة، كي يصفّي ماء السباغيتي على الحشائش، عندما شم رائحة دخان، فقد كان في الخامسة والنصف صباحاً قد أحرق كومة من الأغصان الشوكية والأعشاب الجافة على مدرج محشوش في الجهة الجنوبية. وعلى الرغم من الماء الكثير الذي صبه فوق الرماد اشتعلت النار مجدداً في حر الظهيرة.

كلما كانت الأفعى تتشمس تحت نافذة المطبخ أو تتهادى على أرض الحظيرة الكبيرة بخشية أقل من المعتاد كانت تحدث في اليوم التالي عاصفة مطرية. سافر قبل الظهر نحو سان جوستينو للتبضع. لم يعرف كيف يميز عبوة الحليب الطازج الحقيقي من الأنواع الأخرى القابلة للحفظ وغير مستساغة الطعم، فقد كانت العبوات متنوعة، لكنها بدت له كلها متشابهة. وفي كل مرة كانت تأتي صاحبة المتجر لمساعدته في الأمر.

التقى في المقهى بماوريتسيو الذي بدا كمن يعاني آثار ما بعد الشراب، بعينين محمرتين ووجنتين غائرتين، وكانت تفوح منه رائحة كونياك، وبادره بأنه لا بد له أخيراً من أن يأتي لتناول الطعام عندهم؛ فوالده قد تحدث في الموضوع مراراً. والأفضل هو أن يأتي بسيارة ماريو لأن منزلهم يقع على طرف أريتزو ويصعب العثور عليه. وتابع قائلاً: هل سمعت أن دانييلا، أختي، قد خطبت؟ سأله شتيفان عن أنتونيلاّ، فأجاب بأن والدها يملك مسلخاً للحوم في كاستلفرانكو ولديه كرومه الخاصة، وأنهما سيتزوجان في الشتاء وهما يبحثان الآن عن المسكن المناسب.

عندما بلغ منتصف المسافة إلى جلّو على طريق العودة هطلت الزخات الأولى على زجاج السيارة الأمامي، ثم اشتد الهطل بحيث باتت السياقة من دون رؤية أمراً محفوفاً بالخطر. لكن المفرق إلى جلّو صار وراءه، ولم يتوقع الآن على هذا الطريق قدوم سيارات من الاتجاه المعاكس. وعندما وصل موقف السيارات كانت ما تزال تهطل بغزارة، فكان مجبراً على البقاء في السيارة بانتظار انتهاء العاصفة.

كانت مياه الأمطار تتدفق كالسيول منحدرة نحو الدرب، خلال الرحلة دخل الماء إلى السيارة من ثقوب أغطية العجلات الصدئة ومن لوح قعر السيارة. فجأة توقف المطر،

فمشى حافياً منحدراً على الدرب الناعم حاملاً أكياس مشترياته. كانت أوراق أشجار الزيتون التي تشبه الرماح تتلألأ. وعندما وصل الدار لاحظ أنه قد نسي الباب والنافذة مفتوحين. كانت أرضية الغرفة الشمالية غارقة، وهي فرصة طيبة لتنظيفها بالمسحة. وصلت مياه المطر حتى إلى المطبخ. رأى مصيدة الفئران في الزاوية جاهزة: كيف تمكن الفئران من سحب قطعة الجبن من السلك دون أن يطبق عليها؟

سطعت الشمس مجدداً، بإمكانه إذاً تحضير الطعام خارج الدار، طوى الطاولة كي ينساب الماء عنها، وعندما نزل الدرجات الحجرية تذكر أن النمل قد لفت انتباهه وهو يغادر الدار: رأى خطاً رفيعاً متصلاً، ممتداً من الأعلى، من السقف، ليدخل في شق جانبي من الدرج، وقد عبر الموكب في منتصف لوحة رقم الدار بجانب فتحة الباب، وهي قطعة خزف مركبة في الجدار، ومتآكلة.

توقف بعد الظهر عن طلاء النوافذ الجديدة، فقد أصابه بخار مادة اللاكر بشعور بالإقياء تبعه صداع. حاول أن يفهم النص المكتوب على العبوة وقرأ كلمة (پنتاكلور فينول)، فشعر بغضب شديد لأنه أخبر ماريو أنه يريد مادة لاكر طبيعي. جاء ماريو نازلاً الدرب، وكأن شتيفان قد طلبه. كان يلبس بنطالاً قصيراً ويحمل تحت إبطه جينزاً لبسه قبل أن

يتابع المشي. وكانت حرارة الجو قد ارتفعت مجدداً. أراه شتيفان النص المكتوب على العبوة قائلاً إنه يهديه العبوات الثلاث لأنه لا يرغب بمثل هذه البضاعة في مورا، فأكد ماريو أنه في المتجر في مونتفاركي، قد طلب النوع الذي أراده شتيفان واعتمد على ذلك، لكن يبدو أنهم فكروا في المتجر أن الاستخدام الخارجي لهذا النوع لن يكون خطيراً.

وعندما أراد ماريو الذهاب صار ينظر حوله باحثاً، فسأله شتيفان إن كان يريد عصا؛ إذ كان يعرف أن ماريو لا يحب الدرب المشمس وراء الدار الذي يؤدي إلى الغابة. وعندما أجاب ماريو بالموافقة صعد شتيفان الدرج إلى الدار، لكنه لم يجد العصا في مكانها وراء الباب، إذن لا بد أنه نسيها بالأمس في موقف السيارة في الأعلى ، عندما نزل الدرب حاملاً صفيحة الماء. قال ماريو إنه يفضل أخذ الدرب أسفل الشارع والذي ينحدر باتجاه الغابة على الطريق نحو كاستيليون فيبوكي، وأضاف: «إن صعب عليك استخدام السيارة ذات مرة، فيمكنك الذهاب للتبضع في فيبوكي مشياً. سيأخذ منك الطريق ساعة تقريباً».

وبعد أن انعطف حول زاوية الدار عاد ثانية وسأل شتيفان إن كان يعرف الڤيلا العتيقة المتداعية التي تبعد مسافة ثلاثة أرباع الساعة من هنا، ثمة درب أعلى من الشارع وبشكل

مواز له يؤدي إلى الڤيلا، ومن هناك يدخل الإنسان غابة أكبر تمتد مرتفعة حتى الذروة الجرداء لسلسلة الهضاب الشرقية. وإن كان يرغب بمرافقته حتى الڤيلا، فهي تستحق المشاهدة، ففيها قاعة كبيرة بنوافذ كما في معظم الكنائس. وافق شتيفان وهو يفكر بأن أرضيات غرف الدار ستجف أثناء ذلك.

عندما وصلا إلى الشارع العلوي تناول ماريو العصا التي كانت مستندة فعلاً إلى شجرة البلوط بجانب الدرب، وتقدم عبر الأحراج التي جفت مجدداً صاعداً باتجاه الشارع العتيق، الذي كان الناس قديماً يسلكونه مشياً أو بالعربات بين جلّو وكاستيليون فيبوكي ذهاباً وإياباً، وقد صار الشارع الآن مجرد درب ضيق؛ لكنه كان في بعض المواضع مصاناً بصورة جيدة، ومدعماً بالحجارة المرصوفة بدقة من جهة الوادي.

وحتى الڤيلا ذات المدخل المحاط بأشجار السرو على الجانبين كانت قد أحطيت مع مبانيها الإضافية بدغل من شجيرات البلوط والأعشاب الشوكية. وعندما اقتربا من الدرج العريض بلغ ارتفاع الأعشاب حتى الصدر. شق ماريو طريقه بالعصا، في حين مشى شتيفان على الأغصان الشوكية الثخينة التي داسها بقدميه. كانت الدرجة الثالثة

منحنية بشكل قوس، وفي المنحنى شاهد شتيفان قطعة من جلد أفعى، لكنه عندما أراد سحب قدمه الأخرى وراءه انتبه إلى أنها أفعى سوداء ضخمة وفي وضعية هجوم، فتراجع متعثراً ومرعوباً، فخدشه غصن شوكي على وجهه. تناول قطعة قرميد وقذفها نحو الدرج.

اضطر ماريو إلى إقناعه بأن يلحق به إلى داخل الڤيللا. كانت أرضيات الغرف مغطاة بالقرميد المكسور، أما القاعة ذات موقد النار الضخم فقد كانت بلا سقف، لكن المنظركان أخاذا عبر النوافذ المقوسة القوطية الطراز والتي ما زال في بعضها بقايا زجاج ملون. يطل المرء منها على وادي آرنو، على مرتفع إلى اليمين تقع لاترينا، وإلى اليسار سهل أريتزو، ورغم الغمامة كان يمكن التعرف على المدينة فوق الهضبة. وفكر شتيفان بأن هذه الڤيلا جديرة بأن يعاد ترميمها لتصبح قابلة للسكن، من أجل هذا المنظر فقط. رأى في إحدى زوايا القاعة مبصقة خزفية متآكلة. سأل ماريو عن مالك الڤيلا فأجابه بأن العيش فيها مستحيل من دون خدم يقومون يومياً بتعشيب الأرض واستئصال النباتات وحشّ المرج حولها.

عندما فتح نافذة الغرفة الكبيرة وثبتها اكتشف تحتها على الجدار فراشة يشبه جناحاها عيون ريش الطاوس،

وكانت تمسك بقدميها يرقة وكأنها فريسة، وبعد برهة أدرك شتيفان - بعد أن انحنى كثيراً - أن ما بقدميها هي الشرنقة التي خرجت منها. كان هناك رداء عتيق معلق على مسمار بجانب فتحة في الجدار حفرها ماريو في الشتاء، ولا شك أنه يعود لأحد العمال الذين كانوا يعيشون هنا قبل ثلاثين سنة. لم يستطع أن يحزم أمره لرمي الرداء أو لوضعه على الأقل في إحدى الحظائر. القاعة وهي أكبر غرف الدار ما زالت من دون باب، ومدخلها السابق من مطبخ الخدم سده ماريو بالقرميد.

عند الساعة الحادية عشرة مد جذعه عبر نافذة المطبخ ليرمي حبتي بندورة فاسدتين بين الأعشاب، فانسربت بين جدار الدار والممر المؤدي إلى التنور حية ذات لون أخضر قاتم، واختبأت بين الأعشاب الطفيلية التي نمت عند جدار الدار؛ انتابه الغضب لأنها أخافته، حمل بلاطة تستعمل مسنداً ورماها بها وكاد أن يصيبها، فهربت إلى داخل جدار الحظيرة التي يحتوي قسمها الخلفي المعتم على زجاجات مقششة ذات حجوم مختلفة وحاجيات عتيقة وقطع قرميد معطوبة، وهناك وجد طاولة مطبخ صار يستخدمها غالباً أمام الدار لتقشير الخضار وتقطيعها. وبعد نصف ساعة مد جذعه بهدوء من نافذة المطبخ ورأى الحية الثخينة التي لم يرها سابقاً، وكانت بطول متر تقريباً؛ قد أدلت نفسها من

شق في الجدار لتتشمس. وعندما مد جذعه أكثر انسحبت إلى داخل الشق. بينه وبين نفسه اعتذر لها عن محاولة القتل وتوقف عن مساءلتها عن حقها في العيش داخل الجدار.

كان يستمع من المذياع إلى المحطة المحلية التي تبث من سان جوڤاني ڤالدارنو؛ فهي البث الوحيد الخالي من التشويش، وكانت تذكره دائماً بمنشأة الطاقة قرب سان جوڤاني ذات المدخنة الإسمنتية الهائلة ودخانها الذي تذروه الريح فوق جبال كيانتي، والتي كان يراقبها دائماً عند المنحنى البالغ الضيق على الطريق المنحدر من جلّو باتجاه سان جوستينو. فعند هذه النقطة لا مفر من القيادة خطوة فخطوة، والمنظر منها مكشوف على ڤالدارنو حتى كيانتي. وكان كلما شاهد أسماء غريڤه، غايولِه، رادا، كاستِلينا مطبوعة يغمره السرور.

إذاعة سان جوڤاني: دعايات عدوانية على الطريقة الأمريكية، تتخللها إعلانات تبدو متفائلة بانقباض إضافة إلى صخب الأغاني الحديثة المعتاد، موضحة أن في سان جوڤاني هناك مسابح وستاد ومولات. جرب إذاعة إيطاليا (٣): تعليق سياسي بصدد انتخاب رئيس الدولة الجديد، وما كان ممكناً تحمل صيحة المذيع الحماسية المتكررة أمتنا العظيمة. برنامج جيد، موسيقا، قراءات من الأدب

الكلاسيكي، مسرحيات إذاعية، فضلاً عن إلى كثير من الهراء للأسف. قبل برنامج للمغنية كلارا هاسكل استعرض خبير معرفته باستفاضة لا نهاية لها، (وما كان يريد شتيفان سماعه هو أغاني شومان!) حاولت المعدّة أن تكبح جماح سيلانه (حسده شتيفان على سرعة نطقه للجمل)؛ لكنها انزلقت أيضاً إلى استعراض ما تعلمته، فكان كلاهما يمارس حب الظهور على الملأ وبلا حياء. كان هناك في التلفزيون النمساوي مذيعات أخبار يحركن رؤوسهن أثناء قراءتهن النص غير المرئي من جانب المشاهد، جيئةً وذهاباً وبشكل دائري ويهزونها إلى الأمام والخلف استجداء لانتباه المشاهد.

على الطريق إلى جلّو شاهد مجدداً كيسي قمامة بلاستيكيين أسودين مرميين على جانب الطريق المغبر. كثير من السائقين المحليين كانوا في أثناء عبورهم هذه المنطقة يتخلصون من قمامتهم من دون أن يتوقفوا؛ بل يفتحون الباب ويرمونها، وقد رأى شتيفان هذا المنظر بنفسه ذات مرة.

بعد أن انتهى من الهاتف في منزل ماريو ذكر الرقم الذي ظهر على العداد. كان جانّي يراقب الأرقام، ثم بحث عن الحاسبة وحسب ثم صاح: خمسة آلاف وثلاثمئة. دخل

ماريو حاملاً كيسي خضار من حديقته، ووضع لشتيفان بعض الكوسا والفليفلة. وللمرة الثانية نسي شتيفان مصباح الجيب في الدار. كانت الليلة بلا قمر، وعندما انحدر على الممر أخافه نخرٌ مهددٌ صادر عن خنزيرة برية، ربما كانت أماً حفرت لنفسها حوضاً، وملأته بالأوراق بجانب شجرة (الخنازير البرية تحب أشجار الكستناء)؛ هكذا فكر.

فكر بأن يسافر يوماً واحداً إلى أوربينو، كان قد راجع مؤخراً جدول الرحلات في المحطة وسجل المواعيد. فإن أخذ الباص من أريتزو في الساعة الخامسة وأربعين دقيقة فسيصل في التاسعة، ويبقى لديه متسع من الوقت حتى الثانية والنصف.

مساءً اقترب من الدار مجدداً رجال من جلّو، ولحسن حظه كان قد سمع كلامهم وهم ما زالوا على الشارع العلوي. نهض وارتدى ملابسه. إضافة إلى ماريو كانوا ثلاثة فتيان. أشعل الشمعة في الفانوس ووضعه على عتبة الدرج، كانوا يتحدثون عن امتحاناتهم التكميلية في أيلول (سبتمبر). كان سيرجو هو الوحيد الذي حصل على علامات ممتازة، وكان هذا بادياً عليه. أنجلو سيسافر مع عائلته إلى البحر الأسبوع القادم. قال سيرجو: هناك في ريميني كثير من الإسمنت...

ما زالت الشمس مرئية من الشارع العلوي، في حين أنها قد اختفت في مورا، وحتى هنا ستختفي بعد خمس دقائق. خطر بباله ناردو، اقترب من المنعطف الذي يتلوه المفرق الصاعد إلى مزرعتهم، وعندها سمع سيارتهم الفيات تنزل الدرب المرصوف بالحجارة بالسرعة الأولى. على المقعد أمام دارهم فوق ستسطع الشمس لنصف ساعة أخرى. إذا كانوا متوجهين نحو فيبوكي فإنه لن يلتقي بهم، لكنهم أتوا مواجهةً. توقفا «كيف الأحوال في مورا؟»، قالا إنهما مسافران إلى ابنتهما في بوليتشيانو، ولكن عليهما قبل ذلك المرور بسان جوستينو لأن جوڤانّا تريد أن تشتري قماشاً.

استدارت ما أمكنها ذلك نحو المقعد الخلفي حيث مدت يدها داخل كيس بلاستيكي، ثم ناوله ناردو ملء كفيه حبات كوسا صغيرة ذات زهور صفراء، قائلاً إنها حديثة القطاف. سألته جوڤانا إن كانت قد أخبرته كيف تحضّر الكوسا إن لم يكن لديها وقت كاف: تسلقها في الماء ثم تأكلها مع الملح وزيت الزيتون. قال له ناردو إن عليه أن يزورهم ثانية فهم جيران على كل حال. أجاب شتيفان بأن سيكون سعيداً إن زاراه في مورا تحت؛ لكنه لا يدري ماذا يمكنه أن يقدم لهما، فهما لا يشربان نبيذه. ضحك ناردو وقال إنهما سيأتيان، فجوڤانّا لم تر الدار أبداً، ثم حرك ناقل السرعة إلى الأمام ولوّح له بيده.

ولكن ما الذي جرى لفرانكو؟ ففي الصيف الماضي بعد امتحان البكالوريا كان فتى متيقظاً ومرحاً، كان نحيلاً بأنف غنمة. إنه الآن في إجازة بضعة أيام من الخدمة العسكرية التي يؤديها في بياتشنزا. لقد زاد وزنه على الأقل ١٠ كيلو، وبدا بليداً بشعره القصير وقسمات وجهه الحادة، وقد شعر شتيفان بالخجل لأنه لم يتعرف عليه مباشرة، عندما فتح له الباب. اعتذر فرانكو بأنه مشغول وصعد الدرج. كان موعد العشاء في الثامنة مساء؛ لكنه لم ير في المطبخ الواسع سوى بنيتا واقفة إلى طاولة الطعام في وسط المطبخ، وهي تقطع عجينة المعكرونة المرققة بـ(الشوبك)، وكانت على ما يبدو في مزاج سيء.

أبدى إعجابه مجدداً بالفرن العتيق الهائل الذي يمكن للمرء أن يشوي فيه عجلاً، ثم انتبه إلى الجدة النائمة في الخلف. وعندما سأل بنيتا عما إذا كان فرانكو مرتاحاً بالعسكرية، أجابت بدلاً عنها والدته، وقد دخلت حاملة بيدها باقة من الأعشاب، وقالت إن فرانكو معجب جداً بالحياة العسكرية، وأنه سينهي بعدها دورة لتخريج الضباط، يتطوع على أثرها في الجيش، على أن تكون إقامته إما في فلورنسا وإما في أريتزو. وضعت باقة الأعشاب في كأس ماء وأرسلتها إلى الطابق الثاني حيث تزورهم أخت أنطونيو. ثم سألته إن كان يعلم أن بنيتا ستتزوج في هذه السنة.

في الغرفة الكبرى عند أعلى الدرج والتي يدخلها المرء عبر بوابة ذات قوس كان الجو كئيباً كالعادة، ثمة لمبة على شكل إجاصة تنير منطقة مائدة الطعام الطويلة. وهناك فوق الطاولة هيكل رفوف فيه جهاز تلفزيون كبير. بدت ربة البيت متسلطة، في حين شعر بالارتياح فوراً لزوج أخت كريستينا الذي ينادونه ديدي.

باشره ديدي قائلاً: مساء الخير، شكراً، إنك تشرفنا ثانية، وقال بعد حين إن لديه شريط فيديو لفيلم عائلة تراب. جلس الى جانبه، طلب له كأساً وملأه له بالكونياك، ثم سأله: من أين أنت؟، ماذا تعمل؟، وهل صحيح أن الأمور قد تغيرت كثيراً في مورا تحت؟ وعندما صاح: «عليك أن تزورنا عندما تأتي إلى أريتزو»، التفتت نحوه زوجته في منتصف الجملة. ثم قال إنه معجب بسائق السيارات الرياضية نيكي لاودا وأنه يسجل سنوياً كل سباق على شريط فيديو، ويؤسفه أن لاودا لم يعد يشارك باسم فيراري في السباقات. كان هناك على جدران الغرفة صور فوتوغرافية بإطارات سوداء، بعضها علته الصفرة، لرجال متقدمين في السن وذوي نظرات صارمة. سأله ديدي إن كان سيشاهد سباق مونزا، عندها صاحت كريستينا من الطابق الأسفل: «إلى الطاولة، إلى الطاولة!».

جلس إلى جانب الجدة روزينا بعد أن سحبوا كرسيها إلى المائدة، كانت في غاية الصحو وأخبرت شتيفان للمرة الثالثة في هذا الصيف أنها كانت معلمة في ليڤانه طوال أربعين سنة (لفظت اسم ليڤانه وكأنها تذكر الجنة)، وأن لديها هناك بيتاً جميلاً لكنه فارغ للأسف منذ عشرين سنة، فقد انتقلت بعد التقاعد لتسكن عند ابنتها كريستينا في جلّو بيسكاردو، وقد ندمت على ذلك لاحقاً. وهي تفكر دائماً بمنزلها في ليڤانه الذي لا يهتم به أحد. ثم سألته إن كان يرغب برؤية الميدالية الذهبية التي حصلت عليها من الوزارة عندما أنهت خدمتها التعليمية؟

كان التلفزيون الأبيض والأسود يبث برنامج يانصيب لصالح الجوعى في أثيوبيا، ويعلن الأرقام للراغبين بالتبرع. غير فرانكو البرنامج؛ فظهر سباق دراجات تحت المطر، غيره ثانية، فظهرت كارثة طبيعية في ڤلتلين ورجال يحملون الرفوش غارقين فيما بدا أنه قطران. كان على المائدة معكرونة مع صلصة ولحم خنزير، ولحم خنزير بري مع خضار تشبه السبانخ وبطاطا مشوية. كان الخبز الأبيض لدى آل فيرتي بائتاً منذ يومين دائماً، إذ لا بد عندهم من أكل القديم قبل وضع الجديد على المائدة.

كان أنطونيو يقطع شرائح سميكة منه، وقال لديدي

الجالس إلى يمينه إن الخبز جزء من جميع وجباته. قطعت بتينا شرائح اللحم للجدة، فيما أراهم فرانكو آلة تصويره الجديدة وصور المجموعة كلها حول المائدة. قال شتيفان إنه سمع صباحاً باكراً بالأمس عواء كلاب وأصوات صيادين في الغابة، فشرح له أنطونيو أن الصيادين يجرون بروفه قبل موعد الصيد بأسبوعين، فيخرجون من دون أسلحة، مع الكلاب فقط كي تعتاد على عملية الصيد.

وفي الختام تناولوا مشروبات كحولية متنوعة إضافة إلى نوع من الكاتو الإنكليزي. اعتذر شتيفان عن شرب الإسبرسو كيلا يبقى يقظاً طوال الليل. أراه فرانكو غرفته المفروشة على الطريقة الإسبارطية: سيف طويل على الجدار فوق السرير، غيتار، منضدة صغيرة وفوقها رف للكتب عليه بعض كتب الجيب. أحنى رأسه كي يقرأ العناوين: موراڤيا، دانونتسيو، ولم يعرف الأسماء الأخرى. سأله شتيفان إن كان يعرف ڤاسكو پراتوليني، ولكن يبدو أن فرانكو لم يسمع بالاسم أبداً.

وعلى باب الخزانة علقت بدلته العسكرية على علاقة، كان لونها رمادياً ضارباً للزرقة وبأزرار ذهبية. لبس القبعة وغمز بعينه، فبدا لشتيفان غريباً مجدداً، وتذكر أنه في طفولته كان يخاف دائماً من أصحاب البدلات الرسمية. وعند

الوداع سأله ديدي إن كان قد صعد جبل پراتومانيو؛ إذ بوسع المرء الصعود بالسيارة إلى قرب القمة، وجدد دعوته قائلاً إن منزلهم يقع قرب مدخل أريتزو... قاطعته زوجته ودفعته أمام شتيفان إلى الخارج قائلة: هيا، هيا! رافق أنطونيو شتيفان إلى الزقاق وسأله إن كان بوسعه غداً مساعدته، إذ ستصله حمولة كبيرة من الحطب، قطع كبيرة، ولا بد من ترتيبها في المخزن، ففرانكو سيغادر باكراً.

على طريق العودة كان القمر بدراً تقريباً، فكان كل شيء مرئياً، إلا عندما تحجب سحابة عابرة القمر، وعندما مر قرب المقبرة رأى عبر الباب المشغول بعض الشموع فوق بعض القبور. وكانت هناك بعض النجوم في السماء، وتمكن من التعرف على تشكيلة البجعة. عند المنعطف قبل المفرق الصاعد إلى دار آل ماريني توقفت السيمكا، تناول من الصندوق كيساً بلاستيكياً فيه عبوات سباغيتي، وعند المنعطف الثاني أسفل مدرجات آل ماريني شم رائحة كريهة جداً، وفكر، ربما كان حماراً أو حيواناً دهسته سيارة.

تذكر مصدر حنينه إلى إيطاليا؛ كان في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره عندما كان يتردد على لقاءات الشبيبة الكاثوليكية، وكان المشرف يقرأ لهم غالباً من روايات مغامرات مثيرة. وفي الصيف كانت تسافر المجموعة

لتقيم مخيماً في إيطاليا، وعلى الرغم من أن رسم الاشتراك كان زهيداً، لم يكن لدى عائلته ما يكفي لتسديده. فاقتصرت مشاركته بعد الرحلة على مشاهدة ألبومات الصور وكذلك الصور المعروضة في قترينة كنيسة غنيغلر والتي تمثل لقطات لمطبخ المخيم وهرج الشاطئ إضافة إلى مشاوير في مدن قديمة مثل ترينت، أكويلا، ڤينيسيا وبلدات على قمم جبال وساحات عتيقة جميلة.

أمضى النهار يسبح في بحيرة تراسيمنتو، وعندما عاد حاملاً مشترياته وهبط الممر إلى الدار لاحظ أن سلڤاتوره أو شخصاً آخر قد قطع بعض الأشجار، ليس فقط أشجاراً يافعة، بل قطع شجرتي كستناء عتيقتين أسفل الشارع العلوي وبعض أشجار البلوط. وكانت آثار جر الجذوع بالسيارة واضحة على الدرب لا تخطئها العين. وحسبما رأى لم يقم أحد بأي عمليات تعشيب في أي جهة. لقد أراد اللعين قطع الأشجار فحسب، وبالمنشار الآلي ينقضي الأمر سريعاً. وفكر شتيفان بأنه كان مراقباً عندما غادر، ولا شك بأن سلڤاتوره قد رأى فيه إنساناً غبياً، ولا أحد يلومه على ذلك. وفوق ذلك على شتيفان الآن إزالة آثار العدوان، كيلا يلاحظها هاينريش أثناء زيارته الحتمية القادمة.

عندما جمع بياضات الفراش من الحبل وحملها إلى الدار جاء ماريو مع جانّي وهما يحملان هيكل سرير أسود صدئ. قال ماريو إنه وجده عنده في القبو «وهو لا يحتاج إلى أكثر من طلاء» جلسا على الدرج، وطلب ماريو كأس ماء، وبلّغه تحيات آل فيرتّي الذين يريدون دعوته إلى الطعام مساء الأحد. رافقهما شتيفان حتى الشارع العلوي ليجلب من السيارة عبوة المياه المعدنية التي تحتوي ست زجاجات. وعندما أراهما ما فعله سلفاتوره هز ماريو كتفيه.

في منتصف الدرب عند المنحنى الحاد سأله شتيفان عن الدرب العتيق الذي ذكره ماريو عدة مرات سابقاً، وفيما إذا كان يتفرع من هنا فعلاً؟ أشار ماريو إلى الدغل الكثيف قائلاً إنه كان هنا سابقاً، وهو يمتد بشكل مستقيم ولمسافة طويلة موازياً للشارع العلوي الذي شق بعد زمن طويل. وأن الدرب يصعد قبيل نهايته تحت مدرجات ماريني ليلتقي بالشارع. كان السكان فيما مضى يسافرون على عربات تجرها الحمير على هذا الدرب الممهد جيداً حتى جلّو بيسكاردو.

أما الشارع الجديد من جلو إلى فيبوكي فقد كان يصل سابقاً فقط حتى المفرق الصاعد إلى آل ماريني، وبدءاً من المنعطف الذي يوجد فيه المفرق لم يكن الدرب أكثر من معبر للحمير، وهو كما يعرف شتيفان في حالة يرثى لها، فمع كل عاصفة مطرية تصير الحجارة أكثر حدة. وعلى شتيفان ذات

يوم حمل منشار وسكين أدغال وعبور الدرب إلى القرية، مما يوفر عليه قرابة كيلومتر، ويمكنه عند ذلك توقيف سيارته في المنعطف العريض حيث يوقف ناردو سيارته.

في الليل أيقظه صوت ما، بدا كأن شيئاً قد سقط من السقف؛ ربما كان قطعة اسمنت متفتتة من السطح عند التقاء ألواح القرميد بمدخنة الموقد. ولاحظ عندما نهض أنها كانت قطرات مطر كبيرة تتساقط بإيقاع الثانية على أرض المطبخ. وعندما قصف الرعد صارت الدار تهتز. وصلت مياه المطر حتى إلى الغرفة الأمامية. أحضر الدلاء الثلاثة وفتش بمصباح الجيب عن المواضع المبتلة على الأرضية. وعندما استيقظ ثانية نحو منتصف الليل، طال به الرقاد من دون نوم. ولم يعد يُسمع صوت انهمار المطر على السطح والذي كان له تأثير مهدئ. لماذا يكون لكل شيء في الليل تأثير مهدد؟ ما زالت ترعبه بعض الأصوات عندما يكون على وشك الإغفاء أو عندما يستيقظ في منتصف الليل، أصوات لا يعيرها انتباهه أبداً أثناء النهار. وكأن الدنيا لا تبدي ودّها تجاهه إلا في نور الشمس، وحالما تحل العتمة تعلن الأشجار والأحراج والحيوانات الصغيرة عن إنهاء صداقتها معه. تلك الثقة الفطرية التي شعر بها في الليالي الأولى في مورا لم تعد موجودة، وآنذاك لم يكن للدار باب ولا شبابيك.

بين موقف سيارة ناردو والمقبرة وعند منعطف بطول خمسة أمتار انهار نصف الطريق بحيث بالكاد يستطيع المرء العبور بسيارة. ألقى نظرة على حفرة الانهيار وتصور لو أنه كان ماراً بسيارته من هنا ليلاً. وقبل المقبرة تحول الطريق إلى بحيرة متطاولة لا يمكن خوضها من دون أن تبتل القدمان. لم تكن سيارة ماريو واقفة عند مدخل القرية ولا عند منزله الحديث. عندما رجع إلى الساحة حيته فورتوناتا أخت ماريو من شباك منزلها، فرفع صوته قائلاً إن ما يريده هو فقط استخدام الهاتف لمكالمة قصيرة. دعته للصعود إلى منزلها حيث بإمكانه عندها أيضاً أن يستخدم الهاتف.

في غرفة المعيشة المعتمة كانت جميع النوافذ مغلقة، وكان فيروتشيو مضطجعاً على الديوان، فجلس ورتب شعره بكلتا يديه معاً. كان الهاتف موضوعاً على طاولة بجانب كؤوس فضية، وعُلقت على الجدار صور لفيروتشيو الشاب بزي المتسابقين المزود برقم وهو جالس على دراجة سباق أو واقف بجانبها. أخبرهما شتيفان عن الطريق المنهار، فلم يبديا اهتماماً يذكر، غير أن فيروتشيو علق بأن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً حتى تقوم البلدية بإصلاح الطريق، وأنها لن تضع حتى لافتة تحذير. لم ترد مونيكا على الهاتف، لربما كانت مسافرة.

فجأة انتابته في الغرفة قشعريرة برد، سألته فورتوناتا: «أتشرب معنا فنجان إسبرسو؟» تحدثوا عن ماريو وعن احتمال زواجه ثانية، لأن ذلك هو الأفضل للأولاد. إجازته المفتوحة ستدوم حتى الخريف فقط، ثم عليه العودة إلى عمله في البناء، فمن سيرعى شؤون الأطفال؟ ويحتمل أن يشغلوه في بناء خط القطار السريع بين روما وميلانو، في الجزء الممتد بين فلورنسا وأريتزو، حيث لا مناص من بناء جسور فوق وديان. وقالت فورتوناتا إن داڤيده يشبه فرنتشيسكا، في حين أن جانّي يشبه ماريو. فكر شتيفان بأن داڤيده فتى وسيم، أما جانّي فليس فيه ما يلفت النظر، ولا سيما أنه يمر الآن بمرحلة المراهقة.

على طريق العودة، عندما مشى على طول جدار المقبرة كيلا يضطر إلى الخوض في البرك التي كانت بعمق كاحل القدم غمره مزاج محبط، فقد تبيّن له فجأة أنه ما زال متعلقاً بمونيكا. سألته في أثناء آخر مكالمة هاتفية فيما إذا كان راغباً ، في عطلة عيد الميلاد ، بالسفر معها نحو تِنِريف، باعتبارهما صديقين.

على جانب الطريق قبل المفرق الصاعد إلى آل ماريني كان هناك ثعلب دهسته سيارة، فاستخدم عصا لدفع الجثة باتجاه منحدر الدغل. قرر أن يزور جيرانه. ناردو سيكون

منهمكاً بعمله في الحقل، أما جوڤانا وأوغستو فسيكونان في الدار، تمنى أن يطيل الجلوس على مقعد دارهم عندما يكون الطقس صحواً، كي يستمتع بمنظر ڤالدارنو والحقول والمزارع والعزب والدور الريفية والقرى الصغيرة والبلدات على قمم الهضاب. كانت جوڤانا ولفافات الشعر في رأسها تنثر حبوب الذرة لدجاجاتها. يبدو أنها خجلت من منظرها، فأشارت له أن يستدير وهرعت إلى الدار.

كان أوغستو مستلقياً بسبب اعتلال صحته، وناردو قد سافر إلى أريتزو ليشتري صنبور ماء، وقد تأخر كثيراً هناك. عندما ظهرت جوڤانا ثانية آتية من الغرفة الجانبية ذات الدرجتين كان شعرها مصففاً. وضعت على الطاولة زجاجة نبيذ أبيض نحيلة وكأساً ورجته أن يخدم نفسه بنفسه، إذ عليها أن تطعم الأرانب. جلس على المقعد الذي يتألف فقط من لوح خشبي سميك فوق صخرتين بجانب جدار الدار. بدا اللوح المصقول من كثرة الجلوس عليه وكأن أسلاف آل ماريني قد جلسوا عليه منذ مئات السنين.

وفجأة سمع صوت فيات ناردو وهي تبذل جهداً مضنياً لتسلق الدرب الشديد الانحدار، وبعد قليل سُمعت أصوات الزوجين العالية من الجانب الآخر للدار حيث يوقف ناردو سيارته عادة تحت أشجار البلوط. أشرق ناردو لرؤية شتيفان

ورجاه البقاء جالساً، دخل الدار حاملاً كيسين بلاستيكيين، من أحدهما برزت قطعة خبز أبيض طويلة. بعد قليل شاركه الجلوس على المقعد وسأله عن أزهار شجرات الزيتون في مورا، فأجاب شتيفان بأنه لم يدقق النظر فيها في الآونة الأخيرة وسأله بدوره إن كان يسمح له بإيقاف سيارته السيمكا تحت في المنعطف، لأنها في الموقف فوق مورا تكون عرضة دائماً لأشعة الشمس الحادة.

لاحظ أن ناردو كان قلقاً وبدا عليه الارتياح عندما ودعه شتيفان رغم أنه دعاه لتناول كأس آخر. قال شتيفان إن لديه عملاً كثيراً قبل حلول الظلام. وكما هو حاله بعد كل زيارة لدى آل ماريني قفز فرحاً على الدرب المرصوف بالحجارة والمنحدر باتجاه مدخل مورا، وعندما تجاوز المنعطف الأول سمع سيارة ناردو هابطة بالسرعة الأولى وسرعان ما تجاوزته، لوحا له من النافذة.

جلس مساء خارج الدار، وكانت نجمة الصبح تلمع فوق الهضبة الغربية، وكان النور ما زال كافياً للقراءة. بحث في كتاب ڤرجيل عن جملة: «توجهن إلى الدار شبعى، فنجم الصبح آت، توجهن أيتها العنزات». بدا النص الألماني متعثراً مقارنة بالنص اللاتيني، كانت الشحارير تغرد مستثارة، حاول أن يقلدها. أخذ بصعوبة يتعرف على معالم

قبة السماء: في البداية رأى نجم أركتور وبعد ربع ساعة نجم ڤيغا، ثم الدب الأكبر الأكثر التماعاً فوق الهضبة شمالاً، ورأى بعد مدة نجمين بل ثلاثة نجوم أقل التماعاً من نجوم الأبراج، وتمكن من تصور هياكلها بوضوح. كان تشكيل نجوم البجعة يظهر كل مساء فوق الهضبة الشرقية، وأولها نجم الذنب.

لم يعد النور كافياً للقراءة وبدأ يُسمع طنين البعوض الواخز، بعضه كان يطير فوق تيجان الزيتون السوداء وفوق سلسلة الهضاب على نحو باد للعيان بوضوح. كان بعوضاً من النوع الكبير وكانت إبره الواخزة متدلية على نحو فاسق بين أرجلها ومرئية بوضوح في نور المساء. عانى في الأيام الأولى كثيراً من وخزاتها على يديه وقدميه والتي كانت تسبب حكة تستمر طوال النهار، وبمضي الأيام لم يعد يحس بالوخزات صباح اليوم التالي.

احتاج الى ساعة من الزمن لتعشيب خمسين متراً فحسب من الدرب المختصر إلى جلو، بالمنشار وسكين الأدغال، وبشكل أولي. وكان من الصعب التعرف على معالم درب العربات العتيق (الأرض أعلاه وأسفله بالغة الانحدار) إلا في بعض المواضع، عندما يكون طرف منعطف ما مدعماً

بحجارة مسطحة. ويبدو أن الصيادين وجامعي الفطر لم يطأوا هذا المكان خلال السنوات الأخيرة، فقد كانت أدغال الوزّال والنباتات الشوكية الطويلة وشجيرات البلوط والشربين والزان منتشرة في كل مكان.

فجأة انتهت الغابة أو الدغل أو حرج الأعشاب ولم يعد على الدرب سوى الحشائش والأعشاب، وصل إلى بقعة مكشوفة، وعند منعطف يميني كان المنظر باتجاه الجنوب مكشوفاً، بيد أنه لم ير سوى منحدر الهضبة المقابلة ذي الطيات والمليء بالأشجار، ودار آل كاستيلّي الواضحة من هنا. وكان على الدرب الصخري الطحلبي حجارة ضخمة انهارت من الطرف المرتفع. وفجأة اصطبغ الدرب بلون بنفسجي، فقد كان الزعتر البري منتشراً في جميع الأطراف ورائحته تعبق بقوة. انحنى وقطف ما يكفي لتجفيفه للشتاء. ترك أدواته على الأرض وتقدم ليستكشف بقية الدرب، وقبل أن يأخذ الدرب بالصعود مجدداً مفضياً إلى غابة خفيفة سمع صوت ماء ينسال ضعيفاً من الأعلى إلى حوض صخري قبل أن يغيض أسفل الدرب في منحدر صخري. خطر بباله أن هذا الماء عندما يصل قعر الوادي سيرفد نهر أوريناتشيو. خمن أنه قد استصلح حتى الآن ربع الدرب، وأراد أن يتابع العمل في مرة قادمة.

ركب صباحاً باكراً باص الخط المتوجه نحو أوربينو، وفي أثناء متابعته جبال أپينين الأوربينية عبر النافذة خطر بباله المزارع الألماني الشاب الذي التقاه مؤخراً في مقهى كاستيليون فيبوكي وحادثه. أخبره أنه يعمل في تربية البقر، وقد تخصص في لحم البقر ذي النوعية الممتازة الذي يورده إلى جميع أسواق المنطقة. وعندما ذكر شتيفان جلّو بيسكاردو، قال الرجل ذو الجزمة المطاطية المتسخة وهو واقف إلى منضدة البار إن هناك قرية أعلى من جلّو يعيش فيها ألماني، مر بالمكان في عام ١٩٤٤ وهو جندي في ميعة الشباب مع الفرقة الخامسة أو الثامنة من الجيش النازي، وقد اضطروا في مكان ما هناك إلى هدم البوابة الحجرية كي يصلوا بدباباتهم إلى المركز.

وأضاف بأن مثل هذه الأمور لم ينسها الناس هنا؛ لذلك تكون الأمور بالنسبة للألماني في بداية الأمر صعبة جداً. وتابع قائلاً إنه ذات مرة تحدث مع الرجل في ساحة سوق أريتزو، وهو عجوز ودود يشعر بالوحدة، ثم صادفه بعد شهور في بارلورو كوفينا، وقد أخبره صاحب البار لاحقاً بأن الرجل الودود هذا يفصح بعد بضعة كؤوس عما في نفسه. فأجاب شتيفان بأن هذه الحادثة لا يحتمل أن تكون قد وقعت في جلّو، إذ يستحيل حتى على سيارة ركاب عادية أن تستدير في ساحتها.

عبر شتيفان بسرعة قاعات قصر الأمير حتى وصل القاعة التي عُرضت فيها اللوحتان الشهيرتان: «جلد المسيح بالسوط» لبييرو ديلاّ فرانشسكا و«بورتريه الأبكم» لرفايلو على مسافة مترين أمام اللوحات نُصبت حبال كحواجز، وفي إحدى قاعات القصر البالغة الاتساع والتي كانت نوافذها مزودة على الجانبين بمقاعد مرمرية صغيرة للجلوس، اقترب شتيفان من إحدى الزوايا. هنا حيث كان الأمير فِدريكو دامونتيفلترو يدخل ويخرج سابقاً بصحبة وزرائه وخدمه، صار بوسع أي كان الآن أن يتمشى. وعلى أرض القاعة هنا وهناك جلس أزواج من الشباب والشابات الأمريكيين بصورة متعاكسة حاملين زجاجات المياه المعدنية والكوكا كولا وهم يتكركرون بأصوات عالية، فأسكتهم مشرف عجوز بإشارة مقتضبة.

إلى جانب مدخل المنزل الذي ولد فيه رفايلو في شارع رفايلو الطالع لاحظ شتيفان وجود لوحة خزفية يدوية الصنع، كتب عليها: مركز تاتّو. وعلى جدار الغرفة الصغيرة التي كانت غرفة نومه عُلق رسم داخل إطار للفنان برامانتِه. من نافذة الغرفة يطل المرء على الزقاق النازل وعلى المنزل المهمل في الجهة المقابلة حيث لم يبق من واجهته سوى القرميد العاري من الطلاء. أعجبه منزل رفايلو بغرفه الموزعة على عدة طوابق وأنصاف طوابق، غير أن ترميمه كان حديثاً جداً،

بحيث بدا له كل شيء ناصع البياض وبالغ النظافة. وفي كل مكان علقت نسخ للسيدة العذراء الحنون.

على رصيف المقهى في ساحة الجمهورية وجد طاولة شاغرة، قدموا له النبيذ الأحمر من البراد. ومن الساحة كانت تتراجع سيارة شحن بثلاث عجلات نحو مدخل البضائع وهي تهدر بصوت مرتفع، ورأى في أشعة الشمس الغبار المتصاعد والمختلط بغازات العادم يهبط بهدوء على طاولات المقهى وعلى فناجين القهوة وكؤوس البيرة وصحون المأكولات. فجأة خطر بباله أن وقع لغته الإيطالية في آذان الإيطاليين لربما كان مضحكاً مثل بقية المسافرين النمساويين أو الألمان الذين يحاول كل منهم استخدام ما أمكنه من هذا القليل الذي تعلمه. وأنا في واقع الأمر لا أكثر من متطفل لا علاقة له بالمكان. فلقد بنيت هذه المدينة وهذه العمارات كي تعيش مجموعة متآلفة من البشر فيها ومعها، ولولا وجود بعض المسافرين مثل غوته وزويمه لما خطر ببال أي مجتمع أن يجعل من نفسه وموطنه معرضاً تزوره جموع البشر نتيجة الملل، وأن يحوّل الأمر إلى تجارة يربط وجوده بها.

إلى طاولة بجانبه جلس زنجي ممتلئ القوام بـ(جلابية) صفراء تكاد تكون شفافة، وتصوره ابن رئيس جمهورية إحدى الدول الأفريقية. وكان معه زنجيتان جميلتان ممتلئتان

ملتفتان بحرير ملون، إضافة إلى رجلين يشبهان المصارعين أو رجال العصابات، ربما كانا حرسه الشخصي، وكانت طريقة جلوسه توحي بأنه يمتلك العالم.

حان الوقت ليهرع نازلاً إلى موقف الباصات، وعندما وصل إلى الساحة حيث تنطلق الباصات لم يكن سائق الباص نحو أريتزو قد أخذ مكانه بعد. وكانت بقية الباصات تملأ المكان بغازات عوادمها. جلس تحت شجرة صنوبر ظليلة، كان لون تاجها بنياً أكثر منه أخضر، وأبقى عينيه على الباص. في الساحة العليا أمام القصر رأى امرأة عجوزاً تبيع أعشاباً مجففة تحملها في سلة، وعندما دخلت مكتب المواصلات، حيث حصل على خريطة المدينة، طردتها بجلافة صبية تضع على كتفيها شالاً حريرياً أحمر، وكأنها متسولة. اقتربت المرأة العجوز الآن من مقعده فتنحى لها جانباً. كانت السلة التي وضعتها بينهما ممتلئة كالسابق. ترى في أي قرية يوجد منزلها المسافرة إليه؟

نزل الدرج حاملاً الكرسي المطوي وبحث له عن مكان ثابت إلى جانب الطاولة. صارت المساحة أمام الدار مساحة للفرجة، إذ يمتد أمامه المرج المحشوش وبستان الزيتون ثم الأرض المنحدرة، وفي أحد المواضع كانت هناك درجات

صخرية غير مستوية تؤدي إلى حقل واسع زرع قديماً بالحبوب، أما الدرب المحشوش فقد كان يستخدمه الصيادون وجامعو الفطر، كما كان أطفال جلو يعبرونه وصولاً إلى مسيل الجدول في الأعلى حيث يصطادون بالشباك أسماكاً صغيرة وسرطانات.

في مرمى النظر أمامه وفي منتصف المسافة حتى جلو بيسكاردو كان يتقاطع بصورة نصف دائرية منحدر الهضبة الغربية المغطى بالغابات مع منحدر الهضبة الشرقية. ووراء ذلك في الجهة الشمالية الشرقية يُرى الانحدار العريض لسلسلة هضاب مغطاة بالزيتون والكروم وحقول الحبوب وبغابات بلوط وكستناء قليلة الشجر، تبدو عن بعد كمنظر الكواليس. إلى يساره ينتهي مرج الدار عند حافة جدار مدرج، حيث تنحدر الأرض بقوة حتى قعر الوادي والجدول حيث كان أحياناً مساءً يغتسل أو يبترد، وفي تلك الجهة توجد مدرجات صارت برية مليئة بالأعشاب الشوكية.

والأرض المسطحة أمام الدار لم تكن في واقع الأمر أكثر من مدرج واسع مدعم بجدران حجرية. وإلى يمينه ينتهي المرج عند المرتفع الذي يمتد بعد مدخل السيارة حتى الشارع العلوي وما بعده. وهناك في الأعلى، ورفع نظره باتجاه السماء، كان هناك مدرجات مزروعة بالزيتون المعتنى به، وكان يسمع

من هناك أحياناً أصوات تحطيب أو نشر أو حديث رجلين، وكان هذا يربكه في بداية الأمر لأنه كان يظن أن الأصوات قادمة من مكان قريب جداً، من أحد المدرجات على طول مدخل السيارة. عندما تهب الريح من الشمال كان يسمع أحياناً صياح ديك، وإذا رفع نظره باتجاه جلّو على الهضبة الشرقية كان يرى ذؤابات شجرة البلوط الهائلة فوق المرتفع المغطى بالغابات والتي تنتصب أعلى دار ناردو ماريني.

منذ أن صعد إليه في الأعلى صار بإمكانه من الأسفل تصور موقع الدار، عند تقاطع قمتي الهضبتين اليسرى والوسطى تلتف وراءه باتجاه فلورنسا هضبة صغيرة رابعة بشكل نصف دائري، وهي تتبع سلسلة پراتومانيو. وقد أطلق عليها تسمية «زاوية الطقس» إذ عندما تتجمع هناك مساءً السحب أو تحجب الذروة يكون الطقس في اليوم التالي سيئاً.

في الماضي سكنت سينيورا كاسي في الجزء الأمامي من الدار المؤلف من مطبخ صغير وغرفتين. كانت في غاية الثراء، متسلطة وتمتلك كثيراً من الأراضي والعقارات في المنطقة. لكن مسكنها الرئيسي كان ڤيلا تشبه قصراً صغيراً في راسّينا، يبدو أنها كانت تتجول عدة شهور في السنة فتقيم

لفترة قصيرة في أحد أملاكها، تراقب كل شيء، تدفع الناس إلى العمل وتنقل محاصيل الحبوب والزيتون والعنب والفواكه. هذا الجزء من الدار كان فعلاً في حالة أفضل من بقية الغرف. أخبره ماريو أنها لم تتزوج أبداً، وأنه يمتلك في مكان ما صورة فوتوغرافية لها مع صيادَين وخنزيرة برية مصابة بطلقة قاتلة أمام الدار. كانت تنام في الغرفة الصغيرة الجنوبية حيث ينام هو أيضاً. قال له هاينريش في السنة الماضية إن مورا مسجلة في سجل العقارات بوصفها خراباً محترقاً، ولهذا كان تصنيف سعرها زهيداً جداً. حاول شتيفان أن يتخيل كيف كانت سينيورا كاسي تقضي حاجتها في الدغل.

سمع صوت دراجة نارية مقتربة من جهة جلّو، غابت في أحد المنعطفات ثم ظهرت الدراجة هادرة هابطة الدرب باتجاه الدار. أهو أحد الشبيبة الذين يتجولون بدرجاتهم في عطلة نهاية الأسبوع لقتل الضجر؟ كان سيرجو. لقد أهداه والده الذي يمتلك محلاً لأوراق الجدران في فلورنسا دراجة ياماها – إندورو مكافأة على علاماته الجيدة في الامتحان. حيا بأن رفع ذراعه، دار حول الطاولة التي كان شتيفان يقطع عليها الخضار جالساً، وأخيراً أطفأ المحرك. عندما أخبره سيرجو قبل أسبوعين عن الموضوع، أمل شتيفان ألا يحصل على علامات جيدة، فقد كانت تكفيه ضوضاء جانّي بدراجته

الصغيرة أو فرانكو فيرتّي بدراجته القسّبا في نهاية الأسبوع، ولا سيما بعد أن نزع غطاء العادم. هناك من طلب شتيفان هاتفياً، وعليه أن يتصل بهم، ضروري، لكنه لم يقل من الذي اتصل؛ لم يعرف الاسم لأن ماريو لم يذكر أي اسم، والخط كان مشوشاً جداً.

أصوات صراصير الحقل المتناغمة: كيف يولّدون هذا الإيقاع الجماعي الصاعد – الهابط المتسق؟ لا شك بأنها دعوات للتزاوج. سمع صخب جندب في أغصان شجرة الخوخ وطنين نحلة كبيرة عند جدار الدار، يرتفع ويخفت، وهي تفتش الثقوب و الشقوق. عندما يصمت جندب شجرة الخوخ ترتفع أصوات جوقة جنادب من أدغال المدرجات وكأنها جواب. ثمة صوت تركتور خافت آت من حقول جلّو على المرتفع المقابل. وعندما يصمت كل شيء، تكون الاستراحة سارة. نهض عن الكرسي وبحث عن الجندب في الشجرة. كان واقفاً في تمويه جيد على قشرة الجذع. جسمه رمادي قاتم وأجنحته الكبيرة المنشورة شفافة. ورغم أنه كان يصدر صوته بقربه احتاج إلى فترة طويلة حتى اكتشفه.

رأى الناس في جِلّو أن حر هذا الصيف غير معتاد. ولم يعد شتيفان يجرؤ على دخول الفراش في الساعة التاسعة

كعادته، إذ أن ماريو وكارلو وجانّي ورنزو ورجال وفتيان آخرين من جلّو قد اعتادوا كل يومين أو ثلاثة أن يتمشوا إلى مورا، عندما يبترد الهواء قليلاً مساءً، وكانوا يثرثرون ويثرثرون ويثرثرون. وذات مرة وضع عبوة الماء في حقيبة الظهر ورافقهم على طريق العودة حتى النبع. وتذكر رواية باڤيزه «شيطان على الهضبة»، فكما في الرواية يبدو أن الشباب هنا ينتابهم شعور بأن الحياة تتجاوزهم وأنهم يضيّعون كل شيء.

وقفوا مرتين أمام الدار ونادوه، فاضطروه إلى النهوض وارتداء ملابسه، ثم جلسوا جميعا على الدرجات وعلى كراس قابلة للطي كان يفتحها بسرعة. لم تكن لديهم رغبة بشرب النبيذ. كان ماريو يستعيد حيوية شبابه عندما يكون برفقة الشباب. ترى هل كانوا يظنون أنه يشعر بالوحدة في مورا؟ وما كان يزعجه هو عدم معرفته ما إذا كانوا سيأتون هذا المساء أم لا؟ وهكذا صار يبقى غالباً صاحياً مساءً، جالساً خارج الدار وهو يحدق في سماء الليل.

عندما كانت فرنشسكا على قيد الحياة في الصيف الماضي، لم يكن ماريو يغادر الدار أبداً مساءً. بعد الطعام كانوا يجلسون أمام التلفزيون، يتركون الباب مفتوحاً، فقد يأتي أحياناً أحد الجيران، يصعد الدرج، يلقي نظرة، يجلس

معهم مدة أو لا يجلس، أو يخرج مع ماريو إلى عتبة الدرج التي تشبه الشرفة ليتناقشا في موضوع ما. آنذاك كانت هناك دائماً زجاجة نبيذ جيد فوق البوفيه. وعندما كان شتيفان يأتي أحياناً مساء ليجري مكالمة هاتفية كان يجلس بعدها مدة ساعة معهم إلى الطاولة، وإن كانوا ما زالوا يتناولون طعامهم كانوا يضعون له صحناً. لم يتغير أثاث المطبخ، ولكن منذ وفاة فرنشسكا بدت الغرفة كأن ثمة فيها ما مات معها.

غالباً ما كانوا يدعونه إلى الطعام في الصيف الماضي؛ لربما كانوا يأسفون لكونه وحيداً في مورا، وأخيراً ومن دون كلام اتفقوا على أن يزورهم كل مساء. لم يدعوه يذهب بعد الطعام، إذ لا بد له من مشاهدة فيلم «المحتال» أو «المهياص» ثانية (آنذاك كان التلفزيون يكرر عرض أفلام فديريكو فلليني القديمة)، فكان يبقى وهو يفكر بأنه سيتعلم الإيطالية، ويفكر في الآن نفسه بمورا: هل لمستُ كل ما يتعلق بالطعام قبل المغادرة؟ وهل علقتُ كيس القمامة؟ وإلا سيمتلئ المطبخ بالنمل أو ستنبش الفئران القمامة. وحتى طريق العودة إلى الدار في الظلام فقدَ إثارة المغامرة التي كانت لديه في البداية، كان مرهقاً من عمل النهار، ولم يعد يستخدم مصباح الجيب إلا عندما يهبط الدرب باتجاه الدار. عندها كان يشعل المصباح بسبب الخنازير البرية ويضرب بالعصا على جذوع الأشجار والشجيرات على جانبي الدرب، وكان

يسمع أحياناً نخراً غاضباً قادماً من الدغل أسفل الدرب. وبعد أسبوعين تمرد: كان مريحاً ألا يضطر إلى الطبخ (مع توقعه العشاء الدسم لم يعد يأكل ظهراً سوى جبن ولحم خنزير مدخن)؛ لكنه حتى الآن لم يفتح أياً من الكتب التي أحضرها معه ناهيك عن الكتابة.

أكثر ما كان يحبه بعد أن يحضّر كل شيء حول الدار للمساء وينظف أسنانه، هو أن يجلس أمام الدار ويستمتع بمنظر الطبيعة. بعد ظهر أحد الأيام جاء جانّي وسيرجو بلباس السباحة وهما يحملان صنارتي صيد، وبينما كان على المدرج أسفل المرج يسند المحشة كي يشحذ النصل، وجدهما فجأة أمامه. قالا إنهما لم يصطادا شيئاً؛ إذ ليس في الجدول إلا قليلاً من الماء. فانتهز الفرصة وطلب منهما إخبار البابا بأنه لن يأتي مساء اليوم إلى الطعام لأن عليه أن يكتب. وفي المساء التالي أيضاً لم يذهب إلى جلّو، ولكن قبل ظهر اليوم الثالث وكان يوم أحد ذهب إلى الكنيسة في جلّو حيث رآه الجميع.

وبما أنه كان متأخراً ولا بد من التخلص من بعض أكياس القمامة فقد ذهب بالسيارة. بعد أن تجاوز حاويات القمامة واقترب من مدخل القرية رأى ماريو مع بعض الرجال واقفين بجانب الجدار الصخري قرب البركة. كان ماريو يستند

بقدمه المثنية إلى الجدار. لاحظ شتيفان مباشرة أن مزاج ماريو سيئ وبالكاد رد تحيته، وتجنب نظرته. كانت لحيته غير حليقة، وتابع حديثه مع العجوز بيانكي، عامل البناء المتقاعد. وقف شتيفان بجانبهما، ولم يدر إن كان عليه البقاء أم الذهاب. جاءت فرنشسكا من المنحدرات الواقعة أعلى جلّو حاملة كيسين بلاستيكيين ممتلئين بالخضار والفواكه، وحيته كالعادة، وسألته عن أعماله ولماذا أطال الغياب عنهم؟ ابتعد ماريو عن الجدار ودعاه بإشارة من رأسه أن يتبعهما. عندما صعدوا درج المنزل سأل ماريو شتيفان لماذا لم يعد يأتي للعشاء عندهم؟

كان جميع النساء قد جلسن في الكنيسة، وكانت مقاعدهن على الجانب الأيسر ممتلئة، في حين كان عدد الرجال على الجانب الأيمن قليلاً. في الصف الأول كان لباس الجالسين فخماً. والعمال المتقاعدون ما زالوا يقفون خارج الكنيسة، على الرغم من إعلان الأجراس بدء القداس. جاء ابنا ماريو صاعدين من الساحة، ومن ورائهما آل فيرتّي يلهثون؛ دخل شتيفان خلف أنطونيو ووقف مع الرجال المسنين الذين اتخذوا أمكنتهم وقوفاً بجانب المدخل وهم يرتدون ثياب كل يوم، وبدؤوا يتبادلون الحديث طوال الوقت بلا خجل.

ظهر الكاهن (فكر شتيفان أنه من سكان أمريكا الجنوبية) مع جانّي كمساعد له وحيّا العائلة الجالسة في الصف الأول: كانت هناك فتاة في العاشرة من عمرها، وقد بدت كالعروس في ثوبها الأبيض، ولم يدرك شتيفان إلا في النهاية أن ذلك بمناسبة تناولها القربان الأول. وما كان ليخطر بباله أبداً أن لغة الكاهن هي الإيطالية. وبعد نصف ساعة عندما بدأت مراسيم تناول القربان تحول المشهد حول المذبح إلى ما يشبه ستوديو تصوير سينمائي. واعتبر شتيفان أن والد الفتاة هو الذي يصورها بكاميرا سينمائية من جميع الجهات، إلى درجة أنه استلْقى على بلاط أرض المذبح كي يلتقطها من تلك الزاوية.

وخلال ذلك كانت الأم الوديعة المظهر تذهب إلى ابنتها، ترتب لها ثوبها الأبيض وتاجها الأبيض المخضر وطرحتها وتنسحب من جديد. تجاهل الوالد الكاهن وجانّي اللذين وقفا جانباً (كان جينز جاني الأزرق وحذاؤه الرياضي المتسخ باديين للعيان تحت الجلباب الأبيض لمساعد القس) منتظرين، وتابع تصوير المشهد الآن من عند غرفة الكهنة الجانبية. والفتاة التي كانت مرتبكة في البداية أخذت الآن تدور بغنج وتفرد قبضتي يديها باتجاه والدها الذي يتابعها بالكاميرا والذي بدا مأخوذاً بابنته الصغيرة. كما نهض بعض رجال الصف الأول ببذلاتهم السوداء وتوجهوا إلى

المذبح حيث التقطوا صوراً فوتوغرافية وسينمائية، وكانت الفلاشات تومض عبر قاعة الكنيسة.

غادر بعض المسنين الواقفين بجانب شتيفان الكنيسة من البوابة التي بقيت مفتوحة، وعندما خرج هو أيضاً أفسحوا له مكاناً على المقعد في فسحة مدخل الكنيسة، وما إن جلس حتى غاب عن اهتمامهم. جاء باتجاههم من القرية رجل في نحو الخمسين من عمره يرتدي زي متسابقي الدراجات، مشيته متصلبة، وألقى نظرة داخل الكنيسة. وبعد عشرين دقيقة عندما خرجت المجموعة ذات الثياب الاحتفالية تكرر تشكيل المجموعات بهدف التقاط الصور. مزح أنطونيو مع أحد المتقاعدين، ثم دعا وكريستينا شتيفان لتناول فنجان إسبرسو في منزلهما.

وعندما نزلوا باتجاه الساحة ودخلوا الزقاق الظليل أبدى شتيفان استغرابه بسبب الاستعراض الذي حصل خلال القداس؛ فقالت كريستينا إن رومانو والد الفتاة هو أحد أبناء فاجولي الذي يملك أول منزل عند مدخل القرية، وهو يعيش مع عائلته منذ خمسة عشر عاماً في مونتيفاركي، وأن أخاه الذي يعيش في أريتزو حضر أيضاً. بينما كانت كريستينا تنظف جهاز الإسبرسو وتضعه على موقد الغاز، شغّل أنطونيو التلفزيون الأبيض والأسود. كان هناك استعراض موسيقي

أمريكي، فتيات بتنورات قصيرة يرفعن سيقانهن الطويلة عالياً. عاد أنطونيو إلى الحديث عن لاڤيرنا، فلديه ما ينجزه هناك في الأسبوع القادم لأنه عضو في لجنة سائقي النقل.

للمرة الأولى أوقف شتيفان سيارته في المنعطف الظليل قرب المفرق الصاعد إلى دار آل ماريني، ثم حمل أكياساً بلاستيكية بكلتا يديه ومشى على الدرب المختصر إلى مورا. لم يستطع هذه المرة أن يرفع بعض الحصى ويرميه أمامه. في الموضع المكشوف من الدرب باتجاه الجنوب حيث استخدم المنشار اليدوي والمنجل لتعشيب الأرض وقطع الأغصان الشوكية وأغصان البلوط والشربين اليافعة النامية باتجاه الدرب، هناك توقف. كانت الأرض حيث قطف أزهار الزعتر قد أضاءت ثانية بلون وردي، وكانت أشعة الشمس منصبة على سطح صخري واسع مملوء بالشقوق يشكل منحدراً على الجانب الأيسر، أما على الجانب الأيمن فقد شاهد شتيفان الأحجار التي استخدمها ذات يوم مستصلحٌ للدرب من أجل تدعيم جانبه.

بدا الدرب هنا من الضيق بحيث يصعب تصور أن عربات النقل كانت قادرة فيما مضى من الأيام على عبوره. إنه مكان كالفردوس، فكر شتيفان. سمع خلفه صوت ماء يتساقط ضعيفاً من المرتفع ليتابع سيلانه من ثم أسفل الدرب. انحنى

وقطف بعض الزهرات، فركها بالإبهام والسبابة وتشممها، وفجأة ثمة ما شله ذعراً، قبل أن يرى على نتوء صخري فوقه أفعى ثخينة في وضعية هجوم، وقد توقف جسدها عن الالتفاف ثم انسحب رأسها إلى الوراء. لم يتحرك شتيفان من الرعب؛ لكنه فكر بأن الأمر قد قضي، فهنا لن يجده أحد، وخطر بباله أن يُسقط نفسه نحو الخلف... وأخذ يحدق بثبات بالمصيبة الجاثمة أمامه. كان رأس الأفعى يتحرك إلى الأمام والخلف بصورة تكاد تكون غير ملحوظة وكأنها تختار أفضل نقطة للهجوم، وأخذ جسمها يلتف على نفسه بمزيد من التوتر، وكأنها لم تبلغ بعد ذروة وضعية الانقضاض. لقد قضي الأمر... كم سيستطيع أن يزحف، كم من الزمن سيحتاج إلى السيارة، وهل سيتمكن من قيادتها؟ سمع صوت الجدول الصغير خلفه بوضوح أكبر، وكأن أجهزته الحسية قد صارت أكثر حدة. لن يصل في نصف ساعة إلى أريتزو، ثم مشكلة البحث عن المستشفى في فوضى المرور السائدة... كان رأس الأفعى يرتجف بخفة يمنة ويسرى.

كان كالمشلول، وغير قادر على النهوض، فكر، كم طالت هذه المواجهة، لحظة الرعب القاتل، ربما لا أكثر من خمس أو ست ثوان، إلى أن تحركت الأفعى بهدوء مخيف مديرة رأسها باتجاه الصخور ثم منسلة في شق النتوء الصخري، على مسافة أربعين سنتمتر منه. أخيراً ترك نفسه يسقط

على جنبه، حكّ نقطة كانت تأكله في خده وشم رائحة الزعتر على أصبعيه.

عندما ضغط باب كشك الهاتف العمومي ذا المصراعين الزجاجيين في سان جوستينو اندلع نحوه هواء قائظ. كان الكشك مقابل مجموعة شقق سكنية، يحتل أحدها مكتب الحزب الشيوعي. وبين الكشك والبناء تتوزع مواقف سيارات سكان الشقق. من إحدى النوافذ عُلق علم نادي كرة قدم، وكان يُسمع صراخ الأطفال. وضع شتيفان قدمه كي يبقي باب الكشك مفتوحاً قليلاً فلا يختنق من الحر في داخله، ثم تبين له أنه لا يحمل في محفظة القطع النقدية ما يكفي من القطع اللازمة؛ فلإجراء مكالمة خارجية لا تصلح سوى قطع ٥٠٠ ليرة التي كان يجمعها لهذا الغرض، وكان في حاجة إلى ست منها لإجراء مكالمته القصيرة.

في البار كان الهاتف العمومي في غرفة بلا نوافذ ولا تضيئها سوى لمبة ضعيفة، إضافة إلى وجود بعض أجهزة الألعاب الآلية، كان يمكن إغلاق الباب ذي الطيات للغرفة التي تشبه صندوقاً لكن صخب الفتيان الذين كانوا هناك كان يصم الآذان مما يجعل إجراء المكالمة أمراً مجهداً أو مستحيلاً. وغالباً ما كان الخط مشوشاً لدرجة أنه كان يضغط السماعة على أذنه ويضع

أصبعه في أذنه الأخرى، إضافة إلى أن ماريتّا صاحبة البار لم تكن ودودة، لذلك كان يتلكأ كثيراً قبل أن يسألها: ممكن أتصل؟ ثم يشعر بالارتياح كل مرة عندما تضغط زر العداد بجانب صندوق المحاسبة، تضعه على الصفر وتقول: جاهز.

مسح أولاً سماعة الهاتف ببنطاله من آثار تعرق المتكلم قبله، وغالباً ما كان الجهاز يصدر طنيناً بمجرد أن يدير أرقام رمز النمسا، ثم يغمره الارتياح لسماع الرنين البعيد، وعندما ترفع ابنة عمته إليزابت السماعة، وتؤكد أن كل شيء لديهم يسير في مجراه الطبيعي، فوالدتها قد تحسنت صحتها، فتمكنت من مغادرة المستشفى. في دكان الجرائد ألقى نظرة على عناوين الروايات المعروضة في المناصب الدائرية: نتاليا غينزبورغ، إيتالو كالفينو، ألبرتو موراڤيا.

قلّب صفحات رواية «تاريخ عائلة» الصغيرة لڤاسكو پراتوليني وقرأ أن الكاتب قد عاش في ڤالدارنو، ثم تذكر أن ڤيتوريو قد ذكره مرة أمامه. بقي في البار ما يكفي لشرب فنجان قهوة وغادر. على الرغم من أن سيارته كانت واقفة في موقف السيارات المظلل بالأشجار في آخر المكان، غير أن الجو داخل السيارة كان حاراً، فكان لا بد من التفكير بلحم الخنزير المدخن والحليب واللبنة. كانت تقف أمام البار سيارة ألفا روميو، موتورها دائر ونمرتها من فلورنسا.

طلب من الحلاق في الجهة المقابلة موعداً لبعد غد، كانت صور متسابقي الدراجات تملأ الجدران كلها، وكان هناك بعض الكؤوس الفضية على رف صغير. مساعد الحلاق الشاب كان مشغولاً بحلاقة ذقن رجل عجوز، فطلب من شتيفان تسجيل اسمه بنفسه في المذكرة. في الدكان الصغير بجانب الحلاق كان هناك أدوات مائدة وأدوات منزلية، إضافة إلى الجوارب والشالات والنظارات الشمسية. اشترى صحناً تعويضاً عن صحن الشاي الذي كسر أثناء الجلي. كان صاحب المحل رجلاً قصيراً ناعماً في الأربعين من عمره ومتعاوناً جداً، فقد لفّ الصحن الخزفي ذا التزيينات الليمونية بصورة أنيقة، وكأن شتيفان قد أوحى له بأنه هدية.

عندما وصل موقف السيارة أعلى مورا وضع جميع مشترياته في حقيبة الظهر الكبيرة وخاض الدرب نزولاً، فقد نبتت أغصان شوكية جديدة متدلية على الدرب، وكانت ثمار شجرتي الزعرور الناهضتين عند حافة المدرج المنحدر قد أخذت تصطبغ بحمرة داكنة. تخيل أن تكون مورا ملكه وهذا الدرب أيضاً الذي يجب عليه أن يعشّب شريطه النصفي من الحشائش والأزهار والأعشاب في القريب العاجل. عند المنعطف الحاد انطلقت حية صغيرة خضراء ضاربة للصفرة من اللوح الصخري باتجاه الدغل. لا شك أن هذا

اللوح الصخري قد تدحرج ذات يوم من الأعلى وبقي عالقاً حتى نصفه على المنحدر عند أول المنعطف. وضع مشترياته في أماكنها في المطبخ، وقطع الجبنة إلى شرائح وأكلها بعد أن ملحها قليلاً، وأكل معها خبزاً أبيض طازجاً. سمع من جهة الهضبة الشرقية حيواناً يصدر صيحات شكوى. في الصيف الماضي عندما سمع مثل هذه الصيحات شرح له ماريو إنه غالباً أيل فقد ولده. وما كاد شتيفان يحدد مصدر الصيحة على نحو تقريبي حتى سمع الصيحة الثانية من مكان مختلف. لا شك أن الأيل يطير عبر الأدغال بحثاً عن ولده.

في أثناء سفرهما بالسيارة إلى أريتزو أخبر ماريو شتيفان بأن ڤيتوريو في شبابه كان ينظم قصائد شعرية، وأن بعضها قد نشر في مجلات. عندما بلغا الضاحية أخذ ماريو الأوتوستراد باتجاه فلورنسا، ثم تركه عند نقطة أريتزو – شمال ليدخل منطقة صناعية مسطحة عليها أبنية معامل منخفضة فوق دعامات إسمنتية، ولكل منها مواقف سيارات واسعة، وكالات عامة لشركات سيارات أمريكية، قطع تبديل، أسواق مواد بناء. كانت هناك على طول الطريق لوحات دعائية، الواحدة تلو الأخرى. تابع ماريو قائلاً إن

ڤيتوريو مستاء لكون ابنته وابنه الراشدين قد بقيا ساكنين معه، وعندما ستتزوج دانييلا في الخريف فالمرجح أن زوجها سينتقل للسكن معهم أيضاً، فهو حتى الآن ما زال يسكن عند والديه.

دخل ماريو باحة سوبر ماركت المخزن الاجتماعي وقال لشتيفان إن كان يريد شراء نبيذ أو زيت فبإمكانهم تدبير الأمر هنا بسرعة. تذكر شتيفان أن ماريو قد حدثه مرات عن هذا المتجر. على جدران صالة المتجر الواسعة كانت هناك رفوف معدنية مملوءة بزجاجات النبيذ، وفي الجزء الخلفي زجاجات الخل والزيت، بدا كل شيء نظيفاً ومرتباً، والأسعار زهيدة. كان بوسعهم هنا ملء زجاجاتهم بالنبيذ لو أنهم جلبوا معهم زجاجات فارغة. تبيّن لشتيفان من قراءة أوراق الزجاجات أن مصدر النبيذ الأحمر هو محيط مدينة أريتزو، ثم رأى رجلاً يصب من وعاء معدني كبير ذي خرطوم نبيذاً أحمر في دمجانة بسعة خمسة ليترات.

بعد ربع ساعة أخرى من السفر توقفا أمام بناء شقق سكنية كبير في شارع ڤاسكو داغاما، وعندما ترجلا رأى شتيفان ڤيتوريو واقفاً في الكراج إلى طاولة الورشة الممتلئة بالأدوات وهو يقطع بسكين كبيرة شرائح رقيقة من فخذ خنزير، وقال له: ما كنت سأجد طريقي وحدي بالسيارة أبداً

في زحمة هذه الشوارع ذات الاتجاه الواحد. قال ڤيتوريو إنه سيوصل لحم الخنزير بسرعة إلى الشقة وعليهما الانتظار، إذ أنهم سيذهبون أولاً إلى البار لتناول قدح كفاتح شهية. سأل شتيفان عن محل لبيع الزهور لأنه يريد إهداء بعضها لإيڤا، فعلق ماريو بأن هذا ليس ضرورياً.

وعلى طريقهم إلى البار مروا قرب محل للزهور فأصر شتيفان على شراء باقة. سأل صاحب المحل المترهل ذو المريلة الرمادية ماريو عن بلد شتيفان. وعندما سمع كلمة النمسا سأل: ما الأحزاب التي لديهم؟ هل لديهم شيوعيون؟ فأجابه شتيفان: ديمقراطيون، اشتراكيون، ليبراليون، بعض الشيوعيين... قال له ماريو إنهما سينتظرانه خارجاً. رتب الأجير الشاب الورود بأن فرد قطعة سيلوفان فضية كبيرة ووضع الورود عليها بشكل متقاطع، قصيرة فطويلة، متشابكة وملأ الفراغات بأغصان خضراء طرية، وبدا مستمتعاً بعمله. كان شكل الباقة الجاهزة فخماً وضخماً إلى درجة أن خجل شتيفان عندما خرج بها إلى الطريق حيث كان الاثنان يتحدثان مع صبيّة. على طريق العودة إلى شقة ڤيتوريو حاول شتيفان تصور حياته مع امرأة إيطالية في أريتزو. وقال ڤيتوريو إنه من المحتمل أن يفقد ماوريتسيو عمله؛ فهناك إشاعة عن إغلاق فرع فيليبس في أريتزو، وأن دانييلا عاطلة عن العمل. حاول تدبير أمرها في البلدية لكنه أخفق على الرغم من أنه قد... للمحافظ...

«أنتم الشيوعيون» قاطعه ماريو «تزعمون دائماً أنه ليس عندكم وساطات؛ لكنكم لستم قديسين أيضاً..»،

عندما دخلوا الشقة في الطابق الخامس، وهي تابعة للبلدية حسبما أخبره ماريو، قدم شتيفان باقة الورود لسيدة البيت. تلقتها منه بارتباك واعتذرت بأن عليها العودة إلى المطبخ. كانت دانييلا مستلقية على الديوان في غرفة المعيشة وساقاها على طاولة صغيرة، وهي تتابع مسلسلاً كوميدياً أمريكياً في التلفزيون. طردها ڤيتوريو بحركة من يده وتقدم إلى الشرفة ورفع المظلة الواقية من أشعة الشمس. كان الجو حاراً. في السفح الغربي بدا ما تبقى من الشمس وكأنه يذوب على خط الأفق. كان الطريق السريع يبعد مئة متر فقط عن مجمع الشقق السكنية، وهو واحد من شبكة الطرقات السريعة حيث تكون حركة المرور كثيفة ومزدحمة وصاخبة بالزمامير وصفارات سيارات الإسعاف.

وفي المساحة حتى الطريق توزعت بعض الحدائق، وفي الحديقة أسفل الشقة بنى بعض الأطفال بيتاً صغيراً من صناديق وألواح معدنية وكرتونية وأشعلوا بجانبه ناراً أخذوا يتقافزون حولها. أراد ڤيتوريو أن يريه مجموعة أشرطة الفيديو التي يملكها، وهو قد سجل تقريباً جميع أفلام روبرت دي نيرو. لكن اهتمام شتيفان انصب على الكتب المتراكمة على رفوف مكتبة غرفة المعيشة: سيلونِه، ﭘافيزِه، ﭘيرانديلّو، لامپيدوزا...

كان يعرف طبعة الكلاسيكيين الجميلة والرخيصة هذه: «٥٠٠ من روائع الروائيين المعاصرين»، والتي ما زال يصدر منها شهرياً مجلد جديد لا يزيد سعره عن ثمن جريدتين أو ثلاث.

قال إن مجلدي ڤيتوريني وپافيزه اللذين اشتراهما في الصيف الماضي وتركهما في مورا قد تأثرا من رطوبة الشتاء. كان في المكتبة أيضاً دواوين شعر، آثار القراءات المتكررة بادية عليها، لپاسكولي، كاردوتشي، فوسكولو إلى جانب سلسلة من الكتب الكبيرة القطع من نوع Time-life. سأله ڤيتوريو إن كان يعرف فيلم دي نيرو الذي حكى له عنه، لكن شتيفان لم يفهم من عنوان الفيلم بالإيطالية سوى أمريكا. أدخل ڤيتوريو الشريط في الجهاز، فلمعت شاشة التلفزيون عندما شغّله، فضغط جميع الأزرار المحتملة في الجهازين وأخذ يطلق اللعنات ويشتم ابنته.

فجأة ظهر ماوريتسيو في الغرفة عائداً من عمله، لم يبدُ مبتهجاً بوجود ضيوف، كان حصيفاً ومسترخياً؛ لكنه لام والدته في المطبخ لأن الطعام ليس جاهزاً بعد. صاح ڤيتوريو أن التلفزيون قد تعطل مجدداً، فأتى ماوريتسيو وضغط بعض الأزرار فظهرت الصورة واضحة.

خلال تناول الطعام على الشرفة بقي التلفزيون في الداخل مفتوحاً، بدأت الوجبة بكرستيني ثم سباغيتي مع

لحم الخنزير المقدد ثم كستليته مع بطاطا وسبانخ إضافة إلى نوع فاخر من النبيذ الأحمر. لاموا شتيفان لأنه يأكل قليلاً ويشرب قليلاً وكأنه لا يستسيغ الطعام، علماً بأنه قد أكل ثلاثة أضعاف ما يأكله عادة. بعد تناول وجبة السباغيتي اختفت دانييلا قائلة إنها متوعكة.

جلسوا بعدئذ على الأريكة وشربوا نبيذاً ذهبياً حلواً وبراندي، ثم جاء رجل وزوجته من الجيران لزيارتهم. عندما سمع الرجل أن شتيفان نمساوي حاول أن يكلمه بالألمانية، ونجح في ذلك بعد وقت قصير. أعجب شتيفان بكلمة استخدمها السينيور لومباردو أثناء إجرائه مقارنة بين الألمان والإيطاليين، إذ قال: إن الإيطاليين يتصفون بالتقريبية. وأجاب بأن الألمان غالباً ما يصفون النمساويين بالتقريبية؛ علماً بأنهم قد أنجبوا روبرت موزيل وكارل كراوس. أراد ماريو العودة إلى منزله ليعتني بابنيه، لكنهم لم يتركوا شتيفان يغادر معه، ووعد ماوريتسيو بأن يوصله بنفسه.

تحدث السينيور لومباردو عن كارثة الفيضان في فلورنسا قبل عشرين عاماً، أكبر فيضان منذ بدء الخليقة أدى إلى تدمير أعمال فنية أكثر من جميع الحروب مجتمعة. كان سببه قطع الأشجار في شمال وادي آرنو، كذلك التخلي عن

الزراعة المختلطة على المدرجات والمتوارثة منذ آلاف السنين والانتقال إلى الزراعة الأحادية، مما أدى إلى تآكل الأرض الهضبية وراء الوادي.

نحو الساعة الحادية عشرة والنصف انطلق به ماوريتسيو ليوصله إلى داره، كان شتيفان خائفاً نوعاً ما لأن ماوريتسيو قد أكثر من الشراب وكان يقود بسرعة كبيرة. قال ماوريتسيو إن أباه رجل مثقف، عصامي، يعرف الأدب، في حين أنه هو يحب الموسيقا، وأكبر سعادة عنده هي (الموسيقا تأتي أولاً، ثم النساء). أن يسافر إلى أحد أصدقائه في سينالونغا ليشاركه العزف طوال المساء. هو على الكمان وصديقه على البيانو. أعجب شتيفان بكلمة (Suonore) تصويت؛ لكنها تعني في الوقت نفسه رنين الهاتف. دانييلا حامل، قال ماوريتسيو، ولكن عليه ألا يخبر أحداً بذلك في جلّو بيسكاردو. ثم تحدثا حول رواية ڤيتوريني «حوار في صقليا». قال شتيفان إنه لا ينسى مشهد التقاء الراوي على العبّارة نحو مسّينا برجل أراد أن يبيع برتقالاً، كان عاملاً في بيارات البرتقال تلقى أجره برتقالاً. وكيف تحدثا عن البرتقال وكيفية تحضيره حتى كسلطة. ثم وصوله إلى موطنه في الجبال، المطبخ المعتم، والأم التي قلَتْ له سمكة...

أراد ماوريتسيو أن يوصله حتى موقف سيارته قرب مورا،

لكن شتيفان ودّعه في جلّو موضحاً أن عليه أن يمشي قليلاً، وإلا فإنه لن يستطيع النوم بمعدته المتخمة. لكنه ندم من فوره؛ لأن الظلمة كانت شديدة لدرجة أنه لم ير الدرب أمامه حتى بعد أن اعتادت عيناه على العتمة. وأدرك فجأة أنه قد تمكن من محاورة ماوريتسيو في السيارة بالإيطالية من دون أدنى شائبة، وأنه عندما يكون وحيداً ولا يتكلم الألمانية مع أحد، يتعلمها بسهولة بالغة.

بما أن النور كان ما يزال كافياً جلس خارج الدار وبدأ قراءة رواية براتوليني. لم يقف مطولاً عند نص المقدمة الصعب، واكتفى بقراءة أن المؤلف قد ولد في منطقة عمالية في فلورنسا وأنه أمضى سنواته الأخيرة في ڤالدارنو.

عندما توفيت الماما كان عمرك خمسة وعشرين يوماً...

... كان عليه أحياناً مراجعة كلمة ما في القاموس؛ لكن لغة الكاتب شدته إلى حكاية الأخوين اللذين نشأا منفصلين عن بعضهما بسبب وفاة الأم عقب ولادة الثاني. قرر أن يخابر فرانتس غداً، ويسأله عما إذا كانت هذه الرواية متوفرة بترجمة ألمانية. غاب عن محيط الدار، كما غاب عن ذبول نور النهار التدريجي، ونسي أن يستغل هذا النور لتحضير

شيء للأكل في المطبخ. حكى الراوي في الرواية، وهو الأخ الأكبر بخمس سنوات، عن زيارته مع جدته لأخيه الأصغر الذي نشأ في ڤيللا لثري في إحدى ضواحي فلورنسا. استغرب شتيفان لاحقاً، بعد امتداد مدة القراءة، كيف كان بوسعه رؤية الحروف؛ فقد كان عليه الآن أن يضع شمعة على طاولة المطبخ وأن يتلمس بيده مكان علبة الكبريت على رف الموقد.

وعندما مد جذعه عبر النافذة لتناول اللوح الذي وضع عليه الكؤوس وأدوات الطعام لتجف في الشمس، ولكي يغلق درفة النافذة، شاهد فوق الهضبة الجنوبية الشرقية تشكيلاً من النجوم يشبه الساعة الرملية، لم يعرفه سابقاً، وأحس بشيء من الرعب. ذهب إلى وراء الدار ليستوضح ما رآه، ومحى الانطباع الذي تولد لديه بأن ثمة كائناً أعلى يعطيه إشارة. وتذكر فجأة أن هذا التشكيل لا بد أن يكون أوريون الذي لم يره سابقاً بمثل هذا الوضوح. وقف مدة طويلة مأخوذاً، غير قادر على رفع نظره عن هذا المنظر الجليل. بعد الأكل وعندما أخذ كرسيه وذهب إلى الجهة الشرقية كان القمر بدراً تقريباً فوق الهضبة وقد غطى ضياؤه على أوريون الذي خبا التماعه، ومسح جدار الدار بضوء أبيض دافئ. وبعد مرور بعض الوقت عندما قرفص على الحشائش لينظف أسنانه كانت السماء قد امتلأت بالغيوم.

وصل صوت رنين الهاتف إلى الحديقة، اعتذر هاينريش دقيقة، لاسك أنها سلينا ثانية؛ فقد انقطع الاتصال أثناء مكالمتهما قبل نصف ساعة، لكنهما تحدثا عن كل شيء تقريباً. أمل شتيفان أن يتناول الشاي مع هاينريش داخل المنزل، وكان فرحاً بذلك، كما أمل أن يعيره شيئاً للقراءة، وأن يسمح له بقضاء فترة في غرفة المكتبة. لكن هاينريش وما إن حيّاه في الردهة حتى أشار إلى المدخل الخلفي المفتوح، وسبقه إلى الفسحة المكشوفة تحت شجرة الكستناء حيث الطاولة والكراسي. تناول شتيفان من محفظة قماشية مغلفاً من القطع الكبير ووضعه على الطاولة.

جاءت خادمة ووضعت على الطاولة صينية الشاي ووزعت الفناجين، وفي أثناء ذلك أخبر شتيفان هاينريش أنه غالباً ما يبقى يقظاً لفترات طويلة في الآونة الأخيرة، ولا يدري سبباً لذلك، وأنه قرر قبل بضعة أيام وهو في مثل هذه الحالة أن يسافر في الصباح الباكر إلى فلورنسا.

«بالقطار وبدءاً من إنتشيزا، حسبما نصحتني سابقاً (لم أعد مجنوناً لدرجة أن أدخل بالسيارة إلى قلب المدينة، هذا ما قلته)». بينما صب هاينريش الشاي سحب شتيفان الصورة المطبوعة من المغلف ووضعها أمامه، قائلاً: جورجونه مراحل عمر الإنسان الثلاث. فقد خطر بباله أن هاينريش تحدث

عنها مرة. كما أخذ معها بعض البطاقات الفنية. وتحدث عن لوحة زاستّا معجزة الثلج التي تركت في نفسه أعمق الأثر في قصر بيتّي، وأنه لم يستطع الانسحاب بسهولة من أمام لوحة المادونا التي كانت تشع جلالاً لا يصدق، مما جعله غير قادر على مشاهدة لوحات أخرى في قاعات القصر.

تناول هاينريش الصورة المطبوعة بيده قائلاً: «لقد أفرحتني جداً». قبل سنوات كثيرة بعد انتقاله إلى ڤالدارنو بقليل زار مرة قصر بيتّي، وحينذاك تماهى مع المرحلة العمرية الثانية. «أنا الآن عجوز... ماذا تعني إشارة الرجل الناضج بإصبعه إلى الكتابة التي يبدو أن الفتى الوسيم يقرؤها؟ أيريد أن يقول: تعلّم! تعلم مبكراً؟ وجه العجوز ملتفت عن الاثنين الواقفين، يبدو أنه الوحيد الملتفت إلى المشاهد، وكأنه يحذر قائلاً: لحظة الموت... رأس الفتى مائل إلى الأمام، والرجل الناضج ملتفت نحو الفتى وليس نحو العجوز. «فهمتُ لماذا أثّرت بي اللوحة حينذاك» قال هاينريش وتابع: «إذ كنت قد تجاوزت منتصف العمر، وكنت أتوقع مرحلة طويلة أمامي حتى أبلغ عمرهذا العجوز، حتى أبدأ بالتفكير بالموت. هل تفكر أنت بالموت؟».

تناول علبة سكائر من جيب قميصه وتابع: «قبل عشر سنوات ـ أي في السن الذي يتقاعد فيه كثير من الناس ـ كنت

أشعر أني شاب، أسست حياتي هنا في بونتنانو، وتأقلمت، وصار لدي بعض المعارف، ولاسيما إليو، وتصورت أني سأُمضي هنا على الأقل خمس عشرة سنة... فقط عندما يُبتلى الإنسان بأمراض ثقيلة، عندما تصير الحياة معاناة صعبة، هكذا فكرت، عندها يتوجب علي التعامل مع فكرة الموت بجدية».

وضعت الخادمة على الطاولة صحناً فيه كعك صغير طازج محشو بالمربى.

«هل أنت ملتزم؟» سأل هاينريش وتابع: «أنت تعرف أن معظم سكان منطقة راينلاند قد تلقوا العماد على المذهب الكاثوليكي؛ لكن هذا لم يعن لي شيئاً في سنوات يفاعتي. عندما يتعامل الإنسان بصورة جدية مع تعاليم المسيح المتوارثة، عندها طبعاً يصبح تاريخ الكاثوليكية والبابوية كله مهزلة – هذا إن فكر الإنسان فقط بالحملات الحربية لاستعمار العالم وبمحاكم التفتيش. عندما أتذكر والدتي التي كانت تعيش الأعياد والمناسبات الدينية المسيحية مع القديسين، وهي ترى في ذلك سند حياتها الرئيسي والثانوي وعزاءها في الحياة الدنيا، من دون أن تجبر أطفالها على شيء؛ عندها أفكر بأن هذا يوقظ في الإنسان قدرة على التخيل، عالماً متخيلاً، إلى جانب الحقيقي اليومي، بحيث

يصبح هذا العالم المتخيل واقعياً، كما لدى الشعوب القديمة وإيمانها بالآلهة والشياطين الذي ترفضه الكنيسة الكاثوليكية بكل كبرياء بل وتحاربه أيضاً... في حين أنها لا تملك شيئاً في مواجهة حماقات المتزمتين المسيحيين...

أسأل نفسي أحياناً إلى أي مدى كان أناس وكائنات الميثولوجيا الإغريقية أحياء في العالم المتخيل لشعوب ذلك العصر. يقال عن الرومان إنهم كانوا يعيشون في الأسطورة، حتى من يُسمّون منهم البسطاء. ربما كان هذا ما نحاول تعريفه بتعبير عادات الشعوب... في أي رأس ما زال قديسو وشهداء المسيحية الكُثر أحياءً اليوم؟ كم منهم ما زال موضوعاً للفن؟ لكن يبدو حقيقة أننا نتجه نحو عالم يشبه عالم ميكي ماوس. معبودو الجماهير في عصرنا هم المغنون وممثلو السينما أو لاعبو كرة القدم، هكذا يبدو.

من الواضح إذن أن الإنجاز العقلي يتمثل في معرفة كل ما يتعلق بغراميات وشطط هذه الآلهة الجديدة. من يدري؟، هل سيأتي يوم يا ترى يصبح فيه عدد المؤمنين بقيامة إلفيس بريسلي أو جيمس دين أو غيرهما من نجوم الميديا أكثر من عدد المؤمنين بقيامة يسوع المسيح؟ التوق إلى ظهور مخلّص في اليهودية... إذا انطلقنا من النص التوراتي؛ بمعنى أنه حالما يظهر المخلص الحقيقي ستتوقف الحروب، يعني طبعاً

أن المسيح لم يكن المخلّص الحقيقي... واليهود على كل حال لم يؤمنوا بذلك.

في شبابي وحتى أواسط عمري لم أولِ المسائل الدينية أي اهتمام، رغم أني قلت لنفسي إذا كان مثقف كبير وذكي مثل بترارکا مؤمناً بالكنيسة؛ فإن للأمر وزنه، بغض النظر عن كونه ابن عصره، ابن نهاية العصور الوسطى. لكنني أجلت الاهتمام بالموضوع. ليس ثمة (عدا أقلية ضئيلة بين الكهنة والرهبان) من هو مستعد حقاً للعيش وفق تعاليم المسيح، واليوم أكثر من أي وقت آخر؛ فكل شيء غالباً لا يتعدى الرياء، وهو ليس على كل حال نبعاً حياً ينعشنا، يسمو بنا...

(الإله مات)؛ هكذا قال نيتشه. وفي هذه الجملة يكمن أحد أخطائنا الدينية الرئيسية كما يبدو لي. إذ ما الذي يدفعنا إلى القول إن الإله (يحيا) بمعنى حياة شجرة أو جمل أو إنسان على هذا الكوكب؟ يبدو أننا نتصور الإله صغيراً جداً! وكأنه يمكن أن يكون شبيهاً بنا! إن كل ما قيل ونشر عن الرب منذ ألفي سنة ليس سوى تجديف، هكذا كنت أفكر أحياناً... إنه لمن الجنون تصور أنه يمكن بإمكاناتنا العقلية إثبات أو نفي وجود الرب، وهذا بحد ذاته يحط من شأن الرب... يمكن للمرء بتطرف أن يقول: «إن من يستطيع التحدث عن إيمانه بالرب لا إيمان له أساساً»...

عندما فكرت أعظم العقول بـ (الرب) فإنها لم تستطع التخلي عن هذه التصورات الطفولية، قبل سنوات كثيرة أردت أن أبحث في مؤلفات سبينوزا، بدا لي أن ريحاً مختلفة تهب من كتاباته. لسينغ وهو أكثر العقول تحرراً في عصره درسه وغوته كذلك. لكن الوقت لم يسعفني فأجلت الأمر إلى ما بعد... أساساً هناك عدد كبير من الناس على بينةٍ من أن الموت هو النهاية الحتمية: دود، تحلل، تحول؛ بمعنى الخلود ربما، إن كان لهذا الكون أن يبقى أبدياً.

لقد لجأنا نحن البشر إلى عوالم تصورات هرباً من رعب المعرفة أو الحدس بأن هذا الكون ومن ثم الرب غريبان عنا كلياً وسيبقيان كذلك. ربما كنا بحاجة إلى الأديان لكي نحتمل ذلك... على أكثر تقدير إن بوسعنا الحدس بشيء ما، بوجود شيء فوق وعينا، شيء لا يمكن تصوره... نعم، أنا أعتقد فعلاً أن الإنسان يملك لواقط استشعار لما لا يمكن التفكير به، لا يمكن الكلام عنه، ما وراء اللغة والمنطق، شيء نشير إليه بمصطلح ميتافيزيقيا... قد تكون الظواهر الفيزيائية التي نتمسك بها غير واقعية مطلقاً...

هناك أناس يمتلكون بنية نفسية بالغة التطور (مثل جماعة اليوغا الهنود) قادرون على إدراك أمور بحواسهم، نسميها نحن فوق حسية... هناك أصوات عدد ذبذباتها

يتجاوز حدود السمع البشري فلا نسمعها، وهناك بعض ألوان الطيف التي لا نراها... الأديان التي يمكن أن آخذها على محمل الجد ليست أديان عادات الشعوب أو الجماهير المؤمنة، علماً بأن هذه الجماهير قد توجهت منذ وقت طويل نحو أنواع أخرى من الأفيون؛ على حد تعبير نيتشه... أتمنى وجود دين يضحك فيه الإنسان أثناء القداس... لولا شعار (دعوا الأطفال يأتون) لما كانت المسيحية قد حققت هذا النجاح عالمياً أبداً؛ غفران الخطايا والذنوب بمجرد أن يعترف بها المرء لكاهن مؤكداً على إيمانه.

ربما كان النفي طريقاً أفضل لاقترابنا من الرب؛ بمعنى نفي ما ليس فيه. إنه على كل حال ليس شبيهاً بالإنسان، وليس ربَ أسرة رحيم، ولا شخصية حاكم، ولا كائناً طيباً محباً مرشداً مخلّصاً... يرى الإنسان أن الرب أكبر منا بما لا يقاس؛ ألا يحتمل أن يكون صغيراً على نحو لا يمكن تصوره؟ ألا يتوجب على كل جيل أن يحاول التفكير بلاهوته وأساطيره الخاصة بدلاً من اجترار القصص القديمة المرة تلو المرة؟».

قال شتيفان «الفأر الذي حاولت قبل بضعة أسابيع إنقاذه من الأفعى بأن ضغطت بعصا وراء رأس الأفعى التي قبض فمها على الفأر، والذي أمسكته من ثم من ذيله ووضعته في

حوض بلاستيكي على الكرسي كي يسترد أنفاسه؛ أدركني ربما ككائن حي، لكنه أدركني في المقام الأول ككائن خطير. كانت محاولتي بلا جدوى؛ إذ لا شك في أن الأفعى في الليل قد أمسكت بطريدتها المصابة. لنفترض أن هذا الفأر قد عبر الدرب هنا مروراً فوق هذا الجذر، بالنسبة له يستحيل أن يفهم عما نتحدث، وأعمال غوته بالنسبة له أيضاً لن تشكل أكثر من مادة للقرض... في مثل هذه الحالة أتصور أننا نواجه المفكّر فيه الذي نسميه (الرب)... كل مَن أعرفهم تقريباً يعتقدون إلى هذا الحد أو ذاك بوجود آخرة، بحياة بعد الموت؛ بل يؤمن بعضهم بالالتقاء مع من ماتوا، ومع الأرواح الحبيبة التي اشتاقوا إليها، والتي حافظت في العالم الآخر على وعيها السابق، حسب معتقدهم... وكأنه بوسع الإنسان في ذلك العالم الآخر الذي يتصوره الكثيرون مشابهاً لعالمنا هذا أن يستمر كما كان عليه هنا... حاولت في الشتاء الماضي تقصي آثار أبي، آخر خبر وصلنا منه يعود على الأقل إلى خمس سنوات، كان من دير سان جورج في جنوبي تركيا، على الحدود السورية. كنت أحاول أحياناً في الآونة الأخيرة أن أتصور مسار مثل هذه الحياة؛ لا شك أن من يتحملها لا بد أن يكون إنساناً عميق الإيمان. منذ وقت طويل لم أعد ألوم والدي على تخليه عنا. كنت في الحادية عشرة من عمري آنذاك، ووالدتي التي كانت تعاني من مرض القلب، كانت

غالباً ما تقضي شهوراً طويلة طريحة الفراش. لولا دعوتك لي للمجيء إلى هنا، لربما كنت سافرت إلى تركيا... أتخيل كيف كنت سأقف في مواجهته في قاعة الطعام في الدير، وقد صار عجوزاً بلحية طويلة، وليس ثمة ما نقوله لبعضنا..».

تناول هاينريش اللوحة بيده ثانية وقال: «لا أشعر بنفسي غالباً عجوزاً مثل هذا في لوحة جورجونِه، ومع ذلك فإني أفكر أحياناً بمسألة ما الذي قد يحدث لي بعد الموت. هل تعرف رواية سلينا لجان پاول؟»؛ هز شتيفان رأسه نافياً. «إنه نص غريب، قبل إنجازه بسنوات طويلة عالج پاول في كتابه «وادي كاميانيا» موضوعة الموت والخلود. وبعد أن نشره لم يكن راضياً عنه، فبدأ الإعداد لصيغة جديدة بكم واسع من الملاحظات. بعد موت ابنه المفاجئ وبعد إنجازه رواية «المذنّب» بدأ برواية «سلينا». نص غريب... ولكن إن وجد في أدبنا كاتب يمتلك – كما نوهت سابقاً – لواقط استشعار لما هو فوق حسي؛ فلا أستطيع أن أذكر أعظم من هولدرلين. هناك في رواية «هيپريون» بل أكثر في «شذرة هيپريون» مقاطع تشير إلى ذلك، وحتى في بعض أعماله الأخيرة وعندما ندخل بعد قليل سنرى إن كنت سأجد رواية «سلينا» بين الكتب. إن كنت ترغب في قراءتها خذها معك، وأخبرني فيما بعد عن رأيك فيها».

قالت كريستينا إن البطرك سيأتي من أريتزو، ومساء ستقام حفلة. استغرب شتيفان قائلاً: «عندنا في النمسا حسب علمي لا تقام مراسيم التثبيت إلا في عيد الفصح». هل لهذا علاقة يا ترى بأن البطرك هنا في القرى لا يأتي إلا لماماً ؟.

عندما فتح باب الدار في الصباح الباكر بعد مطر الليل كانت المدرجات أسفل الدار غارقة في الضباب الذي كان يتصاعد من قعر الوادي، كانت حركته كوشاحات متعانقة ترتفع إلى الأعالي متلاشية في الهواء. لم ينزل من صنبور حوض الدار سوى خيط ماء رفيع. لم تكن لديه اليوم رغبة بمتابعة طمر الخراطيم في التربة. كانت الحشائش ندية فجرؤ على المشي بلا جزمة حاملاً دلوين إلى النبع لإحضار ماء للجلي. وفجأة وجد نفسه محاصراً بالضباب كلياً، من دون أي صلة بالعالم الخارجي سوى بعض أصوات الشحارير البعيدة. قبل الظهر انقشع الضباب وبخّرت الشمس طبقة الغمام.

نحو الخامسة والنصف بعد الظهر بعد أن جف كل شيء بدأ مشواره مشياً. عندما وصل القرية على الدرب المغطى بأغصان العليق والصاعد إلى دار أنطونيو فيرِتّي وخم دجاجها المهملح التقى في الساحة ببعض المسنين مجتمعين

بثياب الأحد، لكن مزاجهم لم يبدُ احتفالياً، وبالكاد ردوا تحيته. لم يجد ماريو في منزله ولا في ورشة البناء خارج جلّو. في البلدة؛ قالت له لينا التي صادفها مع فتيات أخريات بأثواب بيضاء قصيرة في الساحة أمام الكنيسة. خطر بباله الآن احتمال أن يكون ماريو قد ذهب نحو مورا من دون أن يلتقيا على الطريق، إذ غالباً ما كان يختصر الطريق عبر الأحراج.

استدار وقد قرر أن يمضي المساء على كرسيه أمام الدار، لكنه التقى عند المقبرة بماريو وزوج أخته ڤيتوريو، فقد وصلته أصواتهما أثناء مروره بجانبها. كانا مقرفصين في ظل الجدار الداخلي. كان الجو ما يزال حاراً وكان شتيفان يتنفس بصعوبة، على الرغم من أن قرص الشمس كاد يلامس حواف قمة الهضبة ليجعلها تشتعل. قال ماريو إنهم قد احتسوا كثيراً من النبيذ الذهبي الحلو، وقد أكثروا منه لأن الكعك كان جافاً جداً، إذ حضّرت كل ربة بيت في جلّو كعكتها الخاصة. رأى شتيفان المائدة الطويلة المزدانة بالكعك فوق في ساحة الكنيسة. لا، النبيذ العادي مؤجل حتى المساء.

كان بوسع شتيفان تصور مدى سخرية تلميحات ڤيتوريو لأن ماريو قد أرسل ابنته إلى التثبيت، وجواب ماريو الرادع بأن

إيفا في أريتزو تشارك كل يوم في صلاة الصباح. كاد شتيفان يلوم نفسه على مجيئه إلى جلو بدلاً من قضاء الأمسية وأول الليل على كرسيه أمام جدار الدار؛ لكن إحساسه بالجوع ازداد الآن، لأنه لم يأكل ظهراً إلا خبزاً، وبعض شرائح البندورة مع زيت وعصرة ليمون بانتظار مأدبة الاحتفال.

عندما توجه إلى داره نحو الحادية عشرة والنصف شعر بالأسف لضياع الأمسية، مع أن الجو في أثناء الطعام وقبيل نهاية الحفلة صار مرحاً وصاخباً، في صالة طعام القرية التي لا تفتح أبوابها إلا في مثل هذه المناسبات. جلس البطرك النحيل بجانبه، أمسك بيده ولم يعد يتركها، أخبره عن سفراته إلى بامبرغ وڤورتسبورغ، وكلما استرسل في الحديث كانت ألمانيته تتحسن. لاحظ شتيفان الضحكات الساخرة التي كان ڤيتوريو يرسلها عبر الطاولة. رفعوا نخبه وسألوه عن أحوال الخنازير البرية وعما إذا كانت قد التهمت كوساه، وأحس تدريجياً كأنه ينتمي إلى هذه الأجواء. عبر المائدة سألته شقراء ممتلئة حيوية عما إذا كان يشعر بالخوف عندما يمر بجانب المقبرة ليلاً. وبعد الوجبة الرئيسية أخذت تخبط بطوق شعرها على المائدة صائحة: «حلو يـ.... يات، حلويـ.... يات...!».

على طريق العودة كان الظلام مطبقاً فالقمر ما زال وراء

الهضبة الشرقية، وكاد مرة أن يتخطى حافة الدرب ويهوي على المنحدر المشجر، على الرغم من أنه كان يسترشد بتاج شجرة الصنوبر الهائلة الذي يبرز مميزاً على صفحة سماء الليل، عندها ندم لأنه لم يأخذ مصباح جيب ماريو عندما عرضه عليه.

وبعد أن نام لاحقاً استيقظ مرتعداً لسماعه ضجة عالية؛ هل دخل خفاش ثانية إلى الداخل تحت جنح الليل؟ إذ إنه قبل أن يخلد للنوم فتح جميع النوافذ كي يحصل على مزيد من الهواء. نهض كي يطرد الخفاش، وإلا فإنه لن يتمكن من النوم ثانية. سلط نور مصباح الجيب على عوارض سقوف جميع الغرف إلى أن وجد الخفاش في الغرفة الأمامية، في الأعلى بين العارضة والجدار؛ وكان قد قلص حجمه وانسل داخل الشق، وكانت عيناه ترقبان شتيفان برعب عندما ركز هذا النور عليه. هل هو مصاب بأذى يا ترى؟ فتح جميع النوافذ وضرب عصا المكنسة بالعارضة، لكنه لم يتحرك من مخبئه.

وعندما ذهب لإغلاق النوافذ رأى نور القمر يغمر المرج بزرقة أسطورية، رفع القفل وهو يتثاءب ونزل الدرجات. كان الجو في الخارج بارداً، سمع من هنا وهناك أصوات بعض صراصير الحقل. رأى الكرسي على جدار الدار، وتذكر أنه

قد فوّت عليه أمسية البارحة. رأى على المنحدر المقابل الأسود المزرق خارج جلّو نوراً ضعيفاً يلتمع. لاشك أنه في مزرعة آل بيندي، التي لا ترى نهاراً لاختفائها وراء حقل الزيتون. تناول غطاء من الداخل وجلس على الكرسي، وشعر بسعادة لقدوم المساء التالي حين ستحلق طيور السنونو حول الدار في طيران منخفض انقضاضي.

على طريق العودة ليلاً فكر: كم إنساناً أعرف ممن يمكن أن أجلس معهم هنا من دون أن يؤدي هذا إلى تعكير المزاج؟ هل سيصل يوماً إلى حد الشبع يا ترى من البقاء هنا ومعايشة تبدلات النور والألوان والأصوات؟ كلما أطال مساء النظر باتجاه سلسلة المرتفعات المحيطة بجلّو، كانت منحدراتها مأهولة ومزروعة، في حين كانت الهضبتان شبه الدائريتين قبلها غزيرتي الأشجار، كان يفاجأ بمشاهدة أشياء لم يسبق أن شاهدها أبداً: الحقول الضيقة المبنية على شكل منحدرات وبساتين الزيتون، وأشجار البلوط والكستناء والكروم. لكن أكثر ما كان يحبه هو التملي من أشجار الزيتون أمامه مباشرة؛ هياكلها المليئة بالنتوءات والعقد وأغصانها المتداخلة ذات الامتدادات العجيبة الأشكال التي تبدو كأنها تتحادث.

عندما يراقبها بما فيه الكفاية ويتوقف عن التفكير

في أمور أخرى كان ينتابه شعور للحظة أحياناً بأنه يدرك جوهرها، من دون أن يكون قادراً على ترجمة ما تعبر عنها بالكلمات. جذورها ذات التجاعيد وجذوعها المتمايلة كانت تتلألأ مساء بالتماعات فضية رمادية زرقاء. إنه لن يمل أبداً من النظر إليها لمراقبة تحولات مظاهرها، حتى تذوب نهائياً في سواد الليل، ولا يتبقى سوى ذؤاباتها سامقة فوق كتلة الهضبة السوداء، على خلفية أقل سواداً من صفحة السماء، وكأنها نسيج عنكبوت دقيق.

رأى في الشرق فوق ذروة الهضبة التماعاً مضيئاً، ثمة بوم ينعب من وراء الدار. غريب كيف تعود بمرور الوقت على كل هذه الأصوات؛ فلم تعد تخيفه كما في الليالي الأولى، عندما كان يسمع أصواتاً على السطح أو قرقعة ألواح القرميد، أو عندما ينطلق حيوان ما عبر الأغصان المطقطقة تحت نافذة غرفة النوم، أو أصوات كيس القمامة المصنوع من نايلون بسبب فأر ينبش فيه؛ لأنه نسي تعليقه على عارضة سقف المطبخ. انطفأ النور عند آل بيندي. وفجأة ارتعد من فكرة أنه لم يعد هناك بشر في جلّو، ولا وراء الهضاب والجبال، وأنه الإنسان الوحيد المتبقي في العالم، ولم يعد هناك بعد من يمكن أن يتواصل معه.

مهما كان حبه للمنظر الطبيعي والاستغراق في مشاهدته

حتى نسيان الذات، فإنه لا يشعر به في لحظات معينة أكثر من شيء ماثل في مواجهته، لكنه لا يكفيه للحياة. أن يكون آخر إنسان على الأرض؛ هذه الفكرة جعلته يرتجف رعباً. نهض، شد الغطاء عليه وأخذ يتمشى أمام الدار جيئة وذهاباً، ثم تناول من الداخل دفتر الملاحظات وقلم رصاص ليسجل انطباعاته. لكنه لم يعد قادراً الآن على استعادة لحظة الرعب، عاودته الثقة بوجود بشر آخرين وراء الهضاب. وفكر عندما جلس مجدداً بغرابة أن مونيكا لم تخطر بباله، وإنما ماريو وناردو ماريني، كي يتحدث معهما حول الطقس أو حول أعمال الترميم التي ما تزال ضرورية للدار. وحتى لو امتلك وحده لوحة «العذراء ذات العباءة» بريشة پييرو أو لوحات كبار فناني سيينا، بل حتى المدينة العتيقة في پيروجا مع النافورة الهائلة، فإنه لن يشعر بالسعادة إن لم يستطع إخبار أحد ما بما يعايشه.

ازدادت أطياف الأشجار وضوحاً على خلفية صارت أشد ضياءً. سمع من جهة طريق المعبر وعبر الغابة صوت ناقلة بثلاث عجلات وقد أرهقها الصعود. سيلوح الفجر، والشمس ستشرق، وهناك بشر في هذا العالم.

أحس بقشعريرة برد، فصعد درجات الدار. بدا على الأقل أن البرودة قد أعاقت البعوض عن الطنين حوله ووخزه.

حمل الكرسي إلى مكان متقدم على المرج، أداره والتفت باتجاه واجهة الدار. أدهشه وجود شريط مضيء على امتداد الجانب اليساري لجدار الدار، فنهض ليرى ما الأمر؛ كان ضوء القمر الذي بدأ يسطع على الجانب الجنوبي الشرقي من قمة الهضبة. لمس بيده الجدار الذي غمره الضوء فشعر به دافئاً – على الأقل هكذا تخيل.

أكانت هذه خطوات أمام الدار؟ جلس في سريره وأنصت. هل دفع المغلاق إلى مكانه؟ عندما التفت نحو زاوية النافذة تبين له أن ضياء الصبح قد انتشر ملوناً السماء بالبياض فوق الهضاب. لكن قبة السماء ما زالت سوداء مزرقة تلتمع فيها بعض النجوم المتفرقة. لقد تجاوزت الساعة الرابعة والنصف؛ هل سيتمكن من النوم ثانية يا ترى؟ في أثناء الليالي الأولى في مورا، عندما كان يستيقظ أحياناً في منتصف الليل، وينصت إلى الأصوات في الخارج، كم كان يتوق إلى قدوم الصبح! ويا لها من سعادة، عندما يفيض نور الشمس الباهر إلى داخل الدار ليمحو من الذاكرة الأصوات والتصورات المرعبة، وكأنها لم تكن قط.

على درج منزل ماريو التقاه نازلاً فبادره هذا بالسؤال عما إذا كان يريد استخدام الهاتف، وفيما إذا كان بوسعه تأجيل

الأمر؛ فمساء البارحة هوى ڤيتوريو في سيارة صديقه جورجو إلى الجدول عند منعطف مخرج القرية. جورجو كان يقود السيارة. كانا سابقاً عند ماريو في قبو نبيذه في جلّو، حيث فتحوا بعض الزجاجات القديمة جداً وتذوقوها، وقد شكك ڤيتوريو في كون هذه الزجاجات ما زالت صالحة للشرب.

لم يكن الأذى كبيراً؛ لكن ڤيتوريو موجود في المستشفى، وقد عاد ماريو لتوه من زيارته هناك، ڤيتوريو فقد محفظة جيبه، وتابع قائلاً: «ما رأيك أن ننزل ونلقي نظرة على الفيات، إنها منقلبة على ظهرها». أخذا الدرب المختصر خلف دار آل فيرِتّي وتسلقا المنحدر نزولاً. تذكر شتيفان عندما أراه ماريو قبو نبيذه في السنة الماضية. كان قد دخل مزاداً قبل ست أو سبع سنوات، وفاز فيه بمئة زجاجة من أفضل أنواع النبيذ التوسكاني وبسعر زهيد جداً، آملاً من وراء ذلك بصفقة رابحة. لكنه لم يستطع أن يبيع سوى بعض الزجاجات، وفي أثناء ذلك لم يعد النبيذ صالحاً للشرب.

عند وداعه في الصيف الماضي أهداه ماريو ثلاث زجاجات من نوع برونِلّو دي مونتالتشينو سنة ١٩٥٩، لكن واحدة منها فقط كانت صالحة للشرب. أثناء عبورهما صفي أشجار السرو التي لا تصلها أشعة الشمس قال ماريو إنه مهموم بسبب جانّي الذي عليه في أيلول (سبتمبر) أن يقدم امتحاناً

تكميلياً، وهو يخشى أنه لن ينجح. تذكر شتيفان كيف أصيب ماريو وڤيتوريو بنوبات ضحك عندما مروا في الصيف الماضي من هذا الدرب، وأشار شتيفان إلى أكياس القمامة التي يرميها بعض سكان القرية أو سائقو السيارات العابرة بكل بساطة نحو المنحدر فتعلق في أغصان الشجيرات والأشجار، لكنه أخطأ التعبير بالإيطالية فقال أكياس فراشي الأسنان عوضاً عن أكياس القمامة.

وصلا إلى مكان مضيء وأخذ الدرب يصعد بقسوة وكانت حجارته بارزة وخشنة، وبعد أول منعطف نحو اليمين أشار ماريو إلى أسفل المنحدر حيث وقع الحادث. كان هناك شجيرات متكسرة وأغصان منثنية. قال شتيفان إنه عندما يذهب بالسيارة لشراء البضائع فإنه يخشى دائماً هذين المنعطفين والجزء المنحدر، لذلك فإنه ينزله بالسرعة الأولى وقدمه على المكبح. وقال ماريو إن ڤيتوريو قد أراد قبل الذهاب إلى منزله أن يمر سريعاً بالمقبرة. وجورجو زميله في العمل لم يصب بأذى.

هبطا وقفزا متجنبين الشجيرات والأغصان حتى القعر حيث وجدا السيارة على ظهرها وأبوابها مفتوحة في الجدول الجاف تقريباً. كان ممر الجدول مسوراً على الجانبين بالقمامة: قوارير بلاستيكية مثقوبة، زجاجات زيت، علب

معدنية، أوعية مستحضرات تجميل... زحف ماريو إلى داخل السيارة الفيات، لكنه لم يجد شيئاً، بحثا في المنطقة المحيطة وحركا أكياس القمامة بالعصي. لم يعد شتيفان قادراً على تصور أن بإمكان الإنسان، كما يقول أهل جلّو، اصطياد السمك في الفرع السفلي من نهر أوريناكيو الذي يمر تحت مورا.

في منزل ماريو لاحقاً اتصل شتيفان هاينريش ببونتنانو، فأخبره هذا أنه يعاني من الحر، وفي الليل خاصة. ستصل سلينا يوم الأحد؛ فهل باستطاعة شتيفان استقبالها في المحطة؟ سيارة ألساندرو في التصليح. إريش، زوجها سيأتي بعد أسبوع بسيارته.

في أثناء جلوسه على المقعد تذكر ساڤِريو العجوز الذي توفيت زوجته في الشتاء والذي وضعه أبناؤه الذين يعملون في روما في دار المسنين في فيبوكي. كان كل يومين أو ثلاثة يغافل الممرضة ويتمشى نحو جلّو، وذات مرة خرج بثوب الحمام، ثم جلس على المقعد عند منزل ماريو، حتى تتصل فورتوناتا دار المسنين فتأتي السيارة بعد نصف ساعة لأخذه.

صباحاً شد حبل غسيل بين شجرة البلوط اليافعة وشجرة

الزيتون القريبة منها، كي ينشر عليه أغراض السرير لتهويتها. حمل كل شيء إلى الخارج، نفض البياضات والغطاء، وفي أثناء تعليقها رأى جيشاً من النمل وقد اعتلى الحبل صاعداً من شجرة البلوط باتجاه شجرة الزيتون. حاول في الأسبوع الماضي من دون جدوى القضاء على النمل بوساطة ثمالة القهوة المحلاة، حسبما نصحته كريستينا، عندما هاجمت جحافل من النمل شجرة البلوط المشققة وتسربت تحت قشرتها.

تناهى إلى سمعه من الشارع العلوي عبر الأشجار صوت دراجة نارية، عندما وصلت إلى المنعطف الأخير قبل موقف السيارة عرف أنها دراجة أنطونيو العتيقة ماركة غوتسي، نزلت الدرب متعثرة حتى الدار، ثم مشت على المرج براحة مثل تركتور وأنطونيو مؤرجحاً ساقيه كمجذافين على الدراجة ذات الحصان الواحد. لم يترجل أنطونيو؛ بل قال إنه مسافر يوم الجمعة بعد الفطور نحو لاڤرنا، فهل يرغب شتيفان بمرافقته؟ إذا جاء إليهم في السابعة والنصف فسيشاركهم الفطور. راجع شتيفان مؤخراً المسافة على الخريطة: طريق السفر يمر عبر تالاّ وراسينا حتى بيبيينا حتى يتفرع الطريق باتجاه الجبال. لم تبد بعيدة عن كاپريزه ميكل آنجلو. فكر أن يسأل أنطونيو عما إن كان باستطاعتهما العودة عن طريق كاپريزه.

لم تكن لديه رغبة بعد الظهر بطلاء الحظيرة الصغيرة بالكلس والتي أخلاها بالأمس، كي يسد الثقوب في الجدار الحجري. أخذ معه إلى الخارج رواية پراتوليني وجلس في الجانب الظليل من جدار الدار؛ لكنه سرعان ما شعر بتعب شديد منعه من القراءة، وفجأة رأى أمامه القطة البرية التي سبق أن تسللت عدة أمسيات من حول الدار، كانت تراقبه من مسافة آمنة. لم تستجب لموائه الخافت الذي حاول به جذبها نحوه. ذات مرة في الأسبوع الماضي رآها عند الغسق عبر نافذة غرفة النوم. كان قد أخرج لحم الخنزير من لفافته وقطع منها عدة شرائح صغيرة، وضعها في صحن صغير واقترب منها، فإذا بها تختفي في الدغل بقفزة واحدة. عندما ثبت نظره على الصحن عبر النافذة رأى القطة تقترب متسللة بهدوء، مدت رقبتها، تشممت، خطفت قطعة صغيرة وقفزت بها عبر الحشائش العالية. فصار كل مساء يترك بقايا الطعام في الصحن، لكنها لم تظهر إلا كل ثاني أو ثالث مساء. ولم يتحقق أمله بأن تفقد خشيتها منه بالتدريج.

كان ما يزال مستلقياً في السرير عندما سمع طلقة رصاص في الغابة، فتذكر جمعية الصيد من شهر أيلول (سبتمبر) في السنة الماضية. تبع الطلقة صداها، تذكر فجأة أنه يوم السبت الأول من شهر آب (أغسطس)، وهو اليوم الذي

ينعقد فيه سوق المصنوعات المقلّدة في ساحة أريتزو، وقد فاته هذا اليوم مرتين سابقاً. وفكر بأن يزور كنيسة سانتا ماريا الجميلة الواقعة على مسافة ثلاثة كيلومترات خارج المدينة، والتي كانت صورتها مطبوعة على صفحة تقويم قديم في ردهة منزل ڤيتوريو، وهي بناء مسطح يوحي بالقدم يعود إلى مطلع عصر النهضة، بني فوق نبع مقدس عتيق، ومزود قبل المدخل بمجموعة من الأعمدة الرشيقة، حسبما قرأ في الدليل السياحي.

عند الساعة العاشرة دخل الساحة الكبرى قادماً من شارع المشاة، وهي ساحة كانت تبدو دائماً صغيرة مقارنتها بمثيلاتها في مدن أخرى مثل سيينا؛ لكنها كانت الآن ممتلئة. فكان يرى في كل مكان طاولات تزيين وخزانات وطاولات وأرائك وكراسي، وكلها تقريباً مطلية بطبقة لاكر إما سوداء وإما بنية قاتمة. بدأ جولة عبر الممرات المزدحمة بالناس. كانت كنيسة سانتا ماريا التقية وقصر الدومينيكان الآن في ضوء الشمس، في حين كانت الأبنية على طرف شارع المشاة مغطاة بظلال كئيبة.

أخذ يقلّب صفحات أعمال حفرٍ فنية بنية قديمة كانت إلى جانب نظارات وغلايين وفناجين قهوة وأدوات طعام فضية على طاولة واحدة، عندما أحس بيد على عضده

وصوت يقول: «جميلة، أليس كذلك؟» كانت لورِتّا التي بدت جميلة في ثوب أصفر مورد. كانت وحدها وتحمل بيدها كيساً بلاستيكياً ثقيلاً مليئاً بالخضار، سألته إن كان يبحث عن شيء محدد، فقال لا؛ بل هو يلقي نظرة لأنه لم يكن هنا سابقاً أبداً، لكنه قد يحتاج إلى كرسيين مريحين، بيد أن ماريو استعار منه مشبك سطح السيارة الأسبوع الماضي من أجل نقل ألواح خشبية، ولم يعده بعد. فقالت بأنها قد جاءت أيضاً بقصد المشاهدة كالعادة، وقد شاهدت كرسيين أعجباها جداً؛ فعليه أن يتبعها.

عندما وصلا إلى الكشك وجدا المالك أو البائع جالساً على أحد الكرسيين يقرأ جريدة. جرب شتيفان الجلوس على الكرسي الثاني وارتاح عليه لدرجة الدهشة؛ لكن الغلاف الجلدي كان مشققاً هنا وهناك. تصور أن يجلس مساء أمام الدار على هذا الكرسي. وكان رأي لورتّا أن عشرين ألف لير للكرسيين ليس سعراً غالياً، فأجاب بأنه يحمل معه هذا المبلغ، ولكن ماذا عن النقل؟ صندوق سيارته لن يسع كرسياً واحداً. نهض البائع وقال إنه لن يبيع إلا الكرسيين معاً. وقالت لورتّا إن سيارتها الرينو مزودة بمشبك تثبيت؛ صحيح أنها سيارة صغيرة لكنها واسعة بما يكفي، وأن على شتيفان أن يعرض على البائع ستة عشر ألفاً أول الأمر.

وعندما تصور أنه سيملك أخيراً كرسياً للجلوس مساء، وافق. اقترحت لورتا أن تجلب سيارتها عبر شارع المشاة إلى أقرب نقطة ممكنة من الساحة، لكن هذا سيستغرق بعض الوقت لأن سيارتها موجودة في موقف محطة القطارات، لذلك يمكنه أن يتابع جولته ثم يحضر الكرسيين إلى البار. رأى شتيفان ثلاثة رجال يحملون كراسي مشابهة، لكنه في البداية لم ير سوى أرجل الكراسي تعبر أمامه.

سألت لورِتّا شتيفان عما إذا كان يريد مرافقتها لتناول طعام الغداء في مكان ما. إنها حرة اليوم وابنها إنزو يمضي إجازة نهاية الأسبوع عند صديق في لاترينا، ولن تذهب لإحضاره إلا بعد ظهر الغد. هناك حانة ممتازة في بيبّيينا، «ثم نعود إلى الدار عن طريق تالاّ، أم أنه ليس لديك وقت؟»؛ قالت لورتا. فأجاب شتيفان بأنه في حاجة فقط لشراء بعض الأشياء للغد؛ لكنه يستطيع أن يفعل ذلك في بيبّيينا أيضاً. قالت لورتا إن عمتها آنّا تسكن وحدها في بيبّيينا، وهي تود أن تزورها خمس دقائق، لأن آنّا ستزودها ببعض أوعية النباتات الفائضة عندها. وأثناء ذلك يمكنه أن ينهي مشترياته، أو يمكنه الذهاب معها أيضاً. على طريق السفر وهو يتبعها في سيارته داهمه الضحك بعد أن تجاوز حدود المدينة وهو ينظر إلى الكرسيين المحزومين على سطح سيارتها.

عندما نزلا – هو في السيمكا أمامها – الدرب إلى مورا بمنتهى البطء كانت الساعة الخامسة والنصف. في بيبّيينا سألته لورتّا عدة مرات إن كان عليهما المغادرة؛ لكنه كان يهز رأسه نفياً، فقد أعجبه الجلوس، والقطة السوداء في حضنه، في شرفة السينيورا آنّا المحاطة بالزهور من جميع جوانبها. قبل كثير من السنوات بعد وفاة زوجها دخلت السينيورا أحد الأديرة لتمضي فيه ما تبقى من عمرها، لكنها لم تتحمل الحياة هناك.

بعد ذلك بقي شتيفان ساعتين مع لورتا في الحانة لتناول الغداء، وكرر عدة مرات: «إنها أفضل لزانيا تذوقتها في حياتي!». بدأت لورتا أثناء الطعام تحكي له عن زوجها الذي ولد في جلّو، «إنه مهووس بالسيارات»، وتابعت: «إنه ليس إنساناً سيئاً؛ لكنه كلما كان يترقى في منصبه في البنك كانت قدرته على المقاومة تضعف. كان لا بد له من الحصول على (BMW)». وأنهما تعارفا في حفلة عرس في راسّينا، إنها تفضل الانتقال مع إنزو إلى بيبّيينا والبحث عن عمل هناك. قبل أن تأتي إلى جلّو... «هل رأيت منزلنا بجانب الكنيسة؟ كان عليك أن ترى الغرف» وتنهدت. لم يكن في رأس توماسو سوى السيارات... قبل ذلك اشتغلت في مكتب في أريتزو وكان لديها منزل صغير جميل...

فكر بأن ما سيحدث الآن سيكون جميلاً جداً، ورفع جذعه قليلاً عن كرسيه وقرّبه من كرسي لورتا، الأمر الذي لم يكن بهذه السهولة وكأس النبيذ بيده. حدث ما لا يمكن إيقافه بعد. قرّبت لورتا كرسيها منه؛ لكنها ناولته كأسها أولاً. وكان عليه الآن أن يباعد ساقيه كي يقترب منها أكثر، وكي يفسح مكاناً للورتّا وكرسيها. وفكر لو رآنا أحدهم في هذه الوضعية.

حل الغسق، طلبا مع الطعام في بيبّيينا نصف زجاجة نبيذ أحمر؛ لكنهما شربا الزجاجة كلها، وها هي الآن الزجاجة الثانية قد فرغت، ولكن يستحيل الآن أن يتركها وحدها ولو خمس دقائق، ولا سيما أن في كأس كل منهما نبيذاً بعرض أصبعين. ثم وصلا تلك النقطة، الكرسي ملتصق بالآخر، باعدت فخذيها وجلست في حضنه، وأخذا يقبلان بعضهما من دون أن يتخلل ذلك أي كركرة أو ضحك، كيلا يسمعهما أي عابر على الشارع العلوي.

ربت على وجنتها وقال: «أنت تعجبينني... أنت... مثيرة... جداً»، وأخذ يدها ووضعها على قلبه، همست: «اسمع... عزيزي»، ووقفت على قدميها على الأرض قائلة: «لم ترني دارك بعد، هل لديك سرير أيضاً؟». «كلي رغبة أن أريك سريري.. سريري الضيق»، ونظر وهو ينهض نحو

السيارتين الواقفتين في المدخل فرأى على الزجاج الأمامي للسيمكا انعكاس شيء ما. وبينما كانا يقبلان بعضهما على الدرج متعانقين، ويداه تضغطان ردفيها، فكر: أرجو ألا يأتي الرجال من جلّو اليوم، وخطر بباله بسرعة أن يقود سيارة لورتا على المرج حتى المكان الذي فيه مرحاض الخلاء، كيلا يراها أحد؛ ولكن عندما دخلا الدار أغلق الباب وراءه وأوصده بالقفل.

«أتريدين ضوءاً؟»؛ سألها «أأشعل لك شمعة؟» فهمهمت كلاماً غير مفهوم، أغلق نوافذ الواجهة الأمامية وأخذها إلى الغرفة الغربية الأكثر إضاءة.

واجه عند جدار المقبرة ثلاث سيارات جيب برجال يرتدون ثياب الصيد، فالتصق بالجدار، وفي تمام الساعة السابعة والنصف قرع باب آل فيرتّي، لم ير على الطاولة ما يوحي بطعام الفطور، وتذكر أن كثيراً من التوسكانيين لا يتناولون صباحاً سوى القهوة، وربما مع قطعة معجنات تكون غالباً مشتراة من السوبر ماركت معبأة بكيس نايلون مفرغ من الهواء. قالت له كريستينا إن أنطونيو في قبو النبيذ، ثم ملأت جهاز الإسبرسو بالماء؛ فهو أبسط وأفضل طريقة لتحضير القهوة حسبما سمع مراراً وتكراراً، وأشعلت الغاز.

في أثناء تناولهما القهوة أخبره أنطونيو عن المرحلة التي اشتغل فيها ماريو عامل طرقات في فرنكفورت، وأن ماريو لا يأتي على سيرتها إلا لماماً، وأنه لم يحتمل الوضع أكثر من سنة، وقد عانت زوجته مع الطفلين الصغيرين كثيراً بسبب الوحدة.

لم يسافرا كما خمن عن طريق معبر لاكروتشينا نحو تالاّ ليتابعا من ثم نحو راسّينا. شرح له أنطونيو أن عليه التوجه أولاً نحو أريتزو كي يملأ الخزان بالوقود. ففكر شتيفان بأن الوقود لا يمكن أن يكون في أي مكان أرخص من أريتزو ليستحق هذا الالتفاف المطول. ولكن عندما دخلا في ضاحية أريتزو وفي المنطقة الصناعية، إلى باحة معمل وملأ الخزان من محطة وقود المعمل ووضع شيئاً في يد العجوز غير الحليق، فهم شتيفان الأمر. تابعا سفرهما الآن عبر كاسنتينو على طول نهر آرنو إلى بيبّيينا. فجأة زاد أنطونيو سرعة السيارة؛ إذ أن القداس سيبدأ في العاشرة.

سأل شتيفان عما إذا كان يتردد على الكنيسة لتناول القربان، وكاد أثناء ذلك أن يلمس برأسه الزجاج الأمامي محنياً ظهره إلى الأمام وهو يسوق الفيات الهرمة بسرعة عبر المنعطفات لدرجة أن بدأ شتيفان يشعر بالخوف. ثم سأل شتيفان عما إن كان سيبقى هنا حتى تاريخ ١٧ أيلول

(سبتمبر)؛ ففي ذلك اليوم سيقام في لاڤرنا قداس خاص احتفاءً بالقديس فرانتس. السابع عشر من أيلول يعد في لاڤرنا عيداً عظيماً، فمن يموت في هذا اليوم يذهب مباشرة إلى الجنة، من دون المرور بالمطهر أولاً.

التفّا حول مدينة بيبّيينا، في حين كان شتيفان راغباً جداً بالترجل والتجول ودخول أحد المقاهي لتناول الفطور ثانية، ومع ذلك كان سعيداً لاضطرار أنطونيو إلى تخفيض السرعة كثيراً عند بدء طريق جبلية كثيرة المنعطفات وصاعدة في بعض مواضعها. بعد بضع كيلومترات شعر بحاجة إلى الإقياء، وعندما كاد أن يرجوه التوقف لأنه مضطر إلى قضاء حاجته، رأى شاخصة المنطقة. غير أنه أخطأ، فما كُتب على الشاخصة عند مخرج المنطقة كان كيوزي ديلاّڤرّنا. بدا المكان مرتباً ونظيفاً. «إنه منتجع» قال أنطونيو «لم يعد المكان بعيداً الآن».

في البداية خاب أمله بعمارة الدير الهائلة. بدا المبنى الريفي الطراز وكأنه قد شيد في القرن التاسع عشر، وبدا أيضاً حديث الترميم، في حين ولّدت لديه الكنيسة التي تعود إلى القرن السادس عشر انطباعاً مؤثراً. أسرع أنطونيو بالدخول باتجاه كراسي الاعتراف مشيراً إلى شتيفان كي يتبعه. توقف عند الحجرة الأولى وشخص بصره إلى

شتيفان الذي رضخ وفتح باب الحجرة الثالثة. حاول الكلام عبر الشبك؛ لكن الكاهن لم يفهم شيئاً، ارتبك شتيفان ولم يعد ينطق بحرف، آملاً بأن يتركه الكاهن لشأنه، لكنه قال له بنبرة آمرة بأن عليه الانتظار لأنه سيحضر كاهناً يتكلم الألمانية.

لم يكن حال الكاهن الجديد أفضل من سابقه، اعتذر شتيفان وخرج آملاً بأن يكون قد غاب عن نظر أنطونيو. شيئاً فشيئاً أخذت الكنيسة تمتلئ، وفجأة في الزحمة ربت أنطونيو على كتفه وكأنه يود أن يقول له: حسناً فعلت. لم يجدا أمكنة للجلوس. لفتت انتباه شتيفان لوحات الحفر النافر بطراز مايوليكا على الجدار بجانبه والذي كان بين حين وآخر يستند إليه. كان يعرفها من صورها في مجلدات فنية، لكنه لم يتذكر اسم الفنان. على الرغم من ادعائها الزائف من حيث المظهر لكنها كانت تنم عن صنعة فنية عالية. كانت خلفية اللوحات ذات زرقة مشبعة وثابتة، في حين كانت ألوان الشخوص عاجية غالباً.

(عند المغادرة فيما بعد قرأ على لوح بجانب البوابة أنها من أعمال أندريا ولوكاديلاّ روبيا). في أثناء القداس عبَر صحن الكنيسة موكب مؤلف من رهبان؛ لكزه أنطونيو لافتاً انتباهه إلى راهب شاب بدا لطيفاً وجذاباً، وهمس له إنه

فرانشسكو من فلورنسا، من أقرباء كريستينا البعيدين، وعندما توجه أنطونيو كالآخرين نحو المذبح لتلقي القربان تبعه شتيفان.

في أثناء انتظارهما تقديم الحساء في قاعة طعام الحجاج كان شتيفان قد أكل كل الخبز الموجود في السلة، شرح له أنطونيو أن الراهب الشاب فرانشسكو كان يؤدي خدمته العسكرية في مدينة بولونيا عندما وقع الهجوم الإرهابي المروع، وقد فُرز إلى مجموعة المساعدين لانتشال الموتى والجرحى. وتحت تأثير هذا الحدث لم يتسلم بعد العسكرية شركة عمه لصناعة المشروبات في پراتو؛ بل دخل دير سان ماركو في فلورنسا. في الردهة بعد الطعام حيث تناولا الإسبرسو التقيا بفرانشسكو الذي بدا شاباً ودوداً في رداء راهب فرنسيسكاني. وعندما مد يده مصافحاً شتيفان وعلى وجهه المرح ابتسامة مشرقة لم يستطع شتيفان إخفاء تأثره. وفي الوقت نفسه لم تغب لورتّا عن باله طوال النهار.

أراه أنطونيو المغارة الصخرية التي نام فيها القديس فرانسيس خلال إقامته في لاڤرنا، وكانت لوحاً حجرياً يقع مباشرة تحت كتلة صخرية هائلة ناتئة، أخافت شتيفان الذي شعر بالفرح عندما خرجا مجدداً إلى الهواء الطلق. كان هناك حول الهضبة الصخرية عند المنحدر مباشرة

درج حجري ملتف حولها. يبدو ألاّ قاعَ لهذا المنحدر؛ ومن ثم يمتد النظر نحو المدى البعيد في كاسنتينو. تمشيا بعد ذلك في الغابة المجاورة، وخلال ذلك كان شتيفان يحسب الزمن المتبقي لوصولهما إلى الديار، وفكر بالذهاب بعد الظهر لشراء البضائع، وفجأة قال له أنطونيو إن عليهما الانتظار حتى الساعة الرابعة؛ إذ إن لديه مقابلة مع الأب غارديان، وتابع غامزاً بعينه فاركاً خده غير الحليق بقبضته: «إنهم يريدون مني المزيد من المال». وبخيبة أمل حسب شتيفان أنه لن يصل إلى داره قبل الغسق، وإضافة إلى ذلك بدأت السماء الآن تمطر. اقترح أنطونيو الجلوس في السيارة.

اشترى من محل الخرداوات في سان جوستينو كيلوين من الإسمنت وكيلو من الرمل الناعم كي يسد الثغرة في جدار الدار بجانب مدخل الورشة والتي توسعت منذ السنة الماضية. وفكر باحتمال أن يكون هذا الشق قد حدث بسبب زلزال خفيف. عزق بعد ذلك الحشائش والأعشاب عند الطرف الشمالي من المدخل. لاحظ عند حافة الدار نحلة طنانة كبيرة تحاول تسلق الجدار زحفاً. بدت مصابة؛ لم تستطع تجاوز ثلاثة أمتار صعوداً ثم فقدت توازنها وسقطت نحو الأرض. لم تستسلم، بل حاولت المرة تلو الأخرى، وكانت تحاول أحياناً لجمع قواها أن تخفق بجناحيها؛ لكنه لاحظ أنها فقدت أحدهما. هل لديها عش يا ترى تحت قرميد السقف تحاول الوصول إليه؟.

بدا كأن سيارة قد توقفت فوق في منطقة موقف سيارته. عبوة زجاجات المياه المعدنية الست وكيس ثقيل مملوء بالخضراوات وبعدة ربطات معكرونة ما زالت في صندوق السيمكا. بعد أن أخبره ماريو مرة أن ثمة مجنوناً يتجول في الجوار أحياناً ويشق عجلات السيارات، صار يرهف السمع في كل مرة تقف فيها سيارة أو دراجة نارية. نزلت العربة المنحدر ببطء، وأحياناً كانت تنقذف حصاة من تحت عجلاتها.

عند المنعطف البالغ الضيق بدت العربة غير قادرة على التقدم، بعد ذلك مباشرة التقط شتيفان أصوات رجلين، وسمعهما بعد عشر دقائق ينزلان الدرب الضيق بين المرتفعين وهما يتحادثان. كانا هاينريش مع إيطالي قصير. تقدم هاينريش معتمداً على عكازه، وعندما رأى شتيفان رفعها وأشار بها في اتجاهه وكأنه يحييه.

قال: «لو لو تكن سيارتك ذات لوحة الأرقام النمساوية واقفة فوق لما وجدنا طريقنا إلى هنا أبداً». غالباً ما تقف في المواضع العريضة من الطرقات سيارات جامعي الفطر والتوت البري عندما يهبطون إلى الغابات بحثاً عن مرادهم.

«الآن تبدو الدار مأهولة فعلاً، جميل جداً»؛ قال هاينريشن وتابع أنه أخذ سيارة أجرة إلى طبيب الأسنان

في مونتيفاركي، وأنه فكر على طريق العودة بزيارته من غير موعد. ثم سأله إن كان بوسعه إيصاله فيما بعد إلى بونتنانو؟ ففي هذه الحال يمكنه أن يصرف السائق.

عندما صعد الدرجات غير المستوية بقي هاينريش خلفه، أعجبته الغرفة الجنوبية الخالية تقريباً، فقد أضاءت شمس بعد الظهر نصف الأرضية القرميدية. سأل شتيفان عما إذا كان قد ذهب مرة إلى سوق البضائع المقلدة في أريتزو، في الساحة الكبرى، والذي ينعقد كل أول سبت من الشهر. إذ يمكن للمرء هناك بقليل من النقود أن يحصل على أجمل الطاولات والكراسي والخزائن.

«أين تضع ثيابك الداخلية والخارجية؟» وقال إن لديه في المستودع طاولة زينة لا يحتاجها. وعندما نظر عبر النافذة صاح: «آه، البئر!»، ثم روى إنه بعد سنة من انتقاله إلى بونتنانو اضطر إلى السفر إلى ألمانيا مدة أسبوع لإجراء علاج كامل لأسنانه، وعندما رجع رأى أن لصوصاً قد اقتحموا منزله وسرقوا كرسيين من الكراسي الجميلة وتجهيزات الموسيقا. وبعد أسابيع كان واقفاً في المقهى حيث يمكن للمرء أن يشتري بعض المأكولات أيضاً، عندما أخرجت ابنة المالك من غرفة جانبية كرسياً لتجلس عليه امرأة مسنة أصيبت بوعكة، فتصور أنه أحد كرسييه المسروقين.

أعجب هاينريش بالتجويف المستطيل في الجدار بارتفاع الخصر في الجهة الشمالية من الغرفة الصغيرة حيث رتب شتيفان كتبه، قال شتيفان إن مَن يلقى نظرة على المكان من الخارج يدرك فوراً أن هذا المكان قبل زمن بعيد كان نافذة صغيرة. وبسرعة غطى سريره غير المرتب بالغطاء الصوفي الأسود. تفحص هاينريش الموقد في المطبخ، وأراه شتيفان الرف المنصوب خارج نافذة المطبخ، وحكى أنه في أيام الصحو قبل الظهر تأتي حرباء مقطوعة الذنب إلى الرف وتنظر إلى الداخل، وكيف أنه – عندما لا يضع على الرف ما جلاه ليجف في الشمس – صار يطعمها بقايا السردين والشاي.

بوجود اثنين صار المطبخ ضيقاً، هز هاينريش رأسه عندما رأى فوقه ألواح القرميد المتفككة بلا ملاط على السقف، بحيث كان بوسع المرء رؤية السماء عبر ثغرات كثيرة. أخبره شتيفان أنه سمع ذات مرة قرقعة على السطح فرفع رأسه، وفجأة شاهد في إحدى الشقوق الكبيرة خطم حيوان ملموء بالشعر؛ لكنه منذ أن صعد ورتب ألواح القرميد وغيّر المكسور منها بأخرى جديدة لم يعد سقف المطبخ يدلف. سأله شتيفان ماذا يرغب أن يشرب؛ هل النبيذ أم مياه معدنية، وأضاف أن لديه كل ما يلزم لوجبة صغيرة: جبنة غنم، زيتون، بندورة. لكن هاينريش أراد أن يستطلع المكان حول الدار. عندما نزلا

الدرج أخذ شتيفان معه كرسياً مطوياً، أخرج هاينريش من جيبه زجاجة كولونيا وتنشق منها قليلاً.

ترى سلينا أنه قد كبر جداً على الحياة هنا، ففي حال إصابته بمرض ثقيل لن تتوفر هنا العناية الطبية الجيدة، «ولكن»؛ تابع قائلاً: «زوجتي أصيبت بالتهاب في صِفاق البطن ولم يستطع أطباء مستشفى مدينة كولن منع حدوث تسمم في الدم، كان ذلك قبل عشرين سنة». أشار شتيفان إلى واجهة الدار حيث بدأ ماريو في الربيع بسد الثقوب والشقوق بالملاط، وقام بيده بملء الفراغات ما بين أحجار البناء كي تتجلى واضحة للعيان، مع ردم النتوءات والمواضع غير المستوية. لكن شتيفان حالياً ليس قادراً على تأمين أكثر من ثمانمئة ألف لير أجراً لطلاء الغرف. الأهم في رأيه كخطوة تالية هو الأرضية القرميدية في الغرفة الكبرى.

أشار هاينريش بنهاية عكازه إلى الفتحة المقوسة في الجهة الشرقية بين نافذة المطبخ ونافذة الغرفة الكبيرة، والتي لم ينتبه لها شتيفان أبداً: هناك تحت القوس وحسب التقاليد كان يوضع تمثال صغير للسيدة العذراء.

«هنا يمكنك أن تخبز پيتزا»؛ قال هاينريش مشيراً إلى الفرن. فتح الغطاء الحديدي المستطيل الشكل وتابع: «كل ما عليك فعله هو تنظيف سطح الطوب الناري، فالفرن في حالة

جيدة، وبحطب قاسٍ وأغصان جافة من الغابة يمكنك أن تشعل ناراً محترمة. قبل أن تدفع أرغفة العجين إلى الداخل عليك تنظيف السطح بمكنسة من أغصان العرعر. في مثل هذه الأفران كانوا يخبزون اللزانيا أيضاً في مقلاة كبيرة».

عندما جلسا أمام الدار حكى شتيفان عن العزيمة عند ڤيتوريو في أريتزو، ولفت انتباهه إلى أشجار الزيتون التي قلّمها الجار ماريني في هذا الربيع. إنها تحمل الآن بكثافة، لكنه آسف على الشجرة الأولى عند حافة المدرج حيث ينزل الدرب نحو الجدول؛ فقد كانت محط أنظاره في الصيف الماضي عندما كان ينبثق من تاجها، مثل ريشة قبعة، غصن يافع مغطى بالأوراق. يبدو جذعها الثخين ذو القشرة المشققة كأن قوة عليا قد حاولت فتل الشجرة، كما يفتل إنسان غصناً ليقتلعه.

وكان لا بد من قطع الغصن الكبير الناتئ لأن الشجرة تحتاج إلى هواء؛ هكذا قال ناردو. ثم أراه كل ما كان يجب قطعه من شجرة أخرى، ولا سيما الأغصان الصغيرة بين الأغصان الرئيسية الثخينة. وخطر بباله ثانية كم كان ماريني محباً عندما أمسك بيديه الأغصان المحملة بالثمار الخضراء، وعلّق بأن هذه الأشجار في غضون بضع سنين ستحمل كثيراً من الثمار، إلى درجة أن بعض أهل جلّو

سيفرحهم المجيء لقطافها. لو كان شتيفان يدري أن الشجرة يمكن أن تغير مظهرها إلى هذه الدرجة لطلب من ماريني أن يترك هذه الشجرة تحديداً وشأنها. كان هاينريش في أثناء ذلك قد أشعل لنفسه سيكارة. لم يكن الغصن القوي يابساً، وقد قطعه ماريني مباشرة إلى عدة قطع، كما نشر شتيفان منه مؤخراً ثلاث شرائح ليستعملها كثقالات لأوراقه، وهو يشم رائحتها كل يوم، وأضاف أن الشجرة كانت تبدو من هذا الموضع، حيث يجلس غالباً، وكأنها تعطي إشارات بأغصانها، وما فتئه دائماً هو الشكل المختلف لكل شجرة من هذه الشجرات عن الأخرى.

«أنت باق على الأقل حتى نهاية أيلول، أليس كذلك؟»؛ سأله هاينريش وتابع إنه آسف لعدم التقائهما أكثر. أجاب شتيفان إنه فكر بالأمس بالعودة في مطلع أيلول بسبب عمله في الكتابة. كان عليه أن يدرك أنه هنا لن يجد وقتاً للكتابة، فخلال العشر، لا بل الأحد عشر أسبوعاً الماضية لم يكتب سطراً واحداً، لا في مشروع السيناريو ولا في الرواية. قريباً سيأتي أخوه لزيارته، وهو يأمل أن يحقق معه مشروع السيناريو.

لقد فكر صباح اليوم بتغيير تقسيمه للوقت، بأن يتوجه إلى طاولة الكتابة فور استيقاظه. وفي الوقت نفسه عليه أن

يقتصد؛ فالحياة هنا في إيطاليا أغلى بكثير مما كان يتصور. ورأى هاينريش أن على شتيفان أن يسجل كل ما صرفه على الدار، إذ عليه على كل حال أن يعوضه عنه. وأنه فرح جداً بفكرة أن يتركه يسكن الدار. إن لم يكن لديه مانع فهو يرغب الآن بالعودة إلى منزله، فهو متعب، كما أنه بسبب سنه — كان لا بد من خياطة اللثة — لم يستطع أن يأكل شيئاً منذ الفطور. وسيكون سعيداً إن لبى شتيفان دعوته إلى الغداء يوم الأحد القادم؛ فكل يوم أحد لدينا لحم غنم مشوي. ثم عاد وسأله إن كان بإمكانه استقبال سلينا يوم الجمعة.

على طريق السفر صعوداً نحو معبر لاكروتشينا — قبل المنعطف يتفرع الطريق باتجاه پونتنانو — حكى شتيفان لهاينريش عن نصيحة ماريو له مؤخراً بأن يحصل على جرار صغير، فبمثل هذه الأشياء الضئيلة والضيقة بوسع الإنسان السير حتى في المدرجات المستصلحة، وعن جوابه لماريو بأنه قد أقلع عن التفكير بأنه قادر من دون مساعد على تعشيب هذه الأرض واستصلاحها باستمرار لتكون أهلاً للزراعة. إذ عليه ليحقق ذلك أن يكون هنا من آذار (مارس) حتى تشرين الأول (أكتوبر)، ومن دون أن ينجز أي شيء آخر.

لم يول هاينريش اهتماماً بالموضوع؛ بل لفت انتباهه إلى بلدة أغياري وذكر المعركة الشهيرة التي وقعت في منتصف

القرن الخامس عشر بين الفلورنسيين الموالين للبابا وبين جيش ميلانو. بعد خمسين سنة على المعركة كُلِّف ليوناردو داڤينشي بتجسيدها في لوحة جدارية في القاعة الكبرى في قصر ڤكيو. وعلى شتيفان أيضاً زيارة سان سيبولكرو، فطابعها أومبري أكثر منه توسكاني، وقد ذكرته بمدينة أسيسي السفلى، وهي تستحق الزيارة بسبب پييرو ديلاّ فرنشسكا ولوحته الجدارية المثيرة للاهتمام عن قيامة المسيح والتي تشغل جداراً كاملاً في مبنى البلدية.

هناك الطريق السريع حول أريتزو أولاً ثم باتجاه سان سيبولكرو وسيتّا دي كاستِلّو، بيد أن الأجمل هو الانطلاق من ريبا دي كاراتا على الطريق الريفي عبر وادي كياسّا بين الجبال، ثم النزول إلى سفح وادي التيبر. بعد أغياري هناك هضبة عليه ارتقاؤها مجدداً، والبلدة تقع نوعاً ما على منحدر. وحالياً سيصعب عليه هبوط المنحدر في المركز إلى البار الذي أحبه كثيراً آنذاك، إلى درجة أنه قد عاد عدة مرات إلى أغياري؛ فقط من أجل أن يجلس في هذا البار حيث كانت جريدة زوريخ الجديدة ليشرب فنجان قهوة مع قدح براندي، وليستمتع بقراءة الجريدة بهدوء.

وعندما دفع الحساب وسأل صاحب البار عن أفضل طريق بالسيارة للوصول إلى مونتيركي، خرج هذا معه إلى

أمام الباب وأوضح له أين يجب أن ينعطف. لكنه تجول قليلاً في الحواري ثم صعد المرتفع الواقع أسفل البار مجدداً ليصل بعد عدة خطوات إلى فسحة تطل على وادي التيبر. هذا الطريق النازل باستقامة يمكن متابعته بالعين المجردة حتى سان سيبولكرو. وصلا إلى پونتنانو، رجاه هاينريش أن يتركه يترجل عند المقهى، ثم قال: «حتى الأحد إذاً»، وكرر: «عليك بالذهاب إلى أغياري... إذهب!»

كيس القمامة الذي حمله بالأمس ووضعه إلى جانب السيارة كان يعج بالنمل، لم يستطع أخذه معه، فتركه، ووضعه لاحقاً في كيس أكبر وربطه بخيط. استهجن ما كان سيحدث فيما لو أنه وضع الكيس الأول في صندوق السيارة. قبل المنعطف حيث انهار نصف الطريق قبل أسبوعين وضعت البلدية شاخصة تحذير. رأى على طرف الطريق عند نبع الماء الطيّب دراجة أنطونيو فيرتّي الفسپا الصفراء. توقف وشد الكابح اليدوي، وعندما ترجل مع صفيحة الماء شاهد خرطوماً موصولاً بأنبوب النبع وممتداً عبر الطريق هابطاً المنحدر. رجع بالسيارة. كانت تسمع من الغابة أصوات مناشر آلية، ومن الحقل أعلى النبع تناهت صيحات أطفال، حتى أثناء العطلة تبقى مشرفة الروضة معهم قبل الظهر.

تعجب من عدم سقوط دراجة أنطونيو الفسپا على هذه الأرض غير المستوية، صعد بالسيارة حتى المقبرة وأوقفها في مكان ظليل على طرف الجدار. وعندما وصل إلى النبع ثانية رأى أنطونيو في حديقته المسورة بشبك من الأسلاك والتي تشبه شريطاً مستوياً أسفل الطريق. قال أنطونيو إنه لن يستطيع السفر اليوم إلى سان جوستينو؛ لأن الطريق مسدود بالشاحنات المحملة بجذوع الأشجار. وسأله عن سبب غيابه عن الأنظار؟ إذ عليه أن يساعده على تصليح السور، فقد خربته الخنازير البرية مجدداً، وأكلت من كوسا وبطاطا الحديقة. لقد أصلح شبك السور لكنه كان من الثقل بحيث أنه لم يستطع اصلاحه مع زوجته. وفي أثناء سقايته مساكب حديقته بالخرطوم بصورة دائرية أخبره أنطونيو أن الجدة قد سقطت على الدرج وفقدت سنين من أسنانها، وأنها منذ ذلك الحين لم تعد قادرة على النوم إلا على كرسي بمسند.

قاد السيارة بعكس الاتجاه نازلاً الطريق المرصوفة بالحجارة نحو فيبوكي، وهو يشعر بلفّ المقود والضغط على الدواسات وتنقيل السرعات كمتعة حسية، وكأن القيادة الدقيقة في المنعطفات الضيقة على الطريق المرصوفة بالحجارة تشبه قيادة قارب فوق الأمواج.

كانت مشاهدة الشقراء المجنونة في محطة الوقود تسليه

في كل مرة. مكياجها فاقع، وترتدي بنطالاً جلدياً أسود. وبينما كانت تضع الصنبور في فتحة وقود السميكا وتراقب العداد كانت تحدث نفسها بهمس، مرددة باستمرار كلمة تقريباً. وعندما كان شتيفان يسأل أحدهم أو إحداهن: كيف الحال؟ كان يأتيه الجواب غالباً: تقريباً... تقريباً جيد. عندما رجاها أن تنظف زجاج السيارة الأمامي زمّت شفتيها المطليتين بأحمر قاتم. منحها إكرامية مجزية شكرته عليها بإطناب.

ترك السيارة في المنطقة الظليلة من محطة الوقود ودخل صالون الحلاقة، كان مبكراً عشر دقائق على موعده، قال الحلاق الشاب إن عليه الانتظار نصف ساعة أخرى، كان وحده والكرسي الثاني شاغراً. في المقهى رأى شقراء المحطة واقفة إلى الطاولة وهي تحرك قهوتها بالملعقة من دون توقف، تجاهلت ابتسامته وهزة رأسه. على الصفحة الأولى في جريدة كورير كان هناك خبر عن حادثة مرور على الطريق العام قرب فلورنسا مع صورة كبيرة لسيارتين ملتويتين تماماً وملتصقتين ببعضهما.

وكان على جميع الطاولات أوراق إعلان ملونة عن افتتاح دار المفروشات الجديدة (Centro Showroom Arredamenti) في سان جوستينو. كان يتساءل منذ

أسابيع عن طبيعة هذا البناء الهائل الحجم الواقع عند مدخل المنطقة على جانب الطريق ويشبه شكله منصة قفز على الثلج. على طريقه إلى محل الخرداوات مر بجانب البناء وألقى نظرة عبر الواجهات الزجاجية الضخمة. كانت مفروشات غرف المعيشة والبهو والنوم تشبه تلك التي يضعونها في ديكورات المسلسلات التلفزيونية الأمريكية.

دخل المقهى رجلان يرتديان زي الصيادين وفوقه صدّارة بلا أكمام وبكثير من الجيوب والأبازيم، ومع كل منهما كلب صيد ملتصق بسيده بسلسلة قصيرة. بدا له أن الوقت ما زال مبكراً للصيد؛ ففي الصيف الماضي لم ير أوائل الصيادين قبل أيلول، كان عليه صرف شيك في البنك. عندما غادر المقهى في الخارج كانت هناك سيارات واقفة ومحركاتها دائرة، صادف الحلاق وقال له إن عليه الذهاب إلى البنك أولاً.

بدت له فكرة بَلْوَر- ليتون جيدة؛ أن يدع العبدة العمياء نيديا تظهر أثناء هطول رماد بركان ڤيزوف في پومپي، لأنها أثناء الهروب عبر شوارع المدينة عند اندلاع البركان كانت تهتدي إلى طريقها على نحو أفضل من السكان الآخرين. بالأمس وضع بمتناول يده الكتابين اللذين استعارهما من

هاينريش أثناء زيارته الأخيرة، رسائل پلينيوس الابن ورواية جان پاول سلينا.

منذ أسابيع لم تسنح له الفرصة للقراءة، فقد كان مساءً يجلس ببساطة أمام الدار ويفكر بما عليه إنجازه غداً من أعمال، وأحياناً عندما يكون قد بدأ بالقراءة، كان يشعر فجأة بشيء ما، فينظر ويرى أن القطة البرية جالسة على حافة الجدار حيث ينتهي المرج وهي تراقبه. وحالما ينهض كانت تقفز نحو الأسفل إلى المدرجات. والصحن الذي كان يترك فيه أحياناً بقايا طعام المساء ويضعه على حافة المدرج بارتفاع باب الورشة كان يجده كل صباح فارغاً، ولكن من يدري أي حيوان اكتشف الصحن أولاً؟

على الدرب الصاعد إلى الشارع نبتت مجدداً أغصان شوكية وأعشاب على الطرفين وتدلت إلى داخل الدرب، وكان هذا مزعجاً، ولاسيما عند المساء عندما ينزل إلى الدار في العتمة. وفكر لو كان عندي مثل شيشرون وسينيكا خدم يعتنون بالدار! يعشبون المدرج الطويل الأول من جانب الجدول أسفل الغرفة الصغيرة يحتاج على الأقل إلى يومي عمل. لو توفر هنا جهاز مرحاض حضاري مع إمكانية مريحة للاغتسال تحت (الدوش)، عندها تصبح الدار قابلة للسكن حتى من قبل امرأة.

ربما كان هيمانه المجنون بكارولينا لا أكثر من توق للاقتراب من إيطاليا الأسطورة، هذا ما أدركه قبل سنتين عنما زارها في نابولي. ولم يستطع سوى أن يحدثها؛ لأنها جاءت إلى المقهى مع صديقة، وبعد مرور ساعة صارت قلقة لأن أمها لا شك تنظر إلى الساعة الآن. غريب: تكفي حقيقة أنها في الثامنة عشرة فقط لتمحو جميع الأحلام كأوراق في مهب الريح. لم يزعجه خطيبها، فقد كانت تؤكد في رسائلها باستمرار أن لا أهمية للأمر، لأنه طبيعي في باليرمو. لا ريب في أنهما قد تبادلا أكثر من خمسين رسالة خلال السنوات الثلاث، وفارق العمر لم يلعب أي دور مهم.

عندما رآها أول مرة على السفينة بين باليرمو وأوستيكا، قدّر أن تكون في الثامنة عشرة، وهي رأته وقدّرت أن يكون أصغر سناً. فعلى الرغم من أنها لم تسمح لأحاسيسها بأن تنعكس على وجهها؛ فقد بدا لها الآن حتماً بسنواته التسع والثلاثين في أرذل العمر. ويحتمل أن يكون السبب وجود نتاليا الصامتة التي لم تتوقف عن عض شفتيها طوال الوقت، إنها كانت في نابولي حيث كان والدها ضابطاً في الشرطة، مختلفة عما كانت عليه في رسائلها الكثيرة، بحيث لم يجدا ما يقولانه لبعضهما، على الرغم من أنه لم يكن في رأسه سوى كارولينا بعد أن وافقت على لقائه عندما يأتي إلى نابولي. ومن ثم على طريق عودته إلى الفندق، في الزقاق الضيق والمعتم فكر

مراراً بأنها كانت في الخامسة عشرة آنذاك عندما التقاها على السفينة، وقال لنفسه إنه عمر تلميذاتي.

لا، لم يكن هناك امرأة بوسعه دعوتها، أو ستقبل القدوم إلى هذه المنطقة النائية. عندما شاهدت مونيكا الصور التي التقطها في الصيف الماضي هزت رأسها باحتفار، ولم ينفع معها اعتراضه بأن الدار في السنة القادمة، بعد تركيب الأبواب والنوافذ وبعد تعشيب جذري ستبدو مختلفة تماماً. في اليوم الأخير من العام الدراسي سألته في غرفة الاجتماعات عدة مرات ماذا ينوي أن يفعل بسنة الإجازة من دون راتب. هل سيقوم برحلة حول العالم؟

على الرغم من أنه لم يتحدث عن مورا أبداً في المدرسة ورغم رجائه مونيكا أن تبقي الأمر طي الكتمان، لرغبته في تجنب الهذر المجحف، فقد حدّثت إحدى زميلاتها المعلمات في الصيف الماضي عن إقامته في ڤالدارنو، لأنها شعرت بكونها قد تُركت وحيدة، وذلك بعد أن اقترح عليها أن تزوره مدة معينة في شهر آب (أغسطس) بعد أن يكون قد عشّب وعزق الأرض واتخذ التحضيرات اللازمة، وأن بوسعها إن رغبت أن تقضي الليل في أحد الفنادق القريبة. ثم ازدار شعوره بالغربة تجاهها عندما راجت بين الزملاء شائعات في الخريف حول منزل آيل للهدم أو عن فيلا مهجورة في توسكانا.

في الصيف الماضي عندما أدرك أخيراً أن بضعة أسابيع لن تكفي لإنجاز العمل حول الدار ومحيطها، بحيث يتمكن بشكل رئيسي بعدها من تكريس وقته للكتابة، تخلى عن الأمر، آملاً بالصيف القادم. وهو لم يفكر حينها بأكثر من قراءة بعض الكتب عن پومپي وبوضع مخططات وتدوين ملاحظات. لكنه عندما كان يتناول پلينيوس كي ينخرط في الجو وهو جالس في الخارج أمام الدار، يكون متعباً فاقد التركيز، فيقرأ بدلاً عنه إحدى روايات باتريشيا هايسميث التي لا يستطيع المرء تركها من بين يديه.

وجد رواية توماسي دي لامپيدوزا «أحاديث» كطبعة جيب في أحد أكشاك الصحف في سان جوستينو، (بناء على نصيحة كارولينا: «إننا ندرسه الآن في المدرسة»). تحمس كثيراً للقصة الطويلة «الصافرة»، التي أيقظت في نفسه قبل أسبوع حنيناً كبيراً إلى درجة أن فكر بالسفر لثلاثة أو أربعة أيام نحو أدريا، رغم أنه كان على بينة من أنه لن يجد هناك شاطئاً كما في شرقي صقليا قبل مئة أو مئة وخمسين سنة. قرر أن يقوم بسفرة لشراء البضائع وأن يعتذر عن زيارات ماريو، ثم أن يقرأ پلينيوس بتركيز وأن يسجل ملاحظاته، وقد يقرأ أيضاً سلينا كي يعيد الكتابين إلى هاينريش في الزيارة القادمة. تصور أن قراءة پلينيوس، ولا سيما المقطع حول اندلاع بركان ڤيزوف، قد تحفزه على البدء بكتابة

الرواية، وتساعده على العودة إلى الوطن وفي حقيبته على الأقل بعض الصفحات.

شعر عند الفجر بورم في ذقنه، كما آلمه جرح عميق في أصبعه أصابه بالأمس في الورشة وهو يضع المحشّة. دهن الموضعين بمشروب غراپّا. صارت أرض غرفة النوم مغبرة مجدداً، كان يتوجب عليه أن يمسحها يومياً بممسحة مبلولة، بعد الاستيقاظ صباحاً أحس بحرقة في عينيه وأن فمه مملوء بحبيبات صغيرة. لم يتحسن حاله منذ أن وضع الفرشة فوق السرير الحديدي. ملأ كأساً بالماء وخرج إلى الدرج، حيث غسل فمه، ثم توجه إلى الغرفة الكبيرة وأبعد عن النافذة إطار مانع الذباب ومد رأسه إلى الخارج، فسمع ورأى في دغشة الصباح الرمادية المزرقة حيواناً يتمطق على الحشائش بين أشجار الخوخ على بعد ثلاثة أمتار من جدار الدار.

وعندما مد جذعه أكثر سكن الحيوان لحظة، رفع نظره نحوه، نفخ بشدة وهرب بسرعة. وبر ظهره الرمادي وخطمه، أهو الغرّير يا ترى؟ كل يوم صباحاً كانت هناك على المرج ثمار خوخ حلوة. تناهى من وراء الهضبة صياح ديك آل ماريني. لم يكن هناك أي أثر بعد لقرب شروق الشمس. خطرت بباله

سلينا التي سيستقبلها غداً في محطة القطارات في أريتزو. وبما أنها منذ سنوات تحرض هاينريش على العودة إلى ألمانيا شعر نحوها بشيء من النفور، حتى قبل أن يتعرف عليها.

كان طعم النبيذ الذي اشتراه قبل بضعة أيام من متجر ديسپار رديئاً، كان للملصق على الزجاجة تأثير مقنع؛ فأفرغ بقية الزجاجة في الدغل بجانب المدخل وتابع تناول طعامه. في الرابعة والنصف صباحاً أشعل النار بكومة من القش، وها هو يجلس الآن على الدرجة الأخيرة أمام الدار وفي عينيه حرقة، وحتى الآن ما زال بصيص النار يلتمع في كومة الرماد الهائلة، والوقت ما زال مبكراً للسفر إلى متجر الخضار في سان جوستينو، وهو لا يأمن جانب هذا البصيص، إذ تكفي نسمة واحدة لإشعاله من جديد. أراد الذهاب إلى ماريو أيضاً ليسأله عما إذا كان قد اشترى لوح الزجاج البديل للنافذة، أو أين يقع متجر الزجاج في لورو كوفينا؟

بينما كان يحاول تصليح سماعات الأذن سمع صوت دراجة نارية تقترب من الشارع العلوي. كان قد لاحظ وهو جالس أمام الدار كيف دخلت نملة من شق صغير في الجهاز الذي تعطل منذ الأمس. وجد في صندوق الأدوات مفكاً صغيراً وبدأ بفك الجهاز، وعندما رفع الغطاء هربت خمس

أو ست نملات، ووجد أن الحزام المطاطي للمحرك قد غادر حيزه على العجلة، وشاهد نملة مهروسة ملتصقة بالعجلة الصغيرة. أحياناً كان يغيب صوت الدراجة النارية بسبب عبورها في قطعٍ في ظهر المرتفع ثم يعود واضحاً من جديد.

عندما توقفت الدراجة فوق عند موقف سيارته صار واضحاً أن راكبها سينزل نحو الدار، وسرعان ما سمع صوت نزولها بالسرعة الأولى. الجميع يحترمون هذا الجزء من المنحدر (وهو الآن نحو الساعة التاسعة صباحاً منزلق بسبب الندى). كان الراكب سيرجو واقفاً على الدواستين بأسلوب لاعبي الدراجات النارية ومنحدراً بتعثر. دار دورة حول الطاولة أمام الدار وأطفأ أخيراً المحرك الذي كان صوته عالياً بسبب نزع العادم. قال سيرجو إن ماريو تلقى مكالمة من النمسا ولم يفهم سوى اسم شنايدر، فهل يعني اسم شنايدر شيئاً لشتيفان؟ سأله شتيفان عما إذا كان ماريو سيبقى في منزله بعد الظهر، وفكر أن يمشي إلى جلّو نحو الساعة الرابعة. وسأل نفسه عما تريده مونيكا منه. قالت له في المرة الأخيرة: «لماذا لم تخابر عمتك حتى الآن؟» وأراد أن يجيبها أنه لا يريد أن يكون على صلة مع هؤلاء الناس، لكنه صمت.

مونيكا كانت دائماً على علاقة جيدة مع مارتين زوج أمه،

الخبير بتركيب أورغن الكنائس، والذي إن كان في مزاج رائق لا يتوقف عن سرد النكات، أما مع خالته إرنا ذات المزاج البارد دائماً فقد كانت لها أيضاً مشاكلها؛ قال لها: «لن أتصل بابنة خالتي بعد الآن؛ فهي في كل مرة تشكو من مرض مختلف. وإذا سألت خالتي عنها بعد أسبوعين فإنها لا تأتي أبداً على ذكر الورم الخبيث المزعوم».

أخبره سيرجو أن على ماريو منذ تشرين الأول (أكتوبر) العودة إلى العمل في البناء، وأنه سيعمل في ورشة بناء كبيرة جنوبي أريتزو، وأنه بعد غد سيسافر مع الأولاد إلى البحر، وفي المستقبل ستقوم فورتوناتا برعاية داڤيده. فكر شتيفان بأن ماريو خلال أشهر الشتاء إذاً لن يجد الوقت للقيام بأي عمل في الدار، ولن يبني السور على حافة المرج حسبما اتفقا قبل أسبوعين، إذ كان شتيفان قد تخيل كيف سيكون بإمكانه مساء أن يسند صوره على عارضة السور ويمد نظره نحو الجنوب. أجّل إعادة تركيب الوكمان حتى بعد الظهر.

كانت لورتّا تنفض غطاء طاولة على الشرفة عندما وقع نظرها على شتيفان جالساً على مقعد منزل ماريو. كان يريد أن يتصل بمونيكا، وأثناء نزوله الدرج مجدداً شعر بالغضب لأنه لم يجد أحداً من الأولاد في المنزل. نادت لورتا: «مرحباً،

كيف حالك؟» وسألته إن كان يرغب بفنجان قهوة فعليه الصعود إليها. والدتها مريضة طريحة الفراش، والمنزل في حالة فوضى مريعة، ووالدها كالعادة لا يهتم بأي شيء. كانت أصوات برنامج تلفزيوني تُسمع من غرفة أخرى. قالت إنها قد شربت كثيراً من القهوة، ونزعت لباس المطبخ، قبل أن تجلس مع شتيفان إلى طاولة المطبخ ذات السطح المصنوع من الفورمايكا والملطخ بالبقع.

سألها همساً: «كيف حالك؟»؛ لكنها لم تساير همسه وأخذت تشكو من إنزو الذي لا يبقى في المنزل أبداً كي يحضّر للامتحان التكميلي. احتسى قهوته بسرعة كبيرة، ولم يعد يعرف الآن ما عليه فعله أو قوله، وفكر، لو كنت مدخناً لأشعلت الآن سيكارة... عندما دخل منزلها تصور أنه سيسألها: «متى ستأتين ثانية إلى مورا؟»، ابتسمت له، رأى ذراعيها الممتلئتين اللتين رّبت عليهما بلطف وقبلهما، وفكر كم بودي أن أستيقظ صباحاً وهي إلى جانبي، ولكن... لكنها سألته على الأقل: «كيف الأحوال في مورا؟»، فأخبرها أنه كان على السقف مجدداً لترتيب أماكن بعض ألواح القرميد، وأن ماء النبع صار شحيحاً وهو مضطر يومياً لتفريغ الهواء من الخرطوم، وأنه يطعم قطة برية نفورة جداً من بقايا أكله. لم يجرؤ أن يقول لها إنه لطالما فكر بالطعام الرائع في بيبّيينا وباللزانيا والنبيذ. وصل ماريو، وكان صوته مسموعاً من

الساحة، ربما كان ينادي فورتوناتا في الأعلى.

كم بدت مونيكا قريبة أثناء المكالمة في زاوية الهاتف المعتمة في منزل ماريو، لها حسناتها؛ ومنها قدرتها على المواساة. كاد أن يسألها: أترغبين بالمجيء؟ لكنها لا تغير قراراتها مطلقاً.

لقد قضي الأمر، فكر مراراً وتكراراً، فرانتس المسكين. لا فيلم ولا سلفة من شركة التلفزيون، ولا سنة إجازة جديدة من دون راتب. هذا ما خطر بباله أولاً، وليس يد أخيه التي انقطعت فيها عدة أربطة، لقد وصفت له مونيكا بالتفصيل الكامل والمؤثر كيف جرى الحادث أثناء التصوير التلفزيوني في پرِسْبورغ، إلى درجة أنه عندما يستعيده من الذاكرة يشعر كأنه كان هناك. وتذكر عند النبع أن فرانتس لن يأتي إلى مورا أيضاً، وأنه سيبقى وحده طوال ما تبقى من الصيف.

عندما كان يفكر في الأسابيع الماضية برواية پومپَي وبتقفي الآثار في العام الماضي في نابولي قرب كاستِلامارِه دي ستابيا في منطقة صناعية لا يمكن للإنسان أن يتصور كيف كانت تبدو قبل ألفي سنة، كان يقول لنفسه في كل مرة عليك البدء أخيراً بوضع مخطط فيلم موتسارت. ففي منتصف آب (أغسطس) سيأتي فرانتس، حسبما كان يأمل، وسيشتغلان من ثم بكثافة مدة أسبوع على السيناريو، ففرانتس يحتاج

حتى أواخر الخريف إلى صيغة أولية كي يحصل على الدعم المالي. فكر في أثناء المكالمة بالعودة إلى النمسا وزيارة فرانتس في المستشفى، رغم أن وضعه قد تحسن خلال الفترة الماضية.

عندما سألته مونيكا كم سيطول بقاؤه بعد، وإن لم يكن قادراً على المجيء لمدة أسبوع، أجاب بأنه عندما يفكر بالسفر على الطريق العام، الآن في الموسم الرئيسي حين سيخرج الإيطاليون لقضاء إجازاتهم، وأن يسافر مرتين في أسبوع واحد، فإن هذا التصور يرعبه، إضافة إلى أن سلينا ابنة أخت هاينريش زايفرت قد جاءت من ألمانيا، وعليه أن يرعى شؤونها لأن زايفرت قد توقف عن سياقة السيارة. عندما نزل الدرب إلى مورا انتابه فجأة شعور من يعود إلى بيته ويوجد في بيته، وتعمق هذا الشعور عندما بلغ نهاية الدرب وصارت الدار أمام ناظريه مع شجرات الزيتون الأربع عشرة التي حررها من شجيرات العليق التي كانت تعانقها.

على الرغم من أن سلينا في البداية قد حيرته وأربكته عندما استقبلها في بونتنانو وجاء بها إلى مورا ساعتين، وأحس بها ككتلة من الألغاز، إلا أنها جذبته وشغلته. عندما جلسا أمام الدار وشربا الماء؛ لم ترغب بشرب النبيذ لأنه يصيبها بدوخة

بسيطة في هذا القيظ، حسبما قالت، وقد وجدا ما يتحدثان به. وكلما كانت تبتسم كان يشعر بلحظة من لحظات السعادة، ولم يكن يشبع من سماع ألمانيتها الفصيحة والدقيقة اللفظ. قال لها نحن النمساويين مصابون بكسل الكلام، ننطق الجملة ولا ننهيها. كم تخيل أن يجلس هنا مع امرأة جذابة ومنسجمة معه فكرياً؟. ذكر لها أن خالها في السنة الماضية قد لفت نظره إلى پتراركا، وقد اشترى الآن كتيباً له. ليس من السهل قراءته، بيد أن إيقاع الأبيات يبقى محسوساً دائماً، واستشهد ببيت: «مياه صافية، منعشة وعذبة».... حفظ المقطع الأول عن ظهر قلب وهو يصعد إلى الشارع العلوي.

قال لها أثناء عودتهما إنها تذكره – ربما بسبب ثوبها – بالسيدة العذراء في لوحة موجودة في متحف مدينة أريتزو، وأن الرسام من سكان المنطقة... ثم تابع أنه واثق من أنها قد اشترت قماش ثوبها من فلورنسا أو من توسكانا على أية حال. فأجابت: «لن ينتبه زوجي إلى مثل هذا الأمر أبداً»؛ لقد اكتشفت القماش في محل صغير في پونتنانو، والثوب خاطته بنفسها بالأمس خلال ساعتين، إحدى الجارات أعارتها كل ما يلزم ذلك.

في اليوم السابق على قدومها فكر لأول مرة بالمغادرة، بإنهاء إقامته، بدت له سنة الإجازة كأنها تذوب. قاطعو

الأشجار وأصوات المناشر الآلية وطريق الغابة الذي يزداد اتساعاً كل يوم على المنحدر المقابل فوق مشط الهضبة، فوق جلّو حيث يصبون الإسمنت لنصب أعمدة الكهرباء. خشي أن أعمدة الكهرباء – رغم أنها لن تنزل حتى مورا – ستصبح ذات يوم مرئية على الشارع العلوي، وأن فريق عمالِ بناء سيأتي ليرفع الأعمدة الأولى على الطريق من جلّو إلى فيبوكي.

عندما تحدث مع ماريو ذات يوم أمام الدار حول هذا الموضوع، كان رأيه أن الأشجار ستعود لتنمو على طريق الغابة بعد أن تكون الأعمدة قد نصبت والكابلات قد مدت، وأن على شتيفان ألا يدقق النظر كثيراً. قال شتيفان إن طريق الغابة هذا يذكره بذاك في الوطن حيث نهضت مصاعد المتزحلقين على الثلج على منحدرات الجبل الذي كان سابقاً مغطى بالغابات. وقال ماريو إن ناردو ينتظر منذ سنوات طويلة وصول التيار الكهربائي إلى منزله. ففكر شتيفان: ماذا يمكنني أن أقول بهذا الشأن؟.

بينما كان يجز أعشاب المدرج المائل قليلاً حيث المرحاض الخلوي سمع صوت سيارة تنزل على الدرب. وقف في مواجهتها وآلة الجز في يده، وفكر ثانية بما اقترحه ماريو ذات مرة، بأن يفعل كما جميع الملاكين في المنطقة، أن يبني

حاجزاً مؤلفاً من دعامتين حديديتين مثبتتين بالإسمنت مع حلقات لتعليق الجنزير. لم يتعرف مباشرة على سلينا عندما ترجلت من الڤولڤو الخضراء الداكنة على المقطع المنحدر من الدرب تحت المدرج. لم تكن المساحة كافية لفتح أبواب الڤولڤو.

على الرغم من التعشيب علق بنطالها على طرف الدرب بأغصان العليقن كانت تحمل بيدها قبعة من القش لوحت بها محيية. خجل أن يظهر أمامها بسروال العمل المملوء بالبقع وبجسده المتعرق. مد هاينريش يده من النافذة الخلفية محيياً. مشى شتيفان مع سلينا ما تبقى من الدرب حتى المنعطف الأخير، لم يكن قد جمع بعد ثمار الخوخ التي تساقطت أثناء الليل على أرض المرج. قاد زوجها إريش السيارة خطوة فخطوة، ولامس رغم ذلك أغصان الدغل من جانب المنحدر حيث كانت أغصان العليق مقصوصة، مما أدى إلى خدوش على جانب السيارة التي بدت جديدة.

حمل الطاولة إلى خارج الدار ووضعها في ظل الجدار. قالت سلينا إن إريش أراد أن يرى مورا، وإلى ما هنالك... كاد ألاّ يتعرف عليها اليوم مجدداً، كان كلامها وردود أفعالها طبيعية تماماً، وبدت مرحة. ساءه أن يكون قدوم زوجها ورفقته ربما هما سبب حيويتها؛ فهل كانت العلاقة بينهما

مختلفة عما نوّه إليه هاينريش عدة مرات؟ عندما ترجل إريش اعتذر عن نزوله بهذه السيارة الثقيلة الدربَ المنحدر؛ لكن هاينريش ليس على ما يرام صحياً، وأنه لا بد من ردم الحفر التي سببتها أمطار العاصفة، وأن الجزء الأمامي من الڤولڤو بعد المنعطف الحاد كاد أن يهبط مرتين فوق النتوءات الصخرية في منتصف الدرب، وباله الآن مشغول بخزان الزيت وبفوهة العادم.

فكر شتيفان بأن المطر يغسل ويعمّق دائماً مجرى العجلات وأنه يعرف ذلك، وقال إنه لا ينزل بالسيارة حتى الدار إلا عند القدوم من السفر وقبل المغادرة، وأحياناً عندما يشتري بضائع بكميات كبيرة. نصحه إريش بحفر مجارٍ، معترضة على الدرب، كل عشرة أمتار، كي يتسرب الماء، ولو بقي هنا مدة أطول لساعد في ذلك. عندما بدل شتيفان ثيابه وجلسوا في الخارج وشربوا الشاي خطر بباله: يبدو إريش اليوم أقرب إلي من سلينا التي دخلت إلى الدار مباشرة، في حين وقف إريش على الدرج وسأل: «أتسمح لنا؟».

«كان عليكما رؤية الدار قبل سنة»؛ صاح هاينريش من تحت، وأجابه إريش: «نعم، يمكنني تصور ذلك». وبينما نزلت سلينا الدرجات إلى الغرفة الأمامية مع زوجها، أسرع شتيفان إلى الغرفة الصغرى وخبأ لباس النوم تحت

بياضات السرير ورتبه، وأغلق الحقيبة المفتوحة الموضوعة على الأرض.

قالت سلينا بعدئذ: «اعذرنا لمفاجأتك بهذه الطريقةح هل لي بكأس من الماء؟ سنغادر بعد قليل. هاينريش يرغب بأن يرينا أريتزو وغروبينا». كانا واقفين أمام النافذة يستمتعان بالإطلالة على التنور وعلى الهضبة الشرقية ذات المدرجات المشجرة بالزيتون. عندما أحضر لها كأس الماء سألها عن حال هاينريش، فأجابت بأنها تبذل ما بوسعها لإقناعه بالسفر معهما إلى ألمانيا ليدخل مستشفى يجري فيه فحوصات شاملة. سأله زوجها إن كان يسمح له بأن يلف بالسيارة في المرج أمام الدار، لأنه إن رجع بها حتى المدرج، حيث كان شتيفان يجز الأعشاب، ويلف هناك فسيكون الوضع خطيراً.

«المكان بديع هنا». صاح إريش، فقال شتيفان: «دعونا إذاً نجلس قليلاً هنا في الظل، لستم على عجلة كبيرة جداً». وتابع قائلاً إنه كان مؤخراً عند بائعة الغذائيات، يقصد في البقالية في سان جوستينو، ووجد على رف عالٍ حيث اصطفت زجاجات النبيذ الحلو والخل، زجاجتي نبيذ أحمر مغبرتين. وبعد أن مسحتهما آنّا صاحبة البقالية وقرأ تاريخ الصنع قرر أن يخاطر ويشتريهما، وكان ثمنهما زهيداً جداً،

وبالأمس فتح إحداهما ووجده رائعاً؛ «إنها لمعجزة تقريباً أن يكون قابلاً للشرب بعد اثنتي عشرة سنة». فقال إريش إن الأمر مثير للاهتمام، فجلب شتيفان كرسيي طي آخرين.

أدرك أنه كان بالغ الود تجاه إريش كي يعاقب سلينا على مزاجها الطيب وهي بصحبة زوجها اليومن إلى درجة أنها كانت تشع دفئاً خبله وجعله يحس بعشقه. عندما ناولها كأس الماء غمرته بنظرة ملؤها السعادة، كان هاينريش مقلاً في كلامه، عكازه بين ساقيه ملتفتاً عن الطاولة ناظراً نحو الهضبة قرب جلّو، وأسماه منظراً فلسفياً.

«الآن بدأت أفهمك»؛ قال هاينريش منوهاً إلى زيارته الأخيرة في پونتنانو عندما حدثه شتيفان عن المشاهدة، «هنا يمكن للإنسان فعلاً أن ينسى أو ينفي أن للطبيعة أي علاقة بنا، أو أنها تريد شيئاً منا، ولا حتى أننا نعيد إنتاج بعضنا، لا، هذا ولا بأي حال من الأحوال»، وضحك. «يمكن للمرء فعلاً أن يبدأ برؤية مغزىً في الجمال، في هذا السراب المنتشر أمامنا. ولكن سافرا مسافة عشرين كيلومتراً فقط، نحو مونتيڤاركي أو نحو أريتزو الجديدة، إلى مرجل الساحرات الصاخب، إلى شيكاغو الصغيرة، وستريكم العدمية نفسها من أجمل جوانبها. لم يعد هناك تقاليد؛ فما يسمى بالحداثة قد حطمت الجسور. في حديقتي أو هنا في مورا يمكن للإنسان أن ينسى ذلك للحظة».

قال ذلك موجهاً كلامه إلى سلينا، ثم التفت إلى شتيفان وقال: «عليك أن تأتي لتناول الطعام عندي قبل أن يسافر الاثنان». فصاحت سلينا: «قبل أن نسافر ثلاثتنا إلى ألمانيا». وتابعت: «وإذا لم يجد الأطباء ما يقلق فسنضعك في القطار في دوسلدورف، وأنت تستقبله في أريتزو، اتفقنا؟».

«سأكون سعيداً إن رفعتم الكلفة فيما بينكم، في هذا المكان، لطفاً». قال هاينريش.

سأله هاينريش عما إذا كان هناك في هذه المنطقة دروب للتجوال؛ فالتجوال لا تقاليد له هنا في إيطاليا خلافاً لألمانيا، وفي هذه المنطقة الجبلية على الإطلاق. فالناس هنا يتعبون في شغلهم، ومساءً يجلسون أمام الدار. وفي الصيف لا يساعد القيظ على قضاء ساعات في التجوال من أجل تحريك الجسم. الدروب القديمة في الغابات غطتها الأعشاب، وهي في الأصل لم تكن بغرض التجوال.

«يا له من نبيذ، وطبعاً لن نجد منه زجاجة أخرى؟»؛ سأل إريش، فأوضح شتيفان أنه من أعناب كروم الكونت ألبيانو. قصره ما زال قائماً على الطريق نحو لاترينا وراء صف من أشجار الكستناء الهائلة. لقد اضطر الكونت قبل عشر سنوات إلى بيع جميع أملاكه، هكذا أخبره ماريو، وأن المالك الجديد الذي يملك عدة وكالات سيارات في منطقة فلورنسا، يترك كل شيء للخراب.

بحركة خرقاء قلب هاينريش كأسه، فمالت سلينا نحوه وسألته: «ما بك؟»، فأجاب متوتراً: «لا شيء، لا شيء أبداً؛ إنه فقط قيظ الصيف. هناك في منزلي وفي حديقتي مساءً أشعر بتحسن. انظروا إلى حمل شجرات الزيتون الغزير. كان للتعشيب والعزق فائدته».

«كان عليكم أن تروها في الصيف الماضي قبل أن يقلمها الجار ماريني في الخريف»؛ قال شتيفان، وتابع أنه عندما جاء هذه السنة في أواخر أيار (مايو)، شعر بادئ الأمر بخيبة أمل، لأنها بدت عارية تقريباً، فقد كانت تعجبه أكثر بنموها البري. «إنها تشكل المجتمع الذي أعيش فيه هنا، وأنا واثق من أنها بطريقتها الخاصة تعي وجودي. شجرة البلوط تنمو أيضاً بشكل رائع، لقد زرعتها هناك في أواخر آب (أغسطس) السنة الماضية، وكان رأي ماريو أنها ستموت لأن الوقت مبكر جداً، وأنه سيزرع واحدة أخرى بجانبها في تشرين الأول (أكتوبر).

«لكنني تابعت سقايتها، وماريو لم يزرع طبعاً شجرة أخرى. أنا لم أعمر داراً، لكنني على الأقل في الوقت الحالي حفظتها من التداعي، لم أنجب طفلاً، ليس بعد على كل حال، لكنني زرعت شجرة.». والتفت إلى هاينريش: «بالمناسبة؛ أخي لن يأتي فقد تعرض لإصابة بالغة»، والتفت إلى إريش «إنه يخرج

أفلاماً دعائية، وأثناء تصوير دعاية بيتزا تصرف بطلنا الشهير كوفلر في سباق التزحلق على الثلج بطريقة خرقاء، إلى درجة اضطر أخي لتمثيل الحركة أمامه عدة مرات، فتعثر أثناء ذلك بكبل كهربائي وسقط على باب زجاجي... لم يكن مطلوباً من كوفلر سوى أن يقلد بداية حركة السقوط؛ فقد كان البديل جاهزاً ليكمل الحركة».

«هذا مريع؛ لكنه سيتمكن من تحريك أصابعه مجدداً، أليس كذلك؟» سألت سلينا.

«حان الآن وقت الذهاب؛ فمتحف أريتزو يفتح أبوابه في الرابعة». قال هاينريش وتابع: «لكن الجلوس هنا جميل فعلاً، وكأن أركاديا ما زالت قائمة».

أخيراً شعر شتيفان بالسرور لبقائه وحده مجدداً، عندما سمع صوت السيارة وهي تلهث صاعدة. وقبل المنعطف ضغط إريش على دواسة البنزين فزأرت القولفو بالسرعة الأولى ملتفة وسُمعت أصوات انقذاف الحصى من تحت العجلات. لم تسنح الفرصة لفتح حوار مع هاينريش. وفجأة غمره حزن، شعور كالذي انتابه عشية عودته إلى الوطن في آخر أيام آب من السنة الماضية. خلافاً للمألوف كان هناك خلال تموز (يوليو) عدة عواصف رعدية قوية بحيث نمت حشائش المرج ثانية لتبلغ طول الركبة، وقد جزها مرتين في حقل الزيتون.

عندما لفتت سلينا انتباه زوجها وهما على درج الدار إلى اللوحة التي تحمل رقم الدار، بدا الأمر لشتيفان وكأنه خيانة. ولكن كان لا بد من أن يعترف لنفسه بأن إريش كان لطيفاً، وأن الحديث معه كان أفضل من الحديث معها. ومن تكلم في واقع الأمر كان إريش فقط، بفطنة وذكاء من دون أن يبدو متباهياً. عندما سأله إريش عن صحة ما سمعه بأنه يكتب، أجاب شتيفان، نعم، لكنه لا يعد نفسه كاتباً. ابتسمت سلينا، وكان معظم وجهها في ظل حواف قبعتها العريضة.

تقلب في الفراش ليلاً وقد جافاه النوم، وأنصت إلى زقزقة الطيور في الغابة وتغريد الشحرور أحياناً وطقطقة الأخشاب، ثم تخيل مجدداً سماع صوت المياه في حوض البئر أو صوت كيس القمامة في المطبخ.

كانت سلينا لم تغادر مخيلته؛ فتصور أنها قبل السفر ستأتي إلى مورا مشياً من پونتنانو حسبما قالت بغنج، فيقفان على درجات الدار ثانية كما في الأسبوع الماضي عندما استقبلها وأحضرها إلى هنا لأنها أرادت رؤية مورا. نهض أخيراً وذهب في العتمة إلى المطبخ، تلمس طريقه، رفع زجاجة ماء عن الأرض وتناول كأساً من رف أواني الطعام، ملأه وشرب. كان الشيء الوحيد الذي لاحظه هو الإطار الفاتح اللون حول اللوحة المطبوعة التي علقها فوق الموقد،

لوحة «مادونا ذات العباءة» لسبينللو. خطر بباله ضرورة قراءة بعض المواد عن التيارات الفكرية في نهاية القرن الأول للميلاد، ولا سيما عن المسيحية المبكرة؛ فلربما كانت هناك جالية مسيحية في پومپي.

فتح مصراعاً واحداً من باب الدار وخرج. كم الوقت الآن يا ترى؟ كان الهواء بارداً جداً بالنسبه إليه للجلوس على الكرسي في الخارج؛ منذ أسبوعين لم يأت إليه رجال جلّو. كان ماريو قبيل سفره إلى البحر يمضي النهار كله في العمل في منزله الحديث في الطرف الشرقي، فهو الذي كان دائماً يحفز الشباب على المشي. والآن صار عند سيرجو دراجته النارية التي كان يهدر بها أحياناً على الشارع العلوي، وكان محركها يولول عند كل مطب.

وذهب داڤيده إلى مخيم نزهات تابع للنقابة، وجانّي يلعب التنس مع سيرجو وإنزو في الملعب المنشأ حديثاً قرب معمل الجلود في فيبوكي. لقد دعاه ماريو مرتين لإلقاء نظرة على المنزل الحديث، وقد انقضت مدة طويلة لم يزر خلالها شتيفان ماريو؛ فقد بدأ بأعمال الكسوة الداخلية، وهو يرى أن بإمكانهم الانتقال إليه في الصيف القادم. سيكون المنزل الآن كبيراً جداً؛ ولذلك فإنه سيترك غرفتين لڤيتوريو. من الصعب تحمل الصيف في أريتزو، القيظ والهواء الفاسد، لذلك سيأتي ڤيتوريو وإيڤا إلى جلّو كلما أمكن ذلك.

كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، في أثناء عودته مساء مع ابن خالته من فيلتّسموس إلى مزرعة خاله، عندما انتبه إلى نجوم السماء لأول مرة وأراد بعدها أن يعرف كل شيء عن النجوم وعن الكون. لم يكن هناك في محيطه أي إنسان قادر على شرح الموضوع له بوضوح، كما لم يستطع أحد أيضاً أن يقنعه بكيفية تحول البذرة إلى شجرة.

فجأة أصبح الجلوس على الكرسي ومشاهدة السماء غير مريح، صارت رقبته تؤلمه. دخل إلى الدار، عرّى الفرشة من غلافها القطني والغطاء، حملها إلى الخارج، سحبها على الدرج إلى المرج المحشوش. تذكر أنه كان سابقاً قادراً على معرفة طريقه بنجوم الليل كما على خارطة. كان كل مقطع من السماء وكل كوكب معروفاً لديه؛ لكنه نسي الأسماء جميعها، عدا بعض الأبراج التي يعرفها أي كان.

هل أدت إيقاعات أصوات صراصير الحقل والجنادب إلى نومه؟ عندما استيقظ كانت النجوم قد صارت أشد وضوحاً للعين، وكان درب التبانة نصف مغطى بسلسلة الهضاب في الشرق. قرر ألاّ يركز انتباهه على الكواكب التي باتت أقل وضوحاً نتيجة ازدياد وضوح الخلفية، ولا على النجوم الأكبر والأصغر والتي بحجم رأس الدبوس والتي كانت تلتمع من عمق الفضاء، وإنما ببساطة أن يترك ضباب النجوم، الوشاح

المؤلف من ملايين النجوم يفعل فعله فيه، وتصور عالماً من دون شمس وقد هيمنت على الأرض ظلمة أبدية وسواد، إلى جانب وجود نجوم السماء المستمر أبداً.

أحياناً كان عبور شهاب سريع حتى التلاشي احتراقاً يلفت نظره إلى منطقة أخرى من القبة السماوية. ومن ناحية أخرى أيقظ تلألؤ النجوم فوقه الإحساس لديه بوجود شيء حي، على الأقل بوجود شيء متحرك، على الرغم من معرفته بأن درب التبانة – إضافة إلى مورا وشخصه بالذات – ينطلق في فضاء الكون غير القابل للتصور بسرعة عالية، ومن جهة ثانية بدا له فجأة أن النظر في عمق الكون يثبت أن كل ما هو خارج النظام الشمسي مادة ميتة، ولربما ليس هناك عضويات صغرى متجمدة في جليد. فكوكبنا هذا هو الوحيد المأهول بالحياة، وهو من منطلقه، الكائن الحي الوحيد في مواجهة هاويات المكان والزمان التي لا يمكن تصورها، وفجأة غمره تصورُ ألاّ يوجد بعد، تصورُ الدمار الكامل لذاته، برهة ضئيلة من حياة ثم الليل الأسود الأبدي.

نسخٌ لا نهائية من أشكال الحياة، من الخلية البسيطة حتى الدماغ البشري، خلال برهة ضئيلة – منظورة من الانفجار الكوني الأول – ثم يعود كل شيء إلى الغبار والتحجر. ولكن من غير المحتمل، من جانب آخر، ألا يتطور شيء مثل الحياة

في الكون إلا على نقطة واحدة متناهية الصغر. لماذا لم يعد مزاجه يرتفع كالسابق لدى مشاهدة السماء الليلية؟ إلى درجة النشوة كان يرتفع اليقين أحياناً بأن كل شيء حسن، بأن هناك سلطة إلهية ما وراء الظواهر. نظر إلى قمة الهضبة في الشمال والتي كان يحدس بحدودها من دون أن يراها، ورأى على ارتفاع الشارع الممتد بين الكروم وحقول الزيتون حتى جلّو بيسكاردو نقطة ضوء، رأى ضوء سيارة صوتها غير مسموع تعبر ثم تختفي عندما تمر بغابة أو بمنعطف.

لم يخف من الموت. بل كان ذلك السقوط في...

فجأة لدى التحديق في سماء الليل أحس بقوة امتصاص هائلة. بدا الجزء المرئي من الكون وكأنه قد اقترب، وخطرت بباله الفضاءات غير القابلة للفهم والأزمنة غير القابلة للتصور ومعها اللاجدوى المطلقة للظاهرة العارضة الإنسان، بطرفة عين لا أكثر انتابه إحساس فجائي بأن الكون قد امتصه في رذاذ النجوم إلى عمق الفضاء بلا مقاومة.

في هذه اللحظة لم تسنح له الفرصة للتفكير بأي شيء يتعلق بالمستقبل، وقد ذابت جميع التطمينات التي طورها كأي إنسان آخر، وكأنه أثناء التجوال في الجبال العالية، ونتيجة

الانهيارات الصخرية، قد تداعى فجأة كل ما أمام قدميه وما وراءها، وفقد توازنه. إن لم يطرأ ما هو غير عادي فإن موته ما زال بعيداً، يُحتمل أن يعيش أربعين سنة أخرى، وربما أكثر. لم تكن فكرة مريحة أن تكون حياته محدودة كأي شيء آخر، ولكنني – هكذا فكر – سأؤجل التفكير بذلك لما بعد، وتذكر أن هاينريش قد ذكر شيئاً مشابهاً ذات مرة.

كانت تجربة سقوطه عن الدراجة قرب ماريا پلين على منحدر قاس تجربة مقبضة، حيث ارتطم ظهره على لوح صخري فلم يعد يجد هواء للتنفس وكان على وشك الاختناق. كان في الرابعة عشرة آنذاك. ربما لم يستمر الأمر أكثر من ثوان معدودة، لكنه بدا له أطول من ذلك بكثير. رعب الليل مؤخراً استمر فترة أطول. قبل يومين فقط كان ما يزال خائفاً من أن يباغته ذلك الإحساس في أي وقت. كاد أن يترك كل شيء وراءه في مورا ويرحل إلى بلده، وحصل ذلك مرات عديدة، الا أنه لم يؤجل الأمر إلا مراعاة لهاينريش (الذي ربما لم يعد على قيد الحياة في تلك الليلة.).

خلال يوم واحد سافر ثلاث مرات نحو سان جوستينو وأدار في المقهى رقم هاتف هاينريش. في تلك الليلة عندما لم يستطع أن يهدّئ من روعه مد يده إلى حافة الفرشة ولمس بريمها وتحسسه براحة يده صعوداً ونزولاً. وشعر بالراحة

لوجود شيء لم يتغير بعد... السقوط في جهنم أو في جحيم ما قبلها كان لا شك صوراً مضللة؛ فالأسهل من السواد والعدم، هو حتماً تحمل نوع من أنواع جهنم: فالصور المتداولة عن جهنم تشبه على الأقل صوراً من حياة البشر. لم يخطر في باله قط أن يكون الجليد الذي يتمشى عليه الإنسان بكل ثقة واهياً إلى هذا الحد...

بلوغ تلك النقطة: القدرة على مواجهة العدم بجرأة، أن ترى بكل جلاء أن نهاية وجودنا حتمية وأنها لم تعد بعيدة (بأي سرعة انقضت السنوات العشر الماضية!)، أن الزوال سيكون نهائياً، وعلينا تحمل ذلك بلا أي نوع من العزاء. إلى التراب ستعود: البشر كانوا دائماً على علم بهذا. وفكر بأن غبار عظامه سيختلط أخيراً مع مواد أخرى، وهكذا بطريقة ما سيبقى شيء منا موجوداً إلى الأبد. إن تصور – أين قرأت ذلك؟ عند غوته، عند أنجيلوس سيليزيوس؟ – تأليه الطبيعة كان جميلاً، ولكن أين بوسع الإنسان أن يحيي ذلك اليوم؟ كان شعوره أحياناً بأنه مرتبط مع الأشجار ومع هضاب مورا، لا أكثر من وهم، ربما لاحظته الأشجار، لكنه غريب بالنسبة إليها، أكثر غربة من عاصفة بَرَدٍ أو نارٍ أو صقيع.

بعد مرور عدة أيام تجرأ ثانية على الجلوس خارج الدار، وأعاد وضع الكرسي على المرج؛ لكنه تجنب النظر ليلاً نحو

النجوم. قبل ذلك كان يذهب كل مساء نحو سان جوستينو ليجلس في المقهى، يحتسي النبيذ ويشاهد التلفزيون.

قطع قراءة رواية پراتوليني الصغيرة، تناول خارطة محافظة أريتزو من غرفته وبسطها على الطاولة خارج الدار، فتش عن منبع نهر آرنو في جبال كاسنتينو ووجد قمة آرنو على ارتفاع ١٦٥٨ م على جبل ڤالتيرونا. وعندما تتبع مجرى نهر التيبر الذي ينبع إلى الشرق قليلاً فقده شمالي سان سيپولكرو، فهو يصب في بحيرة صغيرة تقع على الأوتوستراد المتجه نحو تشيسينا، ولكن عندما استخدم العدسة المكبرة رأى تتمة المجرى، فالتيبر يعبر الحدود إلى أومبريا.

سحره أسلوب الكاتب السردي، حتى أن قطعه للقراءة لم يخرجه من أجواء فلورنسا في الثلاثينيات والأربعينيات. قرأ في المقدمة أن النص يحمل طابع السيرة الذاتية؛ فقد كتب براتوليني هذه القصة عن علاقته بأخيه الأصغر منه بكثير ڤيروكيو بعد فترة قصيرة من وفاته في عام ١٩٤٥. ماتت الأم في أثناء ولادة ڤيروكيو، وعلى أثر ذلك لم ير الأخوان بعضهما سنوات طويلة، على الرغم من أنهما قد عاشا في فلورنسا. عندما بلغ ڤاسكو الثالثة والعشرين التقى بأخيه الذي يصغره بست سنوات مجدداً، وصارا صديقين. كان ڤيروكيو ذا بنية جسدية ضعيفة وانتقل للسكنى مع أخيه.

تزوج في الأربعينيات؛ لكنه لم يكن سعيداً في زواجه، وانتقل أخيراً بعد تحرير إيطاليا من الاحتلال الألماني للسكن مع أخيه ڤاسكو الذي أصبح يعيش في روما.

قلّب شتيفان صفحات خاتمة الرواية وبدأ القراءة عند مقطع: ولد المؤلف في عام ١٩١٣ في حي من أحياء فلورنسا ما زال يتنمي إلى العصور الوسطى وفي شارع المستودعات. في المرة القادمة عندما أسافر إلى فلورنسا؛ قال شتيفان لنفسه، سأبحث عن هذا الشارع، وسألقي نظرة على اللوحة على بيت مولد الكاتب.

عندما اقتربت سيارة على الشارع العلوي من اتجاه جلّو أخذ قلبه يخفق بشدة؛ لكنها تابعت طريقها عابرة. كان ماريو قد سافر مع الصبيين إلى تشيزناتيكو، ومع ذلك كان بوسع شتيفان أن يخابر من منزله مؤقتاً مساءً، لأن لينا تعمل حالياً في مكتب البريد في كاستليون فيبوكي بالنيابة عن موظفة في إجازة. خرج بعد الظهر مجدداً وبيده مقص الأشجار وأخذ خطوة فخطوة طالعاً الدرب يقص أغصان النباتات الشوكية والوزّال التي تدلت على الدرب، ويبعد عن مجرى العجلات الأحجار التي تساقطت من المدرجات. وفجأة فكر بأنه لا جدوى من كل هذا... ففي الحيز الأوسط بين المجريين نمت أزهار الجرس وعشبة عين الذئب وسمقت فوق الحشائش.

جلس الآن أمام الدار وأخذ يراقب تقدم كتلة سحب سوداء من جهة الشمال، كان عليه أن يبدأ فوراً بالطبخ، والتحضيرات، مثل تقطيع الخضار لا بد من إجرائها في المطبخ. على الرغم من أن أعمال التعشيب والحش والعزق الكبيرة وأهم الإصلاحات في الدار قد تمت بغض النظر عن ظهور مشاكل جديدة كل يومين، فقد بقيت الأيام ممتلئة دائماً. اشترى في فيبوكي مقعداً رخيصاً للحديقة، وضعه بادئ الأمر على المرج وقرأ عليه مدة ساعة. بدأ المطر يتساقط رذاذاً.

قرفص على العشب وغسل في سطل الماء الجزر والكرفس والفليفلة والكوسا، أخذ زجاج النوافذ يصلصل بسبب الريح؛ فقد كانت ألواح الزجاج الطولانية مثبتة في قسمها الأعلى فقط في حز خشب النافذة ومن دون معجون. فإن انكسر لوح ما بسبب العاصفة كما حدث قبل بضعة أسابيع يكون تبديله بسرعة أمراً سهلاً. لم يكد يدخل المطبخ ليفتح زجاجة نبيذ حتى انهمر المطر بشدة. ارتاح لأصوات اصطفاق المطر على قرميد السطح. عندما تمطر بعد الظهر كان عادة يضطجع ويصغي إلى الخرير على السطح؛ إذ ليس بوسعه أن يفعل شيئاً آخر.

أما في الليل فكانت أصوات اصطدام القطرات وجريان

المطر في الميازيب تساعده على النوم، وكذلك انهمار القطرات على أوراق شجرة الدردار، وكان يحس أحياناً أن الإيقاعات غير المتجانسة للقطرات الثقيلة على سطح القرميد تشبه نوعاً من الموسيقا. وكان أحياناً يستيقظ في منتصف الليل لينصت إلى قرع القطرات وإلى خرير الماء المنسرب نحو الميزاب المائل على طول الجدار. وعندما يعصف المطر كان يسمع تحت النافذة صوت جدول صغير.

بما أن السطح لم يكن مزوداً بمجار لتجميع المياه نحو الميزاب، وبما أن الألواح القرميدية نصف الدائرية على أطراف السطح لم تكن متصلة ببعضها بشكل منتظم فقد كانت حبال المطر تتساقط من أماكن عديدة من السطح. وكان إذا نظر من نافذة المطبخ خلال عاصفة مطرية كان يبدو المنظر كمن يشاهده عبر عدة صفوف من ستائر خرزية شفافة. أما الآن فثمة قصف رعد يقترب. وفجأة أطفأت الريح شعلة الطباخ الغازي، أدخل لوح التجفيف وأغلق النافذة. وفي الوقت نفسه سمع من الغرفة الأمامية صوت تساقط القطرات على الأرضية، إنه المكان نفسه الذي دلف في الصيف الماضي، أما في الغرفتين الأخريين فقد كان السقف الآن كتيماً. درفات الجهة الشمالية كانت تقرقع، لا شك أن الزوايا المثبتة بالملاط قد تخلخلت مجدداً.

وقف أمام الباب الخارجي، كان على جدار الدار جيش جرار من النمل يتسلق نحو السطح، احتاج إلى مهارة كي يسكب ماء المعكرونة وهو مقرفص من دون أن تنزلق المعكرونة على العشب ومن دون أن يحرق يده بالماء الساخن. اضطجع بعد تناول الطعام وفكر ببلده وبالكتب التي كان بوده لو أنها الآن بمتناول يده، وبجولاته الكثيرة عبر وادي غلازِنْباخ العميق. تذكر أحد أيام ذاك الشتاء القاسي قبل بضع سنوات؛ آنذاك عندما كان في العطلة الانتصافية يركب الباص يومياً حتى غلازنباخ ثم يتجول عبر الوادي. كان الدرب الكثير المنعطفات على طول نهر كلاوزِنْباخ المتجمد يصبح بعد ثلاثة أرباع الساعة مغطى بطبقة من الجليد، على ارتفاع المكان الذي اكتشفت فيه عند منقلب القرن في سرير النهر أجزاء هياكل عظمية لسمكة من عصر الديناصورات.

وعلى طرف الدرب عُرض في قترينة الهيكل العظمي الكامل المرمم لحيوان يشبه الدلفين عاش قبل مئتي مليون سنة في البحر الذي كان يمتد حتى حوض زالتسبورغ. كانت تثيره دائماً فكرة تنوع أشكال الحياة على الأرض قبل ظهور الإنسان بزمن سحيق. والدرب الذي يصبح عند هذا الموضع عريضاً لأكثر من مئة متر كان متجمداً بسبب مياه الجداول والمسيلات المنحدرة من جهة الجبل، ولم يكن هناك أية بقع في هذه المساحة تساعد الإنسان على العبور.

قال لهاينريش إنه ليس في مورا متسع من الوقت للتجوال، إذ ثمة ما يجب عمله هناك دائماً. ما كاد يظن أنه قد وجد أخيراً نصف نهار كي يستلقي براحة حتى اكتشف في جدار غرفة النوم شقوقاً وثغرات لم يسدها الطلاء، وقد عشش فيها مختلف أنواع الحشرات الصغيرة مجدداً، مثل دودة (أم أربع وأربعين) ذات اللون البني الفاتح والتي لم يلحظها إلا ليلاً عندما يشعل مصباح الجيب ليذهب إلى المطبخ لأنه سمع شيئاً. وهي عندما تشعر بالخطر تصبح فجأة سريعة جداً، إلى درجة أنه لم يستطع حتى الآن صيد إحداها بالمكنسة والمجرفة. أو حيوانات سوداء صغيرة تبرز فقط أرجلها من الشقوق وكأنها تتربص بحشرات أخرى عابرة، وأرجلها تشبه الملقط أو الكماشة. عندما وصل في نهاية أيار كان سعيداً جداً لرؤية الغرف وقد طليت بالكلس، فلم يدقق النظر. عليه أن يشتري مادة الحشوة السائلة كي يملأ بها الشقوق والثقوب.

لم يكن هناك أي إنسان في الزقاق المنحدر ذي الانعطاف الخفيف حيث منزل هاينريش الملتصق من جانبيه ببقية الأبنية جداراً على جدار، وهو بناء ضيق من ثلاثة طوابق وأعلى من البناءين المجاورين له. كان الطابق الثالث يلتمع في ضوء الشمس، في حين بقي الزقاق في الظل. نظر إلى الساعة: السادسة والنصف تقريباً. وفكر شتيفان بأن هاينريش لا بد

أن يكون في منزله الآن. حاول خلال الأيام الثمانية الأخيرة الاتصال به هاتفياً ثلاث مرات على الأقل. في البناء المجاور كانت هناك امرأة عجوز بلا أسنان تسقي بإبريق صغير حوض الجيرانيوم المستند على قاعدة النافذة. كانت تتابعه بنظرها، وبعد أن طرق باب هاينريش المزدوج والمطلي باللون الأخضر بالمقرعة الحديدية نادته بصوت مبحوح قائلة: «البروفسور مات... السينيورا سلينا ذهبت إلى.». . ولم تعد البقية مفهومة – أتراها لفظت كلمة مقبرة!

رفع صوته قائلاً: «عفواً سيدتي.». . لكنه تأخر، فقد أغلقت النافذة. طرق الباب ثانية بالمقرعة.

تقع المقبرة على الجانب الآخر من المنطقة. اختصر شتيفان الطريق بأن انعطف في الزقاق الثاني يساراً ليجد نفسه بعد مئة وخمسين متراً في زقاق مسدود ازداد ضيقاً، وحيث بدت الدور المهملة على الجانبين غير مأهولة، وقد انتثرت في صدر الزقاق براميل نبيذ قديمة وكأنها قد سقطت عن ظهر شاحنة وسدت الطريق. كان هناك عجوز بقبعة صوفية يطرق الطوق الحديدي الصدئ لأحد البراميل بمطرقة وإزميل. وفجأة انتبه شتيفان إلى أنه لا يسمع صوت الطرقات. قفل راجعاً وهو يفكر بأن عليه أن يحكي ذلك لهاينريش. لا ريب في أنه قد أخطأ الفهم وأن هاينريش في المستشفى.

أن لا يستطيع بعد الآن أبداً أن يصعد الدرج الخشبي الضيق من الردهة الأمامية البالغة الصغر في الطابق الأول، وألا يستطيع بعد الآن أبداً أن يرى الهضاب البعيدة من نافذة ما بين الطابقين العالية والضيقة؟

التقى سلينا عند مدخل المقبرة حيث كانت تضع الإبريق من يدها على مقعد بجانب الأباريق الأخرى. عندما اقترب منها شتيفان ومد يده ليصافحها جمدت يدها التي كانت قد نشفتها للتو بساق بنطالها. لم يتمكن من أن يقول شيئاً، أمسكت بذراعه وهي تسأله أين كان في الأيام الأخيرة؟ فقد أخذت سيارة إلى مورا يوم الجمعة، وفي جلّو لا يرد أحد على الهاتف. «لقد توفي هاينريش يوم الثلاثاء، ودفن بالأمس هنا في پونتنانو حسب مشيئته... غداً سيأتي إريش ليأخذني». فأجاب إنه كان موجوداً دائماً عدا الأربعاء كان في أريتزو، وأحياناً كان يشتري بضائع إما في فيبوكي وإما في جوستينو.

«فلنذهب»؛ قالت بصوت مبحوح وهي تمسك بذراعه وقد اقتربا من المنزل، ثم قالت إنها ترتب بعض الأغراض التي ستأخذها معها إلى دوسلدورف. كان كالمخدّر وهو يستمع إلى كلامها.

«ظن أن إريش سيرغب ببيع الأملاك. المسافة بعيدة جداً بحيث يصعب الاستفادة من المنزل، لا يستطيع ترك

عمله أكثر من أسبوع في مكتب الإرشاد الضريبي... لكني أظن أن الأمور لن تنتهي بسرعة... أنت ستعود حتماً في السنة القادمة؟ سيكون هذا لخاطر هاينريش، فقد كان دائماً يؤكد أنه سعيد... أنا على كل حال غير قادرة الآن على اتخاذ قرارات، ولا أريد أن أفكر بالأمر أبداً، نحن لا نعرف الإيطالية، حتى أني لا أعرف كم علينا أن ندفع ضرائب ورسوماً. علي مراجعة هذه الأضابير بهدوء مع إحدى معارفي في دوسلدورف... قال هاينريش إن دولة إيطاليا تزداد صفاقة في تحصيل الضرائب، وأن ملاّك البيوت الأجانب يزداد الضغط المالي عليهم باستمرار».

أحس أنه مثل التائه في غرفة الطعام، فقد جُذبت الطاولة حتى منتصف الغرفة ووضعت فوقها علب كرتونية وأضابير وكراسات ومجموعات رسائل مربوطة بخيطان وأباريق فخارية وكتب. ووضعت على الأرض قطع أثاث صغيرة، المرآة الجميلة ذات الإطار المذهب ولوحات وجهاز ستيريو صغير.

«أترغب في انتقاء بعض الكتب وأخذها من المكتبة فوق؟»؛ سألته. الآن فقط عندما رأى الأغراض على الطاولة وعلى الأرض أدرك أن هاينريش لم يعد هناك.

«ستشرب فنجان قهوة، أليس كذلك؟».

وضع الكيس البلاستيكي على طرف الطاولة ولحق بها إلى

المطبخ. كان في الكيس الكتب الثلاثة التي أراد إعادتها لهاينريش، قالت إن مئات الأناس من القرية حضروا الدفن، وأنهم لم يتمكنوا من طباعة النعوة، وفي دار البلدية لم يدر أحد فيما إذا كان هناك من سيأتي من ألمانيا؛ فحددوا ببساطة موعد الدفن. لكن السّندرو اكتشف أخيراً دفتر تلفون هاينريش واتصل بدوسلدورف. في المساء نفسه ركبت القطار إلى فلورنسا. روزا هي التي وجدت هاينريش قبل ظهر يوم الأربعاء... فجأة بعد أن وضعت قهوة بملعقة صغيرة في كيس الفلتر استدارت وعانقته وهي تنتحب قائلة: «كنت أريد أن آتي مشياً إلى مورا عبر الهضاب». ربت على ظهرها وأحس بوَصْلة صدارتها تحت الصوف الخشن لسترتها ذات اللون الرملي. اكتسى ثقل جسدها بشيء من التصلب، ربتت بيدها على خده وقالت: «اتفقنا إريش وأنا أن نمنح أنفسنا فرصة جديدة معاً... لست أدري... على كل».

عندما جلسا إلى الطاولة المستديرة في المطبخ سألته إن كان هناك مفتاح ثان لمورا. أجاب أن لدى ماريو مفتاحاً، وأنه سيعود بعد بضعة أيام من تشيزيناتيكو، وسألها عما إذا كان عليه ترك مفتاحه عند ماريو. لاحظ البراد العتيق وخزانات المطبخ الكئيبة المطلية كيفما اتفق. وعندما عرض عليها أن يكون مع سيارته في خدمتها؛ أجابت بأن ألسّندرو موجود على كل حال وأن إريش سيصل في اليوم التالي.

«سنبقى على اتصال على كل حال أليس كذلك؟»؛ قالت عندما ودعها. كتب على ورقة عنوانه في زالتسبورغ، وقال إن عليه أن يؤمّن بعض المشتريات بسرعة من بونتنانو. صفقت الريح باباً في المنزل فأغلقته. عند باب المنزل من الداخل عانقته، فربت برفق على ظهرها، وكاد أن يفقد توازنه لأنه كان واقفاً برؤوس أصابع قدميه على البساط، قبلته بسرعة قبل أن تفلته من ذراعيها وهي تقول همساً «تشاو». على طريقه إلى السيارة تساقطت بعض القطرات على وجهه، وتذكر أنه لم يقل لها كلمة عزاء، كما نسي عرضها لانتقاء بعض الكتب. ومن دون أي تفكير أخذ معه الكيس البلاستيكي بالكتب التي فيه وغادر.

عندما وصل نهاية الدرج لامست وجهه أوراق شجرة التين، كان أحد أغصانها حائلاً دون دخوله الباب نصف المفتوح. عندما أمسكه بيده كي يضغطه جانباً من دون أن يستجيب الغصن انتقل إلى حالة نصف النائم. طلع آتياً عبر الغابة الجنوبية، توقف سائق الباص على جانب الطريق عند تمثال الجندي. حمل حقيبة الظهر وترجل. إلى يسار تمثال الجندي تبدأ الطلعة الضيقة، بداية درب المشاة الذي يؤدي إلى مورا صعوداً عبر الغابة، وهو غير مطروق عادة إلا من قبل الصيادين في أواخر الخريف، فإن تركه سيتوه ويضطر إلى قضاء الليل في الغابة. ألم يحاول مرة إنطلاقاً من مورا

استكشاف مسار هذا الدرب وواجه بعد عدة مئات من الأمتار دغلاً كثيفاً لا يمكن اقتحامه، فلم يستطع التقدم؟

حدد توجهه قبل أن يدخل الغابة: يجب أن تكون مورا هناك بين ذروتي هاتين الهضبتين. هل نجح في المحافظة على توجهه أثناء الصعود؟ لم يتمكن من تقدير كم سيأخذ منه الطريق إن حالفه الحظ، حتى يرى الجدار الخلفي لمورا بعد عبور مدرجات برية مهملة. وخلال تقدمه الحثيث تخيل كيف سيكون الوصول. الباب غير مقفل، وليس في الدار شيء ذو قيمة سوى المقالي المعلقة على عارضة السقف والقدور، في أفضل الاحتمالات... كم سنة مضى على ذلك؟ فجأة صار التقدم مستحيلاً، حيثما التفت كان أمامه دغل لا يمكن عبوره.

تناهى إليه عن بعد عواء كلاب. تراجع عدة خطوات فوجد نفسه على الدرب مجدداً، شم رائحة دخان بعيد وفكر بأن أحدهم يحرق حشائش وأغصان مقصوصة. وصل إلى بقعة عارية وقد بدأ الغسق. مع كل خطوة كانت شجيرات الأحراج تخدش ساقي بنطاله أو تعلق فيهما. حكوا في جلّو عن ذئاب تضل طريقها أحياناً قادمة من مرتفعات أبْروزِن. كيف سيبدو منظر الدار؟ تخيل أنه يشم رائحة الجدول؛ فلا بد إذن أنه قريب. استنثر في الطريق عدة مرات، لم يعد في

أنفه رائحة رحلة القطار الكريهة التي دامت عدة ساعات ولا رائحة الباص الكريهة أيضاً، فقد نظفه التنفس العميق خلال الصعود.

من الجانب الآخر من الجدول الذي لم يعد يسيل فيه ماء كثير فاحت فجأة رائحة حمار ميت. بدا له أنه قد وصل إلى هذه النقطة سابقاً ولكن من الجانب الآخر: لم يعد مهماً الآن الانتباه إلى معالم الدرب، صعد المنحدر عبر حشائش بارتفاع الخصر مقتحماً دغلاً كثيفاً، إلى أن وصل أخيراً إلى المدرج الأول، وربت بيده على لحاء شجرة الزيتون. تلك البقعة القاتمة بين الأشجار، هل هي الدار؟ تعثر في بكومة رمل ورأى على المرج مواد بناء ومجموعات من ألواح القرميد المحزّمة، أنزل حقيبة الظهر عند الدرج.

وفجأة وجد نفسه أمام دار آل ماريني، خرج ناردو محني الظهر من إحدى حظائره الكريهة الرائحة وهمس له أنه قد علّم دجاجاته الطيران، ثم فتح فرجة في الشبك الذي سوّر به الخم، حيث كانت الدجاجات تنبش الأرض وتنكشها، وأمسك بدجاجة من ساقيها معاً ورماها نحو الأعلى...
وحتى عندما استيقظ، تخيل أنه ما زال يشم رائحة روث الدجاج.

ليتني جئتك في بداية آب وقرعت باب منزلك، ما أعاقني كان سلوكك الغريب جداً عندما كنا نلتقي مصادفة خارج پونتنانو قرب المقبرة، حيث يمتد النظر بعيداً في كاسنتينو إلى الوادي، حيث ما يزال مجرى آرنو ضيقاً والهضاب قليلة البيوت، وحيث البلدات والقرى. حدثتني ذات مرة بإلحاح عن هذا المنظر، إلى أن صار يبهجني مثلك. وعندما أوضحت لك ذلك صارت نظرتك أخيراً أكثر وداً. كنتَ خارجاً للتو من زيارة قبر صديقك إليو الذي ذكرته لي في الصيف الماضي. توفي بعد مرور أربع سنوات على انتقالك إلى توسكانا، وكان الإنسان الوحيد في پونتنانو الذي بوسعك أن تحاوره فعلياً. كان إليو يعلّم في مدرسة راسّينا ويقضي فصول الصيف دائماً مع عائلته عند أقربائه في جزر ليپاري، وكان يسكن في الشتاء أحياناً في راسينا، وهكذا فإنكما لم تلتقيا إلا نادراً.

تحادثنا مدة من الزمن، وكان جميع العابرين يحيونك باحترام. حكيت لك كيف أني في مورا قبل الظهر بعد نشر الغسيل استدرت بحيث واجهت واجهة الدار، ولاحظت فجأة أن الجزء الأمامي من مورا قد بني في الأساس على شكل نرد، أي كما يرسم الأطفال البيوت، مربع وفوقه خطان مائلان للسطح. ثم وُسّع هذا الجزء الأمامي بإضافة المطبخ، وهو بناء تقدم على واجهة مورا بنصف متر، ملتصقاً بأعلى الجدار، مظللاً المدخل. وعندها بدأت أفهم، وأخبرتك عن

سبب انخفاض سقف المطبخ بحيث يمكن باليد لمس ألواح قرميد السطح.

«اتصل بي قريباً»؛ قلت أخيراً، «عليك أن تأتي ثانية للغداء».

عندما ركبت سيارتي لاحظت أن مؤشر الوقود يشير إلى الصفر؛ لذلك تركت السيمكا في المقاطع الأقل انحداراً من طريق المعبر تتدحرج كالعربة حتى كاستيليون فيبوكي، وبينما كان عامل محطة الوقود يملأ الخزان ويفحص الزيت خطر ببالي أنني رغم نيتي المتكررة لأن أقول لك إني سعيد جداً في مورا لم أقلها لك أبداً. أحياناً في منزلك عندما كنت تخرج لإحضار كتاب لتقرأ لي منه شيئاً من رسائل پتراركا أو حوارات إراسموس كنت أسترجع في ذاكرتي ما نويت أن أقول لك، عن قضية ڤالدهايم مثلاً التي قرأت أنت عنها في جريدة الجمهورية، أو عن قراءاتي المسائية، ولكن حتى عودتك أكون قد نسيت.

كنت أنوي أن أقول لك أني في هذه الحالات وما شابهها أتساءل لماذا يصعب على المرء الاعتراف لنفسه وللآخرين أنه قد أخطأ أو أن سلوكه كان شائناً. وخطر ببالي على طريق المعبر تلك الأمسية في مطبخ ماريو حيث كان التلفزيون يبث فيلماً وثائقياً عن موسوليني، وكيف بدأ ماريو يتحدث عن

هتلر: أصحيح أنه كان أحد رجالات ألمانيا، وكيف أذهلني سؤاله لدرجة أني بذلت جهداً كبيراً لجمع بعض الجمل، فقط لأعدد أمامه الفظائع التي ارتكبها هتلر وأتباعه على المستوى العالمي، وكيف أن عواقب تلك الكارثة ما زالت ذات تأثير حتى الوقت الحاضر، ورأيت خلال ذلك كيف كانت عيناه تدمعان من تقطيع البصل. فقررت أن أسأل ڤيتوريو في لحظة مناسبة عما إذا كان يعرف كيف توصل ماريو إلى مثل هذه الآراء.

ذلك الكتاب القديم جداً المجلد بقماش أزرق داكن والذي يضم مختارات من رسائل پتراركا المتخيلة لم تعرض علي استعارته أبداً. ومثلما كنت أحياناً أثمل لدى آل ماريني من كأس صبها لي ناردو، ومن ودهم الحقيقي، فأشعر بنفسي في داري كما لم أشعر سابقاً أبداً، فأتقافز نازلاً الدرب حتى الشارع وأنا أعيش اللحظة؛ هكذا كنت أقود السيارة بعد زياراتي لك في پونتنانو، سعيداً وأنا أنحدر منعطفات طريق المعبر، لأنعطف من ثم عند شاخصة جلّو بيسكاردو باتجاه الطريق الأضيق والذي يصبح بعد بضعة أمتار انحداراً لولبياً خطراً.

ما زلت أحتفظ بالورقة التي دونتُ عليها شعار مجلة پتراركا، ذلك المقطع من رسائله الموجهة إلى فرانشسكو نِللي، وذلك عندما غبتَ بضع دقائق عن الغرفة: «أريد ألا

يفكر قارئي، وليكن من يكون، إلا بأمر واحد: بي أنا، وليس بتزويج ابنته، ولا بتلك الليلة مع صديقته، ولا بدسائس أعدائه، ولا بالضمانات، ولا ببيته أو حقله أو خزينة أمواله، وأن يكون معي طوال قراءته إياي. إن لم يناسبه هذا الشرط فليبتعد عن هذه الكتابات التي لا فائدة منها..».

لم أقل لك أبداً ما عنته لي معرفتي بك، ولا أجرؤ على قول صداقتك، وهذا يعود إلى أني رغم كل اللطف الذي أبديتَه كنت أشعر أحياناً بمسافة فيما بيننا؛ لكنك أثناء زيارتي الأخيرة سمحت لهذه المسافة بأن تتقلص، ثم ابتعدت فجأة وصرت نائياً. ربما. هكذا فكرت. تكون قد سافرت إلى ألمانيا لإجراء الفحوص الطبية الدقيقة في إحدى العيادات، تحت إلحاح سلينا الذي لا يلين.

إني قبل كل شيء أتألم لفقدانك كي أخبرك عن ليلة الرعب التي عشتها، لا شك أنها كانت قبل وفاتك ببضعة أيام، تلك الليلة التي لم يعد بعدها أي شيء كما كان، وأني لم أعد أجرؤ على الجلوس مساء أمام الدار، بل صرت أقرأ في الداخل على نور الغاز، أو أنزل إلى سان جوستينو لأجلس في المقهى الصاخب بحركة دخول وخروج الزبائن، معظمهم من الشباب الذين يسببون كثيراً من الضوضاء، وأنا جالس أراقبهم من زاوية التلفزيون مقنعاً نفسي بأني هكذا على الأقل أتعلم الإيطالية. علماً بأني أمتلك في مورا كرسياً

مريحاً للجلوس، بل كرسيين، وقد استخدمت الثاني لأرفع عليه قدمي أحياناً.

تلك الليالي التي لا قمر فيها سمحت لي بمشاهدة نجوم السماء على نحو لم أختبره سابقاً أبداً، درب اللبانة مركز المجرة بدا قابلاً للمس، وقد فهمت جيداً كون البشر قد سُحروا بهذا المشهد منذ آلاف السنين وحاولوا التسامي به وراء حدود التجربة الحسية والإدراك.

لم أنتظر منك مواساة؛ لكنني كنت واثقاً من أني إن حكيت تجربتي لإنسان يفهمني، فقد كان ذلك سيساعدني. من غير المعقول أن أحكيها لماريو أو أنطونيو أو ناردو، ولا أظن أن حتى ڤيتوريو كان سيفهمني، وإن تمكنت من التعبير عن نفسي بصورة جيدة، وكان ربما سيقفل الموضوع بإحدى ملاحظاته اللاذعة. الأقرب لأن أطمئن إليه كانت لورتّا، لو أنها رجعت، لو أننا تقاربنا مجدداً، فأن أعانقها وأشعر ببشرتها على بشرتي وأحس بأنوثتها المعطاءة كان سيجلب الهدوء إلى نفسي. كلما كنت أسمع مساء صوت محرك سيارة يقترب على الشارع العلوي كان خفقان قلبي يرتفع.

في تلك الليلة – نهضت بعدها مرة أخرى – لم أجد طريقة لتهدئة نفسي سوى الجلوس على الكرسي في الغرفة الكبيرة وإشعال الشمعة، (التي ذهبت بها قبل ذلك من غرفة

إلى أخرى لأني أرقت والرعب لم يتراجع)، ثم وضعها على حافة الموقد في المطبخ وقراءة «أبانا الذي في السماوات.». همساً أمام لوحة «العذراء ذات العباءة» المعلقة فوق الموقد. لقد ساعدني هذا فعلاً تحلل الرعب الذي شلني وجعلني في الوقت نفسه أرتجف، ذاب تدريجياً. أقفلت باب الدار من الداخل وأويت إلى الفراش ثانية.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير، وبدا لي وكأني سأجد الهدوء وأغفو متخيلاً أن لورتّا قد تسللت إلى الدار واضطجعت بجانبي. مرت مدة كنت أترك فيها الباب غير مقفل ليلاً، في حال أنها جاءت، مع اتفاقنا عند الوداع في تلك الليلة أن تطلق بوق السيارة ثلاث مرات فوق، فآتي مع مصباح الجيب لاستقبالها.

قالت إنها لن تكرر في حياتها النزول بسيارتها على هذا الطريق المريع أبداً. في تلك الأيام كانت الليالي حالكة، ولهذا تمكنت من مشاهدة نجوم السماء بحدة ووضوح لا سابق لهما أبداً إلى درجة أن ضعت فيها وكدت ألا أعود.

في الصباح الباكر بعد التجربة التي ربما لم تدم أكثر من ثوان بدا كأن كل شيء قد تغير: المشي حول الدار، الذهاب إلى النبع لجلب ماء للشاي، الأشجار والشجيرات، بدا لي كأن كل شيء فجأة قد قطع رابط الصداقة معي، الرابط

الذي توهمته عندما دخلت إحدى الحظائر لإحضار آلة جز الأعشاب انغرزت عميقاً في إبهامي شوكة نبتة تركتها تنمو بجانب جدار الدار، وفي عتمة الحظيرة قفز على صدري فأر من الطاولة الثلاثية القوائم، وما انسجم مع الحال تماماً هو أن أنبوب النبع لم يرشح منه سوى قطرات عندما أدرت الصنبور.

ما إن سطعت الشمس فوق الهضبة حتى دبت الحياة فيّ مجدداً وتلاشى الخوف، لكن الحيرة بقيت، وخشيت ألا أستطيع تحرير نفسي منها. في حزيران (يونيو) لدى استغراقي في نجوم السماء غمرني فجأة شعور بالسعادة، تملكني فجأة يقين بوجود وعي أو كائن فوقنا أو تحتنا، لا يمكن إدراكه، وتصورت أن عقلنا هو جزء من جوهر عقلي، وكنت واثقاً للحظة، بمعنى ما، من أن كل ما هو موجود على سطح الأرض، سيتابع وجوده بطريقة أخرى.

كم كنت سعيداً في الصيف قبل سنتين في أولى رحلاتي إلى ڤالدارنو عندما أخذتني لمشاهدة مورا، وأوصلتني مساءً بسيارتك الضئيلة الحجم إلى محطة القطارات في راسينا. كان عرضك أن أجعل مورا قابلة للسكنى... منذ مدة طويلة لم أعد قادراً على تصور أن علي على الأقل قضاء عشرين أو خمس وعشرين سنة أخرى في سلك التعليم حتى التقاعد،

وهذا منذ أن تبيّن لي أن تصوراتي عن العملية التعليمية لم تعد مطلوبة، منذ أن صرت في محيط معظم الزملاء نوعاً من إنسان شاذ. للأسف أنني حتى مع هؤلاء القلة الذين يفكرون مثلي نوعاً ما لم أكن قادراً على تبادل الحوار؛ لأنهم قبيل تقاعدهم لم يكونوا مستعدين للمخاطرة بأي شيء. وبالنسبة للشباب صرت أنا من فئة الأكبر سناً بين الزملاء. وكان لقبي بين التلاميذ القلم الأحمر الذي يتوارث من جيل لآخر.

توقف على عتبة الدرج، لقد سها مجدداً عن إغلاق الباب والنوافذ عند بدء الغسق. كان كل شيء ساكناً. قبل ساعة وهو خارج من المطبخ بعد أن شرب ماء لاحظ وجود طير جارح في السماء، ربما كان باشقاً بدا كأنه قد توقف عن الحركة مدة طويلة فوق الهضبة الشرقية. ماذا كان يريد عندما دخل إلى الدار؟ فوق المرج كانت بعض طيور الخفاش تطير في حركة دائرية تكاد تكون غير مرئية. كان لا بد له من التوقف عن القراءة لأنه لم يعد يرى السطور تقريباً.

أركتور وڤيغا كانا مرئيين في قبة السماء. ترى هل بدأ التكلس مبكراً؟ كان يمسك بيده رواية سلينا المستعارة من مكتبة هاينريش، وقد وضع سبابته بين الصفحات؛ إذ إن قلم الرصاص الصغير الذي استخدمه علامة قراءة سقط من حضنه بين الحشائش عندما نهض واقفاً ولم يعد يجده.

ها هو يتذكر الآن: كان يريد أن يسجل ملاحظة عن ضرورة تأمين نسخة من رسائل جان پاول عندما يعود إلى الوطن. وفكر بأن يوم الأحد سيكون يوماً ملائماً لرحلة العودة. عليه أن يستفسر من فورتوناتا عما إذا كان ماريو والصبيان سيعودون من تشِيزيناتيكو فعلاً يوم السبت، لم يرد أن يسافر قبل أن يودع ماريو.

بقي له تسعة شهور من سنة الإجازة من دون راتب، فكر في أثناء القراءة فيما إذا كانت رواية سلينا ملائمة مادة درسية للقراءة، وضحك ساخراً من رد الفعل الحتمي؛ إذ إنه حاول قبل سنوات استخدام معلم المدرسة الصغير ڤوتس لجان پاول أيضاً. في منزل هاينريش مؤخراً كان مذهولاً إلى درجة أنه أخذ معه كيس الكتب مجدداً، من دون أن تنتبه سلينا إلى ذلك أبداً. وهو يأمل ألا تكون الورقة التي كتب عليها عنوانه قد ضاعت في فوضى غرفة الطعام.

تناهى إلى سمعه من جهة الجدول تغريد طائر حذر، تذكر أنه شاهد في التلفزيون في الشتاء الماضي فيلماً من الخمسينيات عن يوهان نستروي، حين ذكره تغريد شحرور مفاجئ أثناء جولة الحذّاء كنيريم على درب ريفي (أم كان أحد الأجراء الثلاثة الآخرين؟) بمورا والصيف الأول، مما أيقظ في نفسه حنيناً تواقاً. يجب أن يسجل أيضاً وادي

كمبانيا لجان پاول، ليقرأه بوصفه مدخلاً لسلينا. أدهشه مدى انشغال جان پاول بمسألة الخلود. في الرواية أدخل الكاتب نفسه في حلقة أصدقاء سلينا، وجعله يصر على شرح أدلته عن وجود حياة بعد الموت للسفير ألكس الذي أدى دور الشكاك في حلقة المتناقشين. كانت الحوارات تجري في الهواء الطلق في أثناء المسير في مناطق جميلة ذات قصور وقرى وجبال بعيدة.

لم يتمكن الكاتب من الالتقاء بهنريون حبيب سلينا منذ وصوله إلى المزرعة؛ لأنه كان قد غادر قبيل ذلك للاشتراك بمعركة تحرير اليونان.

فكر شتيفان هل تعد سلينا قصة طويلة من دون حدث حقيقي؟ أم بحثاً، أم نوعاً من الموعظة؟ ربما هي مزيج من ذلك كله. كان يفكر أحياناً في أثناء القراءة بحوارات أفلاطون، وسأل نفسه فيما إذا كانت كتابة سلينا بالنسبة للكاتب نوعاً من الحوار مع الذات. وذلك بأن وزّع الأوجه المتصارعة التي يبتكرها ويطورها أحياناً خلال عملية الكتابة على أناس مختلفين، كما لو أنها مسرحية، فأبرز مراحل العمر الثلاثة، الفتى والرجل والعجوز.

في الختام تحول كلام ألكس إلى سخرية من بعض اللاهوتيين الذين كانوا يتحاورون حول ما إذا كان الميت

في حياته الآخرة سيبقى محافظاً على علاماته الفارقة مثل الندوب الظاهرة أو التشوهات الجسدية. وكان هؤلاء اللاهوتيين متفقين على أن الموتى المقيمين في الآخرة لا يحتاجون إلى معدة وأحشاء، ولا إلى شعر وأظافر، ولا إلى أوعية حليب.

بعد هذا النقد الموجه إلى الإيمان بالعالم الآخر على لسان ألكس «محامي الشيطان» في ثلة الأصدقاء، نشطت أنا جان پاول الثانية لتقدم مرافعة دفاعية، في نثر رائع، ولتنتهي بعد ثلاث صفحات. على أثر ذلك مات الكاتب من دون أن يستطيع تقديم البرهان الفلسفي على خلود الروح؛ لكنه ترك وراءه عدداً كبيراً من الملاحظات الذكية الفريدة. فكر شتيفان كيف كان بوسع جان پاول الذي بدأ كاتباً ساخراً وقريباً من أفكار عصر النهضة أن يكون مأخوذاً بفكرة عالم آخر بعد الموت؟.

الموت ـ الفناء؛ حسب تسمية جان پاول — أمر بوسع شتيفان التأقلم معه، وليس بوسعه في هذه المرحلة من عمره على كل حال أن يشكك فيه. وملاحظات جان پاول في ملحق سلينا سترافقه الآن، وسيطول أمد تعامله معها.

راجع قبل الظهر الملاحظات التي كتبها في مورا، وفكر بأنه بعد أن ينقحها في الشتاء سيرسل مختارات منها إلى

سلينا، فقد توقظ فيها الحنين إلى العودة مجدداً. ثم تذكر ثانية أنه لا يعرف لها عنواناً، ولا يعرف حتى اسم عائلتها ليسأل عنه في الاستعلامات إن لزم الأمر.

عند دخوله إلى الدار لامس نسيج عنكبوت جبهته، وذكّره بشيء ما من الماضي.

- انتهت -

ليست الحالات ولا الأحداث هي ما يميز أدب ڤالتر كَپّاخَر؛ بل هي «حملته الاستكشافية في الكتابه، التي لا يمكن أن تكون أكثر مغامرة» بحسب پيتر هاندكه.

وهكذا فإن الحالة التي تنطلق منها رواية كپاخر «سلينا» لا تلفت النظر كثيراً: معلم المدرسة شتيفان يقبل بعرض هاينريش زايفرت الذي تعرف إليه قبل سنة في أريتزو للسكن في داره الريفية المنعزلة في توسكانا. ويعايش القارئ محاولات شتيفان لجعل الدار ومحيطها قابلة للسكنى، وتعرفه على الناس في القرية وزياراته لهاينريش الذي يتوقع قدوم ابنة أخته سلينا من ألمانيا. وما يتطور في سياق الرواية ببطء هي موضوعات الكاتب جان پاول: الحب والموت والخلود.

إن ڤالتر كپاخر لا «يلقي محاضرة عن روح العصر»؛ ولكن وراء عَرَضيّة سرده الظاهرية تكمن جدية عميقة، إنه يدفع القارئ بلا هوادة إلى التفكير. ويسود نصوصه هدوء نسمع فيه نبضات قلبنا.

ولد ڤالتر كَپّاخَر في عام ١٩٣٨ في زالتسبورغ في النمسا، ترك المدرسة وهو في الخامسة عشرة من عمره واشتغل في مهن مختلفة. بدأ نشاطه الأدبي عام ١٩٦٤، وبدأ ينشر منذ عام ١٩٦٧، إلى أن تفرغ للكتابة في عام ١٩٧٨.

يعيش حالياً بعيداً عن الأضواء في أوبرتورم قرب زالتسبورغ، حصل على عدة جوائز وأوسمة، منها جائزة هرمَن لِنْتس عام ٢٠٠٤ وجائزة غيورغ بوشنر الألمانية للأدب عام ٢٠٠٩.

«يُعد ڤالتر كَپّاخَر شيئاً نادراً؛ بل صار نادراً: إنه كاتب، مؤلف، أصيل في طروحاته وأسلوبه».

پيتر هاندْكِه

نبذة عن المترجم:

ولد في دمشق عام 1945. حاز على درجة الدبلوم في الأدب - اختصاص مسرح عام 1971 من ألمانيا الديمقراطية. عمل عام 1976 في مجلة «الحياة المسرحية» محرراً مع مؤسسها المرحوم سعد الله ونوس. نشر بالألمانية والإنكليزية عدة مقالات عن المسرح السوري والعربي. بدأ التدريس في المعهد العالي للفنون المسرحية عام 1982، ثم حصل على درجة الدكتوراه في الفنون المسرحية عام 1988 من جامعة هومبولت في برلين.

حاز عام 1983 على «جائزة الأخوين غريم» للترجمة من الألمانية، كما ترجم عن الألمانية تسع عشرة مسرحية.

رئيس قسم اللغات والآداب الأجنبية في «هيئة الموسوعة العربية» منذ 2002، وهو عضو في لجان وهيئات ثقافية عديدة.

سِلينا أو الحياة الأخرى

ليست الحالات ولا الأحـداث هي ما يميّز أدب ڤالتر كَپّاخَر؛ بل هي «حملته الاستكشافية في الكتابة، التي لا يمكن أن تكون أكثر مغامرة» بحسب پيتر هاندكه.

وهكذا فإن الحالة التي تنطلق منها رواية كپاخر «سلينا» لا تلفت النظر كثيراً: معلم المدرسة شتيفان يقبل بعرض هاينريش زايفرت الذي تعرّف إليه قبل سنة في أريتزو للسكن في داره الريفية المنعزلة في توسكانا. ويعايش القارئ محاولات شتيفان لجعل الدار ومحيطها قابلة للسُّكنى، وتعرُّفه على الناس في القرية وزياراته لهاينريش الذي يتوقع قدوم ابنة أخته سلينا من ألمانيا. وما يتطور في سياق الرواية ببطء هي موضوعات الكاتب جان پاول: الحب والموت والخلود.

إن ڤالتر كپاخر لا «يلقي محاضرة عن روح العصر»؛ ولكن وراء عَرَضيّة سرده الظاهرية تكمن جدية عميقة، إنه يدفع القارئ بلا هوادة إلى التفكير. ويسود نصوصه هدوء نسمع فيه نبضات قلبنا.

بيتر هانْدكِه

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA
JOHANNES GUTENBERG UNIVERSITÄT MAINZ
ISBN 978-9948-01-400-3
9 789948 014003